أوراق الثورة العربية (١)

المعارك الأولى

الطريق إلى دمشق

صبحي العمري



المعارك الأولى

الطريق إلى دمشق

أوراق الثورة العربية (١)

المعارك الأولى

الطريق إلى دمشق

صبحي العمري

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

Papers of the Great Arab Revolt (1)
Early Battles
The Road to Damascus

BY

Sobhi Omari

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Omari, Sobhi
Early Battles
1. Arab countries. Social Life revolt, history
I. Title
909'.097927

ISBN 1855130866

الطبعة الأولى: كانون الأول / ديسمبر ١٩٩١

المحتويات

الفصل الثالث

لمحة عن حياتي

اسمي «محمد صبحي». هكذا أسماني والدي رحمه الله بعيد ولادتي في دمشق في صبيحة يوم الجمعة الواقع في الثاني من شهر ذي القعدة من عام ١٣١٤ هجرية. وكان ذلك في حي القيمرية في دمشق. وكان ظهوري إلى عالم الدنيا مع أذان الصباح ولذلك أسماني «محمد صبح» وسجل هذه الولادة على هامش كتاب دلائل الخيرات تيمناً وتبركاً، وتبعاً لعادته في تدوين تواريخ ميلاد أولاده. لم تكن شهادات الميلاد في ذلك الوقت معروفة، ولم يكن القانون يشترط على القابلات إبلاغ المراجع المختصة عن الولادات التي تجري على أيديهن. وكان أكثر الآباء لا يسجلون أولادهم في سجلات النفوس خوفاً من الجندية الإلزامية، وكان أكثر الناس يحفظون تواريخ ميلادهم بالأحداث التي تقع وقتئذ، فيقول أحدهم انني ولدت في عام مقتل فلان، أو في عام تولي فلان الصدارة العظمى، وهكذا....

والدي هو المرحوم الشيخ أحمد بن الشيخ محمد العمري وكانت ولادة والدي في دار والده في محلة القيمرية ـ زقاق العمري في دمشق، والدار ما تزال قائمة حتى الآن، وكذلك الزقاق وهو يحمل الاسم نفسه.

وأما والدتي رحمها الله، فهي السيدة بهية بنت المرحوم السيد محي الدين القطب وهي من أشهر العائلات الدمشقية، التي تتعاطى التجارة. وكان جدي لأمي يمتهن تجارة الأقمشة الحريرية والمخمل، وله مصنع لحياكة المنسوجات الحريرية المعروفة بالبروكا. وكذلك صناعة التطرين، وهي عبارة عن تطريز الأقمشة بالخيوط الذهبية

والفضية، وكانت تصنع خصيصاً للعرائس وتنقل من دمشق إلى جميع أقطار العالم. وكان مخزنه في آخر سوق الحميدية، وقد ورثه عن أبيه. وما زال هذا المخزن موجوداً يشغله أولاد أخي جدي. وكانت صناعة التطريز من مفاخر الصناعات الدمشقية التي تغرق في القدم إلى ما قبل العهد الأموي، ولها شهرة عالمية فعرفت في أسواق أوروبا باسم «دامسقو» نسبة إلى اسم دمشق باللغة الفرنجية، وقد ظل لهذه الصناعة مقامها إلى هذا الزمان، ولكن اختلفت وجهاتها، وهي لا تقتنى في هذه الأيام إلا من أجل أعراس البدو والفلاحين، بعد ان كانت تصنع خصيصاً لأعراس النبلاء والأغنياء.

وكان جدي وأخوه رحمهما الله يسكنان معاً في دار واحدة خصصا القسم البراني منها للتطريز. ولا أزال أذكر منذ كنت طفلاً ان نساءً كثيرات كن يعملن في هذا المكان، وكان بعضهن يأتي لتلقّن هذه الصنعة الفاخرة وتعلمها. يضاف إلى ذلك أن هذه الأقمشة المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية تغلف بها المفروشات والمخدات والمساند والستائر وتصنع منها وجوه المقاعد الوثيرة حتى زماننا هذا. وقد شاهدت في أوروبا بعض هذه المقاعد القديمة المصنوعة من الخشب الدمشقي. حيث تباع بأعلى الأسعار لتزين القاعات الكبرى في قصور العظماء.

إن أسرتنا تحمل لقب «العمري» لأنها تنحدر من نسل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولدينا ما يثبت هذه النسبة، ويقيم الدلائل على صحة هذا الثبت. فهناك مخطوطة قديمة ونسختها الأصلية موجودة عند ابن عمنا السيد حسين العمري، كما كانت توجد نسخة منها في مكتبة السلطان عبد الحميد في استانبول. ولدينا شجرة نسب قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل خمسمائة سنة، هذا، ولا شك لدينا في صحة هذا النسب، ذلك، لأن أكثر الناس في الزمن الذي سبق زماننا هذا، كانوا يعتدّون بأحسابهم وأنسابهم وكانوا يفاخرون بذكر أبائهم وأجدادهم، ولم يكن من حق احد أن يعترض على ذلك، لأن القاعدة المتبعة هي: ان الناس في الأزمان السابقة صادقون فعلاً، فلا يدعي أحدهم نسباً إلى أحد المشاهير كذباً، وكان بعضهم لا يرى غضاضة في نسبه وان كان مؤذياً، لأنهم كانوا يعتدّون بالأنساب والأحساب ان كانت لهم أحساب وأنساب، ويعتدون بالأفعال والآثار ان لم يكن لهم حسب ونسب. وأسوق بالمناسبة ما ذكره تاريخ الأدب

عن بزرجمهر حكيم الفرس، فقد عيره أحدهم بتفاهة نسبه وحقارة حسبه فقال له بزرجمهر:

«إليك انتهى حسب قومك، ومني ابتدأ حسب قومي».

هذا فضلاً عن ان للأحساب والأنساب كتباً مشهورة تؤرخ نسب كل أسرة أو قبيلة وتذكر أصولها وفروعها، ومنها كتاب بحر الأنساب.

وكذلك، فإن من الدلائل على صحة الأنساب الموجودة لدى الأسر العريقة القديمة، وجود الأوقاف الذرية التي يرجع تاريخ بعضها إلى العهد الأموي، إذ كان أهل الثراء والوجهاء يحسبون عقارات لهم لتصرف غلاتها على مساجد بنوها أو مدارس شيدوها، أو لتأمين معاش ذراريهم وأحفادهم، وكل هذه الأوقاف محصورة في سجلات قديمة مدونة وصادرة بموجب حجج شرعية توضح أسباب وقفها وحَبسها والجهة التي يُنفق فيها ريعها وغلاتها، وبيان حدودها. وكانت الاستفادة من هذه الأوقاف هي التي تدعو الى إثبات صحة أنسابهم، ليضمنوا لأنفسهم الربح الناجم عن أوقاف آبائهم وأجدادهم وكانوا يحرصون على تدوين أنسابهم على شكل شجرات، ويأخذون من نقباء الأشراف التصديق على صحة هذا النسب. وأكثر ما كان الاهتمام ينصبّ على الأحساب والأنساب التي ترجع إلى الهاشميين وخلفاء الرسول وصحابته، وكان لها سجلات يتوارثها الأبناء عن الآباء. ولأسرتنا أوقاف عديدة في دمشق توزعها أفراد الأسرة بعد صدور قانون تصفية الأوقاف الذرية. وبعض هذه الأوقاف يرجع إلى أكثر من ستة قرون. وكان لنا وقف مشهور وقفه جدنا علي بن عليل في مدينة يافا ويرجع تاريخه إلى زمان قديم، وجدّنا هذا هو الشفيع للبحارة في السواحل الفلسطينية، وكان من عادة هؤلاء البحارة انهم إذا عزموا على القيام برحلة بحرية أن ينذروا النذور للشيخ علي بن عليل، وتجمع منها مال كثير اشتريت به عقارات كثيرة. وقد صار هذا الوقف فيما بعد نهباً مقسماً، وهو الآن تحت سيطرة اليهود. وجدّنا هذا هو الحفيد الثامن للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو الجد التاسع والثلاثون لي ولمن هو من طبقتي من الأسرة. وكان وقفه يدار من قبل أسرتنا إلى أن وضع المجلس الإسلامي الفلسطيني يده عليه. قبل نكبة العرب في فلسطين.

وحرصاً على سلامة الأحساب والأنساب، شكلت الحكومة العثمانية ثلاث هيئات رسمية في الآستانة ودمشق والقاهرة تدعى مجالس الأنساب، لديها سجلات تدون فيها الأنساب والمواليد الجدد وغير ذلك مما يتعلق بكل عائلة لها نسب.

يضاف إلى ذلك الشهرة والعرف، فكانت العائلات المنسوبة مشهورة معروفة في جميع المدن، وكان يكفي أن يذكر الشخص اسم عائلته حتى تُعرف مكانته بين الناس.

ولد المرحوم والدي في عام ١٨٥٨ ميلادية وكانت والدته المرحومة السيدة ميمونة كريمة المرحوم الشيخ عبد القادر الحمزاوي وهو من أسرة مشهورة يرجع نسبها إلى حمزة بن العباس عم النبي محمد (صلعم) وهي من أعرق الأسر الدمشقية وأقدمها، وعرف منها الكثيرون من أصحاب الفضل والعلم ونقباء الأشراف. ومنهم الشيخ محمود الحمزاوي مفتي الديار الشامية وأعلم علمائها خلال القرن الماضي. أما جدي الشيخ محمد العمري فقد توفي بعد ان بلغ العاشرة بعد المائة، وكان والدي في الثانية من عمره، فحضنه عمه وأشرف على تربيته وتنشئته نشأة علمية فانتسب إلى الكتّاب، وهو المكان الذي يقصده الطلاب لتعلم القرآن الكريم، وبعد ذلك انتقل إلى أماكن أهل العلم، وكانوا يقيمون في مدارس قديمة ليعلموا اللغة والدين والفقه والتاريخ والعلوم المنقولة والمعقولة. وفي الوقت نفسه سار والدي على الطريقة المتبعة في زمانه فوضع العمامة وهو في الثانية عشرة من عمره، واقتنى الخيول العربية الأصيلة في شبابه، وأتقن ضروب الفروسية، ومارس تمارين القوة والصيد حتى صار من أشهر شباب دمشق بشجاعته وفروسيته، ومال إلى نصرة الضعيف فكان حامي الضعفاء من ظلم الأقوياء.

وقد حدثني عنه أحد رفاق صباه فقال: كان والدك شيخ شباب دمشق، يساعده على الاحتفاظ بهذه المكانة طوله الفارع وقامته المديدة وطلعته البهية ووسامة كانت تضفي على مظهره جمالاً جذّاباً، ثم انه كان محدثاً لبقاً يقصده الناس للتمتع بحديثه الطلي وكلامه الشهي. ولما تجاوز سن الشباب تولى مشيخة الطريقة الخلوتية التي ورثها عن والده. وكانت الطرق الصوفية في ذلك الزمان بمثابة الهيئات السياسية في هذا الزمان، فكان للكثير من الرجال طريقة ينتسب إليها، يحضر اذكارها، ويشترك في المجالس العلمية التي يعقدها شيخ الطريقة لتلقين أتباعه ومريديه أصول الطريقة

وطقوسها، ويفسر لهم أقوال سادة الصوفية ويشرح لهم رموزها ومعانيها العميقة. وكانت هذه الطرق على اختلاف أساليبها تحض الناس على اتباع الفضائل والابتعاد عن الرذائل وكانت لها مواسم تخرج أثناءها بأعلامها وطبولها ودفوفها وكانت مواكبها مهيبة تنشر المهابة على الناس. ومع أن هذه الطرق تستمد أصولها من تعاليم الدين الحنيف وتسعى لنشر الأخلاق الحميدة بين الناس وجمع كلمتهم وتوحيد آرائهم للدفاع عن البلاد في الأوقات العصيبة، فإن بعض مشايخ هذه الطرق انحرفوا بها عن قواعدها الأصلية وساروا بها إلى غير الغاية التي وجدت من أجلها، فجعلوها وسائل لاصطياد المغانم والمكاسب، وراح بعضهم يدّعي المعجزات والخوارق المنافية للطبيعة، ليأخذ الناس بالخديعة والغش، فكنا نرى بعضهم يدخل الفرن المشتعل ويرتكب الكبائر، وفي الوقت نفسه يمارس الألعاب التي أتقنها المشعوذون من فقراء الهند وغيرهم. هذا مع أن هذه الطرق كانت في الأصل كتائب عسكرية سرية لها أهمية كبرى في مباغتة الصليبيين والانقضاض على فلولهم في الأماكن التي تجاور حصونهم وقلاعهم إبان احتلالهم للثغور والسواحل في شمال الجزيرة العربية. ويدل على ذلك أن الأعلام التي يحملها المريدون والأنصار، كانت رموزاً للكتائب العسكرية التي يحاربون في ظلالها، والطبول والدفوف و«الصنوج» الكبيرة التي يطقونها أثناء سيرهم كانت الغاية منها إثارة الحماسة في النفوس. والأناشيد التي كانت تعزف كانت الغاية منها إلهاب النفوس بالحماسة والاستجابة لأوامر الله وحب الاستشهاد في سبيل الله وجناته الخالدة. هذه هي حقيقة الطرق الدينية وأسباب وجودها، ولكن ما لبثت أن استحالت إلى مظاهر باهتة فيها وثنية، وفيها تضليل، وفيها شعوذة. ولحسن الحظ اندثرت هذه الطرق بعد أن ماعت وصارت مظهراً من مظاهر التخلف والتأخر، يرتكب فيها أفظع أنواع الجهل والضلال. وهي ككل المؤسسات التي تبدأ بأسباب معقولة لوجودها، ثم تنتهي بأسباب موجبة لزوالها.

هذه لمحة عن الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بكثرة في جميع المدن، ساقتني المناسبة إلى الحديث عنها، دوّنتها لأن الكثيرين يجهلون أسباب وجودها.

* * *

بعد أن حصل والدي على كفايته من العلوم الدينية والدنيوية

وحصل على إجازات من مشايخه توجه مع والدته وأخيه إلى الآستانة، ليزور معالمها ويقابل السلطان وهناك حظي بمقابلة السلطان عبد الحميد ولقي منه الرعاية والتكريم وخصص له ولوالدته وأخيه رواتب شهرية كانت تعرف باسم «شرافت معاشي» أي رواتب الشرافة، وعينت والدة السلطان عبد العزيز لكل واحد منهم راتباً شهرياً يعرف باسم «دعاكو» أي راتب الدعاء. وفي الوقت نفسه أمر السلطان بتعيين والدي قاضياً، وصدرت الإرادة السنية بتسميته قاضياً لمدينة درعا من أعمال الشام. وكان السلطان عبد الحميد ميالاً إلى الحصول على محبة رجالات العرب.

وكانت العادة المتبعة عصرئذ ان القاضي التركي إذا عين في بلد عربي يبقى فيه ثلاث سنوات ثم يذهب إلى الآستانة لأجل أن يعين لبلد أخرى، وكذلك القاضي العربي، أما إذا عين العربي في بلد عربي، والتركي في بلد تركي فإنه يبقى فيه سنتين ثم ينقل. وكان القاضي الشرعي يرأس جميع الدوائر العدلية، ثم تنقّل والدي بين أقضية درعا وعكار وقطنا وبيره جيك وصيدا وجبل سمعان «حلب» والزبداني. ونال من السلطان رتبة «باي مخرج» العلمية التي كان لها مخصصات ضخمة من الأوقاف التي كانت محبوسة لها في مصر والتي كانت تصرف في كل سنة لأحد حاملي هذه الرتبة.

وبعد ولادتي سافر والدي إلى درعا لاستلام وظيفة القضاء فيها، ولم يكن القطار موجوداً بعد وكان السفر مرهقاً متعباً لأن الدواب هي وسيلته الوحيدة.

ثم نقل إلى قضاء عكار «قرب طرابلس» بعد ان أقام سنتين ونصف في درعا وفي تلك الأثناء ولد أخي عمر. ولما أنهى مدته في عكار عاد بنا إلى دمشق فتركنا فيها وذهب إلى الاستانة وعاد منها معيناً إلى قضاء في قطنا وقبل أن نسافر إليها توفيت والدتي وهي في السابعة والعشرين من عمرها مخلفة لوعات مريرة على صباها وجمالها وفضائلها. وكنت في الخامسة من عمري وأخي في الثانية والنصف. وعندما التحقنا بوالدي في قطنا بدأت الانتساب إلى المدرسة الابتدائية. وبعد ذلك عاد والدي إلى استانبول ثم حصل على وظيفة القضاء في مدينة بيره جيك ونقلنا إليها.

بيره جيك كانت مركز قضاء تابعاً لولاية حلب، واقعة في شمالها وعلى شاطىء الفرات. وهي من المدن التاريخية تعرف في التاريخ

العربي باسم «البيرا» وفيها قلعة مشهورة تعتبر من أشهر القلاع التاريخية. وتعتبر هذه المدينة من الحواضر العربية ولكن في تلك الأثناء تغلبت عليها الصبغة التركية. وما يزال فيها كثير من العرب الذين يقطنون البلدة القديمة التي تسمى محلة العرب.

وفي مدينة بيره جيك بدأت تتفتح عيناي على الدنيا وبدأ ذهني يستوعب شؤون الحياة. واستمريت في دراستي الابتدائية وكانت الدروس باللغة التركية، غير ان والدي رحمه الله كان يقضي أوقات فراغه في تعليمنا مبادىء العربية وأصول الدين ويبث فينا الروح العربية بما يذكره لنا عن مفاخر الآباء والأجداد وبما يشرحه لنا من تاريخ الحضارة العربية، وكلما تقدمنا في العمر كان يؤجج في صدورنا نار الحماسة للقومية العربية. وهكذا نشأنا أنا وأخي ندرس اللغة التركية في المدرسة ونتلقى العربية لغة وروحاً وقومية عن الوالد.

وفي عام ١٩٠٨ كنا ما نزال في بيره جيك عندما أعلن الدستور العثماني وبدأ عهد الشعارات المحببة للشعب مثل شعار الحرية والمساواة والعدالة. ومنذ هذا التاريخ بدأت دنيانا بالتقلب والتطور. وكان إعلان الدستور وتسلم الاتحاديين زمام الأمور البداية لكل ما حدث في شرقنا. وكان منطلقاً للنشاط العربي الذي قام فيما بعد ليطالب بحرية العرب واستقلالهم وقيامهم من سباتهم الذي دام بضعة قرون.

صبحي العمري

مقدمة

إنني عشت في زمان تزاحمت أحداثه وتراكمت نكباته، واشتدت فيه المحن وتضافرت خلاله على أمتنا جهود المستعمرين حتى صار زماننا فريداً من نوعه لكثرة ما انتابه من الكوارث، وصار من اللازم عليّ وقد عايشت كل تلك الأحداث المهمة، أن أدون ما علق بذاكرتي من مقدماتها وأسبابها ونتائجها لأضع أمام الأجيال الصاعدة حقائق غابت عنهم أو انها لم تصل إليهم سليمة. ولا غرو، فإن كاتب المذكرات إذا كتبها بروح الصدق والإخلاص فإنه يساهم في تدوين تاريخ أمته، ويؤدي واجبه نحو الأجيال عندما ينقل إليها صورة صادقة عن ماضيها فتأخذ منها العظة وتستفيد منها في حاضرها ومستقبلها هذا فضلاً عن أن كاتب المذكرات المنصف العادل، يصحح كثيراً من الأخطاء الدارجة ويوضح كثيراً من الأمور المشوهة، ويرفع الظلم عن أشخاص لم ينصفهم الناس. شاهدت وأنا أقطع السنين الطويلة عبر الحياة أشخاصاً مخلصين لمبادئهم ووطنهم ظلموا، وأشخاصاً أسبلوا على ذواتهم أردية من الغش والتدليس فظهروا للناس بمظهر الأبطال المخلصين، وهناك نوع آخر من الناس رفعتهم الحوادث إلى مرتبة القيادة بإتقانهم السير على الطرق التي توصلهم إلى غاياتهم مهما كانت حتى ضمنوا النجاح وغنموا مكاسب مادية ما زال بعضهم ينعم بخيراتها حتى الساعة. وهناك أحداث ووقائع أهملت أو شوهت أو قلبت مضامينها فانقلبت إلى خير وكلها شرّ، واستقرت في أذهان الناس على الصورة التي اصطنعها أصحاب الغرض.

لقد آليت على نفسي وأنا أدوّن هذه المذكرات أن أكون صادقاً في

سرد الوقائع، مرتبطاً بعقد مع ضميري بأن أكون نزيهاً في حكمي ع
الأشياء، مخلصاً في سرد الوقائع التي عشتها متجرداً من الهو
والغرض في تبيان وجهة نظري في النتائج. ولم أنسَ وأنا أدون ه
المذكرات أمرين مهمين جعلتهما عوني على اتباع طريق الدقة
تحري الصدق والأمانة، الأول كوني سأنشر هذه المذكرات ف
انتهائي من وضعها وهذا يعني أنني أتحمل مسؤولية ما أكتب فيا
يتعلق بالأحداث أو فيما يتعلق بالأشخاص، بحيث يكون الكثير
البعض من عارفيها لا يزالون على قيد الحياة، هذا مع علمي بأن ذ
سيعرضني لنقمة من لا يرضيهم ما أعتقد بأنه الحق. والأمر الثا
الذي سوف لا أدعه يتخطى ذهني كوني لست ناقلاً للأحداث فقط
انني مشارك في الكثير منها، أو عشت خلالها، ومن طبيعة ذلك
يكون بعض ما أدونه متفاعلاً مع عواطفي ونفسي. والنفس البشر
عادة تغالي في تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها فتبالغ في تقدير
صدر عنها من حسنات وتقلل من شأن ما أتت به من هفوات. كما
يغرب عن ذهني أيضاً أنني إنسان ضعيف يتزاحم في نفسه الكث
من العوامل المضادة من قوة وضعف وأن غريزة حب البقاء
المخلوقات من شأنها أن تقوّي فيهم غريزة الأنانية التي نشعر بأ
تشدنا إليها في كل عمل نقوم به. إن أي عمل يقوم به الإنسان (أ
إنسان) إنما يفعله بعقله وتفكيره وتقديره وتقريره أي أنه يأتيه
خلال نفسه. وهناك خيط دقيق بين من يتكلم عن نفسه ومن يتكلم
خلالها. وإنني سوف أسير خلال هذا الخيط بحذر وتؤدة فلا أخر
على الحقيقة ولا أظلم نفسي. ومع ذلك، فإنني عولت قبل نشر ه
المذكرات على أن أعرضها على من بقي من الرجال الذين عاشوا خا
ما تحتويه من أحداث، لأتمكن من تصحيح ما غاب عني وبذلك أكو
قد أفسحت في المجال لإشراك كل منهم في مسؤولية الناحية الن
يعرفها.

أيها القارىء العزيز انني أدوّن لك فيما تقرأه أحداثاً لنحو ست
سنة مضت وأعتقد بأن هذه الحقبة من الزمن كانت ولا تزال أعذ
وأخطر فترة مرت على أمتنا العربية، باستثناء الحقبة التي رافقا
البعثة المحمدية واتصلت بزمن الفتوحات الاسلامية خلال المائ
الأولى من سنين الهجرة التي انتقلت العرب خلالها من الوثنيا
والفوضى الأخلاقية والفرقة إلى أمة ذات دين وشرائع وأخلا
وأهداف ورسالة سامية وشعور بالكيان والمسؤولية الاجتماعية.

الرسالة المحمدية بعد ان وحّدت العرب في جزيرتهم حملوها إلى الشرق والغرب يدعون الأمم الأخرى إلى الله وإلى الحق وإلى الحب دعوة القوي الصادق المؤمن. ولم يمض على هذه الدعوة مائة سنة حتى كانت كلمة الله تعلو في أكثر بقاع الأرض سكاناً وعمراناً. وما كادت تمضي مائة سنة أخرى حتى تكالبت الأمم الأخرى على العرب من كل جانب، من الداخل والخارج، مسلمون وغير مسلمين فأثخنوها بالجراح وكبلوها بالأصفاد حتى ظُن بأنه لا قيام لها بعد ذلك. وبقي هذا العملاق الذي كان يحمل للعالم مشعل الانسانية والخير منطرحاً مكبلاً تنهش في لحمه الأعداء مئات السنين وهو صامد يئن ولكنه لم يمت.

في بداية هذا القرن، وفي مطلع الستين سنة الماضية التي سأدوّن حولها هذه المذكرات استيقظ العِملاق العربي وبدأ يتثاءب ويتمطى ويطرد عن عينيه النوم وعن جسمه الخمول، ثم شرع في تقطيع أصفاده الواحد تلو الآخر، وهزم أعداءه الواحد تلو الآخر. بدأ يتطلع إلى الآفاق البعيدة، وفي قلبه رسالته الانسانية الخالدة التي لا تزال تغمر وجدانه. تلك الرسالة التي حملها لأول مرة عندما كان في قلة من العدد، وها هو الآن يعد مائة مليون من المؤمنين المستيقظين المتحفزين الذين أعياهم ذلّ الاستعباد وأشعل في نفوسهم شعلة الحرية والانعتاق. إن هذا العملاق قد كبر وتضخم جسماً وعقلاً، وكانت فترة العصور التي قضاها في سباته فترة تجارب ودروس وتأمل وتحفز، وها هو قد نهض واقفاً على قدميه ينفض عن كاهله غبار الماضي المظلم المضني، ليستأنف سيره وهو أعظم قوة وأكثر عدداً وأوسع علماً وتجربة، وأقوى إيماناً بنفسه ورسالته. يجب أن لا ندع لليأس أو التشاؤم سبيلاً إلى نفوسنا بما نراه من تخاصم وتنابذ واختلاف. إنها فترة لا بد منها بين عهدي الاسترخاء واليقظة. فأمتنا العربية استيقظت من سباتها وأصبح لها غاية واحدة تسعى إليها وهي الوحدة والحرية، لقد أصبح كل عربي في كل أرض عربية يعرف بأن قوة أمته وعزها في وحدتها، وسعادة أفرادها وهناءتهم في حريتهم، فالأشخاص زائلون ولا بد للأمة من الوصول إلى غايتها. لقد عشت حقبة السبعين سنة الماضية بطولها وعرضها، وأرادني القدر أن أكون في بدء استيقاظ أمتنا العربية وفي بداية معركتنا القومية، وهيأ لي أن أساهم فيها على قدر قدري الضئيل. وها هي قضيتنا قد أصبحت قضية ذات خطر عالمي قوية محترمة متحفزة يشعر

بـوجودهـا العالم ويفخـر بهـا الصـديق ويخـافهـا العـدو. سـ
أستعرض هذه السنين التي وصفتها بـأنها أهم وأخطـر حقبة مـ
على أمتنا العربية منذ البعثة المحمـدية. سـأستعرضهـا أمامـك ،
فسنة وحادثة فحادثة حديث رؤية ومشاركة ليس في قطر واحـد بل
أكثر من قطر وفي ميادين أهم معاركها. أما قلت لـك بأن القـدر أراد
أن أتجول معه وهـو يبعث قضية العـرب من قطر إلى قطـر، ومن
إلى بلـد، ومن ميـدان معـركـة إلى أخـرى. لقـد اصطحبني معـه
المعتقـلات والسجون وقـاعات المحـاكم، وشرفني بالكثـير من الأر
القياسية في أنواع المستعمرين الذين قاتلتهم وعدد المعارك الحـر
التي خضتها وعدد الأحكام التي حكموني بها والسجون والمعتقـا
التي دخلتها، وعدد الـدول العربيـة التي خدمتهـا. كنت أنوي أز
أدوّن سوى مشاهداتي وأتجنب سواها من الوقـائع، ولكنني وجـ
بأن ذلك سيترك فيها ثغرات تجعل القارىء يتعثر خلالها فتعوقه
تفهم بعض الأمـور تفهماً كـافياً لمـا لـلأحـداث من روابط واتصـا
ومناسبات بعضها ببعض. ولذلك وجدت نفسي مضطراً لبيان الوق
التي شاهدتها مع بيان ما يتصل بها من حقائق وأحداث لم أحضر
أو أتصل بها متحرياً إياها من مصادر موثوقة، وفي أقصى ما يمكن
الاختصار.

لقد اطلعت على بعض المـذكرات التي ابتـدأها أصحـابها بتـار
حياتهم فاستهجنت ذلـك في الوهلـة الأولى، ولكن بـعد تفكـير وإمـ
وجـدت بأن ذلـك من الضروريات التي لا بـد منها، وأن المـذكـرات
يستقيم أمـرها بـدون ذلك، والسبب هـو كون صـاحب المذكـرات
المؤرخ. فالمؤرخ يجمع الـوقائـع مما هـو مدوّن في الكتب والمـذكر
والآثار وغيرها من المراجع التي يكتب عنها، وبراعته هي في دقتـا
التحـري ومقدرتـه في الاستقراء والتحليـل والاستنتاج، وكـل هذ
يوجب عليك أن تتعرف إلى شخصه إلا بقدر، لأنه في أكثـر ما تقـرأ
ناقل قام بتحري وتنسيق وتنظيم ما قرأه. أما صاحب المذكرات فأ
يختلف فهو شاهد عيان ينقل إليك ما شاهده من وقائـع وعمّن اتد
بهم من أشخاص وعن ظروف وأحداث وما لها من أسباب ومسببـا
ولربما استقرأ لك واستنتج وعرض عليك أحكامه حولها. إنه يحتـ
لأجـل ذلك إلى بعض المـزايا كـالصدق والإخـلاص والإنصاف وعـ
التحيز، كما يجب عليه أن يتصف بالهدوء وعدم الانفعال والجرأ
قول الحق. إذاً، فالقارىء يحتاج إلى معرفة ما إذا كان كاتب المذكر

يتمتع بجميع أو بعض هذه المزايا كي يستمع إليه ويتمتع بما يقرأ، ويصدق ما يخبره به كما انه يحتاج إلى التأكد من مدى معرفته وارتباطه بالأحداث والوقائع التي يرويها. لأن هذا الرجل الذي تقرأ له لا ينقل إليك صفحات مكتوبة عن غيره، إنما هو يسرد لك وقائع تهمك معرفتها (ولو لم تهمك لما قرأتها) وهو يقول لك بأنه شاهدها أو أنه عاشها فكيف ستأخذها بمأخذ الحقيقة الواقعة إذا لم تعرف ناقلها وتثق بما يقول. فهناك ارتباط وصلة بين الكاتب وما يكتب والكلام يدل على صاحبه لأنه ترجمان عقله وعنوان حسه. هب أن شخصاً من معارفك أتاك ونقل إليك حادثاً فأنت تتلقى الحادث وتهتم به بالنسبة للشخص الذي نقله إليك، وهذا يتوقف على نوع معرفتك به، فإن كنت تعرف عنه الصدق فأنت تعطي الحادث حقه من الاهتمام، وإن كنت لا تثق به فإنك لا تهتم لا به ولا بالحادث. إذاً من الضروري وأنت تقرأ أي مذكرات أن تتعرف أولاً إلى صاحبها لتكوّن عنه فكرة مبدئية كي تتجاوب معه من بداية الطريق. فمن هو الذي سيعرِّفك به؟ خير طريقة أن يقوم هو بتعريف نفسه وبعد هذا التعارف المبدئي تسير معه خلال السطور التي سيكتبها وكلما أمعنت في الطريق ازددت به معرفة، حتى إذا ما وصلت معه إلى آخر الشوط، إما أن يكون قد كسب ثقتك وأصبح صديقك الذي لم تره ولم يرك، أو أنه أصبح من معارفك. وعلى كل حال، فأنت لم تخسر شيئاً من معرفتك به إذا لم تربحه كصديق. ولا بد لك من ربح لأنه قدم إليك ما يعتقد بأنه يستحق العرض ويجوز أن يكون فيه الغث والسمين فتتخذ أنت منهما ما يروقك وتترك ما لا يروقك، فهو لا يطمع منك بأن تكلف نفسك بأكثر من كلمة رضى وهي غايته وكفايته. أظن بأنني تمكنت من أن أشرح لك السبب الذي جعلني أبدأ هذه المذكرات بذكر شيء عن حياتي الخاصة. أما أنت أيها القارىء العزيز. فإنني أعرفك تمام المعرفة. أعرفك أنت بالذات وأعرف اسمك واقليمك وتاريخك وأخلاقك ومزاياك وآمالك وأهدافك. إن اسمك (العربي) فهذا هو أنت. فإليك كتبت هذه المذكرات يا أخي العربي بكل تواضع وإخلاص، متوكلاً على الله الذي يقدر قصدي ويعلم ما في نفسي، راجياً أن يلهمك السماح عن قصور غير مقصود.

صبحي العمري

مدخل

الثورة العربية الكبرى، التي انطلقت من الحجاز في بدايات هذا العصر، كانت ولا ريب، بداية الانطلاقة العربية، نحو التحرير والاستقلال، بعد مئات السنين، من الجور والاستغلال والاستسلام للمقدور...

كثيرة هي أخطاؤها، وكثيرة هي مظاهر الروعة والنبل فيها، رغم أنها، ربما، لم تؤت أكلها حتى الآن... إلا أن ما لا شك فيه، أن الكثير من تفاصيلها وأسرارها، ما يزال بحاجة إلى الكشف والبحث، ليكون دليلاً إلى المستقبل.

خير من يتحدث عن هذه التفاصيل، هم أولئك الذين شاركوا فيها، وقدموا الكثير من التضحيات على دروبها. صبحي العمري، هو واحد من هؤلاء «الرواد» إذا جاز التعبير. وفي كتابه هذا «الثورة العربية الكبرى» وهو واحد من سلسلة حول أحداث هذه الثورة، يقدم لنا صورة، ربما تكون مختلفة عما عرفناه حتى الآن.

قد توافقه على بعض آرائه، أو تخالفه في بعضها الآخر. ولكنه، من المؤكد، يعطينا جملة من الحقائق، نحن في مسيس الحاجة إليها. وهي ستكون غنية الفائدة، خصوصاً في مجال التأريخ لتلك المرحلة، من تاريخ أمتنا.

صبحي العمري، كان ضابطاً في صفوف الثورة، شارك في معظم معاركها، ولهذا تتخذ «مذكراته» هذه طابع الفرادة والأهمية..

الناشر

الفصل الأول

١

في الطريق إلى الثورة

مفرزة الهيئة

عبارة عن فوج مشاة وفصيل رشاش وبعض الصنوف المعاونة، وكانت الغاية من وجود هذه المفرزة هي سد الطريق أمام القوة العربية التي استولت على وادي موسى ولمنعها من التقدم نحو الشوبك والطفيلة والكرك، وعيّن لقيادتها المقدم سامي بك، بالنسبة لخبرته بالبدو، وهو شركسي من سكان المعرة يتحبب للعرب ويحاول تقليد البدو برطانته الشركسية، وكان جمال باشا الثالث يحبه ويعتمد عليه وتربطه به صداقة شخصية. وكان في منطقة الجيش الرابع حينذاك ثلاثة باشاوات باسم جمال يلقبونهم بالكبير والصغير والثالث، الأول هو جمال باشا السفاح، والثاني قائد الفيلق الثامن، والأخير قائد القوات التي تقوم بحماية الخط الحديدي ومركزه معان ويسمونه جمال الثالث.

بعد وصولنا إلى مقر المفرزة سلمني قائدها الشفرة التي تسلمها من جمال باشا الثالث للمخابرات السرية، ثم كلفني أن أدرب فصيل الرشاش الذي لم يكن مدرباً ولأن قائده قد عين حديثاً وهو من ضباط المشاة.

بعد أيام قليلة كنا عرضة لهجوم من قبل مفرزة من الجيش

العربي المرابطة في وادي موسى ودامت المعركة طيلة النهار، وقد علمنا فيما بعد أن البدو الذين بأطراف الهيشة وأهل الشوبك كانوا مع المهاجمين، لأن جميع من في تلك الأطراف من الأعراب كانوا موالين للشريف، وجاءت برقية شفرة إلى سامي بك من جمال باشا يأمره فيها بتجاهل موقف هؤلاء الأعراب وأن يلاطفهم، حتى إذا ما أمنوا له أن يلقي القبض عليهم جميعاً وأن يسعى لجمعهم كي لا يفلت منهم أحد؛ ولكن هؤلاء كانوا حريصين فلم يأتوا إلى المعسكر إلا منفردين ليتظاهروا بالطاعة والولاء. وقد دعا شيخ الشوبك محمد سامي بك إلى الشوبك فقبل دعوته ولم يصطحب معه سواي ومنيب بعد أن أمرنا بالاحتراز وحمل كل منا قنبلتين ومسدساً، ولكن الوليمة مرت بسلام. وعدنا من الشوبك إلى عين نجل ننتظر مجيء الخيل التي أمر بإرسالها لنعود عليها. وأثناء انتظارنا للخيل وكنت جالساً لوحدي على جانب العين، اقترب مني الشيخ محمد وسألني عن بلدي، ولما تيقن من أنني عربي جلس بجانبي وبدأت أسأله عن عسكر الشريف، ولكنه كان محترزاً ولما أعيتني حيطته، وخوفاً من إضاعة الوقت وقرب وصول الخيل فاتحته مباشرة وقلت له: ليس لدينا وقت نضيعه فأنا عربي وأحب أن أنصحكم بأنكم معرضون لخطر القبض عليكم إذا ما جئتم مجتمعين إلى المعسكر، وأما إذا كنتم منفردين فلا خوف عليكم، فالقائد وجمال باشا يعلمان أنكم اشتركتم مع جنود الشريف في مهاجمة المعسكر، ولكنهما يتجاهلان ذلك بانتظار الوقت المناسب. عندها وثق بي وقال: إنهم يعلمون ذلك وشكرني وبدأ يحرضني للالتحاق بالشريف، وأنه مستعد أن يقوم بإيصالي إلى وادي موسى. فخطر لي في حينها أن أكتب كتاباً إلى الأمير فيصل، واتفقت معه على أن يأتي غداً إلى المعسكر، ولما أتى سلمته كتاباً إلى الأمير فيصل قلت فيه إنني فلان ضابط عربي أتيت للالتحاق بالثورة، من أجل القيام

بواجبي القومي وإنني منتظر ما يأمرني به قبل التحاقي. فأخذ الكتاب وذهب، وبعد ثلاثة أيام عاد الشيخ محمد ليخبرني أنه أرسل الكتاب مع أحد رجاله وأنه لم يعد بعد، ولما مضى على إرسال الكتاب أسبوع، قررت الالتحاق دون انتظار الجواب بعد أن تبين لي أنه لم يكن من ضرورة لإرساله، وعلى ذلك اتفقت مع الشيخ محمد أن أجتاز منطقة الربيئة التي في شمال المعسكر صباح الغد، وأفهمني أنه خلف تلك الربيئة وبأسفل الوادي توجد أشجار تين كبيرة وهو سينتظرني تحت تلك الأشجار، وإذا ما وصلت إلى ذلك المكان فسأصبح في أمان وخارج سيطرة الأتراك فطلبت إليه أن يتحرش ليلاً بتلك الربيئة ليجبرها على إطلاق النار لتكون لي حجة للذهاب إليها في الصباح وهكذا كان. ففي تلك الليلة جرى تبادل الرمي وعبثاً حاولت النوم فلم يغمض لي جفن. أفكار متضاربة متلاحقة تتزاحم في فكري منها ما يتعلق بعائلتي ووالدي الشيخ وأخي وقد تركتهم تحت متناول نقمة الأتراك وهم كما نعرفهم لا يرحمون، ومنها ما يتعلق بوضعي أنا أمام تبديل طراز حياتي ومستقبلي من أساسه متوجهاً نحو مستقبل مجهول محفوف بالخطر من جميع أطرافه، ومن جهة أخرى كنت مسروراً لقرب تحقيق آمالي بالاشتراك بخدمة أمتي العربية.

وفي الصباح ارتديت ملابسي كالعادة وذهبت إلى الربيئة بحجة تفتيشها والتحقيق في سبب الرمي بصفتي مرافقاً للقائد. وبعد أن تفهمت الحادث من آمر الربيئة أعطيته بعض الملاحظات وتوجهت باستقامة العدو منحدراً إلى الوادي بتمهل وهدوء كأنني أقصد استطلاع الأرض، وطلبت إلى آمر الربيئة أن ينتبه. فاقترح أن يرافقني بجنديين فأجبته بعدم لزوم ذلك بداعي أنني سوف لا أبتعد أكثر من مئة متر. وهكذا توجهت منحدراً نحو الوادي ببطء، حتى إذا ما أصبحت غير مرئي من

الربيئة هرولت مسرعاً، وما كدت أصل إلى أسفل حتى وجدت نفسي أمام أشجار التين التي أخبرني عنها الشيخ محمد، وعندما أصبحت على بعد عشرة أمتار منها، برز بغتة من خلف حاجز حجري يعلو نصف متر، رجل يوجه بندقيته نحوي واصبعه على زنادها قائلاً: قف. قلت له: أريد الشيخ محمد. قال مهتاجاً: ماذا تريد منه. وكنت أرى إصبعه على زناد البندقية، قلت له: اخفض بندقيتك ولا لزوم للخوف مني فأنا عربي وجئت للالتحاق بالشريف ثم أنك تراني دون سلاح فلماذا تجعل بندقيتك في هذا الوضع؟ قال وهو لا يزال على وضعه: ماذا تريد من محمد؟ قلت: أنا على موعد معه لإيصالي للشريف. قال: أنت قائد الرشاش الذي أرسل كتاباً إلى سيدنا. قلت: نعم. عندها ضحك وخفض بندقيته وقال: هيا امش وأظهر استعجالاً للابتعاد عن هذا المحل، وسرت معه وسألني عن اسمي ثم قال وهو يحرّك رأسه متعجباً: الأعمار بيد اللّه واللّه أنك مدين بحياتك لهذا الجاكيت الذي تلبسه، فأنا جالس هنا أترصد العساكر ورأيتك من حين نزلت من القره غول فجلست لك وراء الأحجار منتظراً حتى تصل لقربي لأطلق النار عليك، ولكن لما صرت بقربي ووجدتك دون سلاح وشاهدت هذا الجاكيت الذي أعجبني أسفت أن يتمزق بالرصاص ويتسخ بالدم، فقررت أن أطلب إليك أن تنزع ملابسك أولاً ثم أقتلك، ولما وصلت وعلمت أنك عربي وأنك تريد الذهاب للشريف فتبدل الأمر. قلت له: إذاً أنا سوف لا أحرمك من الجاكيت فعند وصولنا لوادي موسى سأرسله لك مع الشيخ محمد فقال إن الشيخ محمد ما هو موجود وأنا سأوصلك إلى الشريف. فالشيخ أوصاني بذلك ولكنني علمت فيما بعد أن الشيخ لم يرسله وكان هناك يترصد الأتراك بأمل الحصول على شيء يغتنمه، حيواناً شارداً أو جندياً مبتعداً أو أن يقتنص شيئاً آخر. ولما صادفني على تلك الصورة التي ذكرناها أسرع بالابتعاد بي عن

ذلك المكان قبل وصول الشيخ محمد ليوصلني هو إلى الشريف ويحصل على الإكرامية، لأن الشريف أعلن بين البدو أنه يدفع إكرامية لكل من يأتيه بضابط خمس ليرات إنكليزية ذهباً وعن كل جندي ليرتين. وهكذا حصل سليمان (وهذا اسمه حسب ادعائه) لأن البدو يحترزون من إعطاء اسمهم الحقيقي لكل (دولاني) والدولاني تعبير يطلقونه على موظفي الدولة من ضباط ومدنيين. وعلمت فيما بعد أن الشيخ محمد جاء إلى ذلك المكان متأخراً قليلاً بعد أن كنا بارحنا المكان، ولما فهم فيما بعد ما فعله سليمان قاسمه الليرات الخمس. سرت مع سليمان وكان يتقدمني في أسفل الوادي المتعرج المملوء بالأحراش، وبعد مسير نصف ساعة وجدت نفسي بغتة في منتصف مخيم بدوي بخيمه السوداء وكان فيه نحو عشر خيم وأول ما قابلنا عدد كبير من الكلاب أحاطت بنا وهي تهاجمني بشدة وضراوة، وسليمان يمشي بجانبي يدافع عني بعصاته تاره ويرشقها بالأحجار تارة أخرى. وأثناء ذلك خرج أصحاب البيوت من خيمهم ووقف كل منهم أمام خيمته نساءً وأطفالاً ورجالاً ليشاهدوا الغريب الذي تنبح عليه كلابهم. ولما شاهدوني بملابسي التركية بدأوا يقتربون ولكن سليمان أسرع وأدخلني إلى بيته (والبيت بمعنى الخيمة أو المضرب) ثم خرج ليطفىء ظمأ فضولهم ويخبرهم بأنني ضابط عربي أريد الالتحاق بالشريف. وفهمت أن رفيقي جاء بي إلى خيمته لأجل أن يأخذ لنا بعض الزاد للطريق، وأنه طلب من زوجته أن تأتي لنا بشيء من الشاي وهي تأبى عليه ذلك لأن هذا التركي (تعنيني) كان يجب عليه قتله لا أن يأتي به ليطعمه. وعبثاً كان يريد إفهامها بأنني عربي وكان كلما خفض صوته كي لا أفهم جدالهما، كانت ترفع صوتها وتكيل لي السباب واللعنات. وأخيراً قال لي: هيا بنا نمشي بعد أن حصل على رغيفين ورأس بندورة، وخرجنا من المخيم كما أتيناه بين نباح وشتائم زوجة سليمان، وكان

استعجال سليمان بخروجنا خوفاً من مجيء ابن عمه محمد. وهكذا بدأنا الرحلة نحو وادي موسى وكان صاحبي حاملاً بندقيته ومعلقاً إلى جنبه بداخل فوطة حمراء زاد الطريق.

■ الاستمرار بالرحلة

قلت إننا بدأنا الرحلة فسار سليمان أمامي وأنا خلفه بطريق ضيقة لا تصلح إلا للمشاة لما فيها من أحجار وصخور. كنا نسير بين منعطفات الوديان داخل أحراش متلاصقة الأشجار يتخللها صخور تكتنفها الحشائش المتنوعة التي تنبت عادة في ظلال الأشجار الوارفة كثيرة الظل، وبعد مسيرة نحو نصف ساعة نبهني رفيقي بأننا أصبحنا قريبين من أحد ربايا الأتراك وعرج بي نحو وادٍ خارج طريق مسيرنا، حتى إذا ما ابتعدنا عن مشارف الربيئة عاد بي إلى الطريق، وبعد قليل وصلنا إلى جوار صخور بجانب طريقنا فجلس وطلب إلي أن أجلس قائلاً: إنك تعبت فيجب أن تستريح. ولما أفهمته بأنني غير متعب لم يأبه لجوابي وبدأ يتململ وكأنه يريد أن يقول شيئاً إلى أن سألني ماذا في حقيبتك هذه وأشار إلى الحقيبة الجلدية التي كنت أحملها، وهي حقيبة من الجلد يحملها كل ضابط ليضع فيها لوازم الميدان من طعام وأوراق وغير ذلك من الضروريات. قلت له ليس فيها سوى قطعتي خبز وجبن ومقص وبعض لوازم الخياطة. قال: أليس معك فلوس. قلت: معي إحدى عشرة مجيدية فقط. قال: ألا تريد أن تعطيني «بخشيش» . عندها لاحظت أنه يريد أن يستولي على ما معي؛ لقد كان بإمكاني أن امتنع عن إعطائه شيئاً. بل كنت قادراً على التغلب عليه والاستيلاء على بندقيته بكل سهولة، ولكن بعد ذلك ماذا بإمكاني أن أصنع وأنا وحيد في تلك الأحراش التي لا علم لي بمسالكها ولا بسكانها. فرأيت من الأنسب أن أعطيه كل ما

معي برضاي. فأخرجت تلك المجيديات التي تعتبر في ذلك الوقت ثروة لا بأس بها وأعطيتها له فأظهر تردداً وأظهرت بدوري إصراراً على أنها بخشيش فأخذها ولكنه عاد فسألني عما إذا كان ليس معي سواها فلما أجبته بالنفي قالي لي: إن لي صديقاً أوصل ضابطاً تركياً إلى الشريف وأثناء الطريق سأله عما إذا كان معه مال فأنكر ذلك ولكن لما فتشه ظهر أنه كان يتمنطق بكمر ملآن بالليرات. قلت له: معك حق ولذلك فالأحسن أن تفتشني، وهكذا كان لقد تحسس كل جسمي ولما تيقن من عدم وجود شيء معي قال: هذا المقص الذي في «الشنتة» جميل أن تهديه للمعزبة (يعني زوجته) فأعطيته إياه ورأيت أن أنهي هذه المسألة فكلفته بأخذ الحقيبة وبعد تردد مصطنع أيضاً أخذها وقام فأخفاها تحت صخرة بقرب الطريق وعاد إليّ وجلس، ولما سألته استئناف السير لم يفعل وكأن عنده شيئاً آخر إلى أن قال: أنت وعدتني بالجاكيت قلت له: نعم سأعطيه لك بعد وصولنا قال: ولكن ربما تعدل عن إعطائه فالأحسن أن تعطيه الآن لأخفيه مع الحقيبة لآخذه عند عودتي قلت: ولكن كيف تريدني أن أسير دون سترة قال: «شو عليه» فسألته كم يعطيك الشريف إذا أوصلتني إليه قال: خمس ليرات ذهباً قلت: كم يسوي هذا الجاكيت. قال: لا أدري. قلت: لا يساوي أكثر من ربع ليرة وإذا رأوني عند وصولي دون جاكيت ألا يقولون إنك سلبتني إياه فلا يدفعون لك شيئاً قال: قل لهم إنك أتيت دون جاكيت. قلت: هل يعقل أن يصدقوا أنني كنت دون جاكيت وما هو المانع عندها أن أقول الحقيقة فيحرموك فالأحسن أن نبقى إخوة وأنا أكرر لك وعدي بإعطائه لك بعد وصولنا لأنه كما ترى فهو جاكيتة ألماني لا ينفعني هناك، فافتكر قليلاً ويظهر أنه وجد كلامي معقولاً ولكنه قال اقسم لي بذلك. قلت له: أقسم. قال: قل (الله ومحمد رسول الله تعطيني الجاكيت عندما نصل) فأقسمت له. وعندها نهض وقال هيا

واستأنفنا المسير وظهرت على وجهه علائم الارتياح لأن ما كان يشغل فكره قد زالت أسبابه ولم يبق ما يشغل فكره سوى وصولنا وقبضه الليرات الخمس الذهبية.

وفي أثناء مسيرنا كان يتركني رفيقي لأنتظره ويغيب عني بين الأشجار يفتش على طير حجل يصيده، ولكنه كان يعود بعد ربع ساعة أو نصف ساعة دون صيد، وكنت كلما حثثته على المسير لا يأبه فيعود إلى محاولته لصيد الحجل إلى أن صار وقت الظهيرة وكان الطقس حاراً والشمس بالرغم من وصولها إلينا خلال الأشجار كانت حامية محرقة، وكان ما يزيد في مضايقتي وعورة الطريق والعطش الذي بدأت أشعر به حتى جف حلقي وما عدت أفتكر إلا بجرعة ماء أطفيء بها هذا اللهب المشتعل في أحشائي. سألته: أليس بالقرب منا ماء. قال: لا ولكننا مقبلون على عين ماء تقع على طريقنا فسألته هل لا نزال بعيدين عنها قال لا إنها قريبة «شمرة عصى» وقد كنت أسمع عن هذا التعبير الذي يتندر به الحضر وهو أن «شمرة عصى» عند البدو معناها مسيرة يوم كامل، ولكنني ما أردت أن أسأل سليمان ذلك لاحتفظ بأمل الوصول القريب. واشتد بي العطش حتى أصبحت كالمريض المحموم الذي لا يرى في منامه سوى المياه الجارية والأنهر والينابيع والبحيرات. وهكذا لم يبق في فكري ما يشغلني سوى العطش الذي أشعر أنه يحرق أحشائي وكان العرق المتصبب من جسمي جراء المسير يبخر ما فيه من ماء عرقاً فيزيد حاجة جسمي للماء، فكنت أتخيل ذلك الينبوع الذي سنصل إليه كم هو براق وكم هو حلو وكم هو بارد كالثلج وتخيلت أنه ينبع من بين صخور بيضاء ثم يجري منحدراً بين الحشائش والأزهار، سألت سليمان: هل الماء ينبع من صخرة قال: لا ينبع من الأرض وبأطرافه ينبت الأثل فسألته: ألا يوجد بأطرافه النعناع والقره قال: لا أدري ما هي القره. سرنا ضمن

«شمرة العصى» التي قالها سليمان نحو ساعتين وأحشائي تكاد تحترق من حرارة العطش وحلقي قد جف وأصبحت أشعر أن لساني أصبح قطعة من جلد. وقف سليمان الذي كان يسير أمامي بنحو ثلاثين خطوة وأشار إلي أن أتبعه خارج الطريق ففرح قلبي لأنه خطر لي أننا وصلنا الماء، ولما وصلت قرب سليمان وجدته يقف بجانب حفرة مخروطية الشكل مدورة من أسفلها بحجم «الطشت» وتتسع بصورة منتظمة كلما علت إلى فوق سطح الأرض وكانت دائرتها منتظمة تبدو كأنها محفورة «على البيكار» وفي أسفل هذه الحفرة الماء الذي أشار إليه سليمان ولكن لونه لم يكن يشبه لون الماء فهو أسود حديدي. كانت هذه الحفر وما جاورها من الأرض مغطاة ببعر الماعز وهذه الكمية القليلة من الماء كانت راكدة أيضاً فوق هذا البعر وقد تخلل فيها حتى أصبح لونها من لونه. انبطح سليمان على بطنه وبدا يغبّ منها حتى ارتوى ودعاني أن أفعل مثله ولكنني لم أفعل ذلك بل أخذت منها قليلاً براحتي الواحدة وحاولت تذوقها وما كدت أفعل ذلك حتى صعد لخياشيمي منها رائحة عنيفة لا أعرف لها وصفاً فعافتها نفسي، وخرجت من الحفرة لنستأنف المسير وقبل الغروب بنحو ساعة شاهدنا قطيعاً من الإبل ترعى في أراض مكشوفة خالية من الأشجار، فاقترب مني رفيقي قائلاً بأننا وصلنا إلى منازل «الجماعة» الذين سنضيفهم هذه الليلة وهذه إبلهم، وفعلاً شاهدت الدخان يتصاعد من خلف التليل الذي أمامنا على بعد خمسمائة متر، ولما اقتربنا من الإبل بدأ رعاتها يتوجهون إلينا وكانوا نحو عشرة من الغلمان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والاثنتي عشرة سنة وكان بينهم رجل واحد بنحو الخمسين ذو لحية سوداء خفيفة بطول قبضة الكف وهو أول من وصل إلينا، ثم تعاقب وصول الغلمان وكل منهم بيده عصا سنديان راسها محدودب. سأل الراعي سليمان بعد كلمة مرحبا جافة (من أين

كاضب هالملعون الوالدين) وأشار إلي فأجبته قائلاً: أنا عربي فانتهرني بجفاء. قائلاً: (تخس تذبحون العرب وتقولون حنا عرب) ثم كلمه سليمان قليلاً واستأنفنا المسير فاقترب مني سليمان وقال لي: لا تلتفت إلى الخلف فهذا الرجل «ما هو متعوذ بالرحمن» يقصد بأن نيته سيئة. وما كدنا نبتعد عنهم نحو خمسين خطوة حتى سمعنا صوت الراعي يقول: ابتعد عنه اذبحوه اذبحوه ابتعد ابتعد. فالتفتّ لأرى ذلك الراعي شاهراً بندقيته نحو سليمان يقول له: ابتعد ويشير علي ويقول: إذبحوه وجميع أولئك الفتيان يجرون نحونا شاهرين العصي وهم يصيحون اذبحوه اذبحوه. إن رفيقي سليمان أعطى ساقيه للريح هارباً، أما أنا فرأيت أن الأوفق أن أقف بمكاني ووصلوا إلي وهجموا علي يتخاطفون ما علي من ملابس والرجل شاهراً بندقيته يكرر دون انقطاع جملة: اذبحوه اذبحوه يا ملعون الوالدين. لم تستغرق عملية سلب الملابس أكثر من نصف دقيقة حيث أصبحت عارياً تماماً إلا من السروال وانهال على هؤلاء الفتيان بالعصي على جميع أطراف جسمي العاري فلا ترتفع خمس من هذه العصي عن جسمي حتى تقع عليه خمس غيرها بصورة متصلة وكنت أشعر عند وقوع كل واحدة منها بأنها مزقت الجلد والعضلات؛ وإذا تصور القارىء الحالة الجسمية والفكرية التي كنت عليها عندها يقدر حقيقة ما انتابني من ألم، لقد كان قد مر علي عشر ساعات كاملة أسير تحت ضغط عطش محرق مضنٍ لم أتناول من جرائه حتى ولا كسرة من الخبز. فكنت فيً حالةٍ ضنى مرير من التعب والعطش والجوع وعدم الاطمئنان إلى الحياة. وكان هؤلاء الغلمان لا ينقطعون عن الضرب بينما كان الرجل يطلب إلي أن أمشي أمامهم تحت هذا الضرب نحو الطريق الذي جئنا منه وكنت لا أكاد أخطو خطوة حتى أتلقى عدة ضربات أقفز منها متلفتاً دون إرادة إلى تلك الجهة، وما أكاد التفت حتى تنزل علي من

الخلف غيرها وهكذا لم أتمكن من المسير إلا بشكل قفز لولبي تحت ضرب العصي.

وأثناء ذلك وجهت كلامي للرجل وقلت له: أما تخاف اللّه ألست مسلماً. أنا مسلم عربي مثلكم كيف يجوز لك من اللّه أن تعملوا بي هكذا قال: «اخس واللّه إنك مو مسلم أنك أماني (ألماني) جيتون تدبحون العرب مع الترك واتقولون حنا عرب لعن اللّه أبوك». (وكنت في حينها لم يخط الشعر وجهي) قلت له شوف كيف أنني مطهر وأريته ذلك لأنني كنت تقريباً مكشوف العورة فصار الأولاد يتضاحكون ويشتمونني. أما الرجل فقال: «هب هب اخس تخسه» أجل إنك يهودي وبهذه المهزلة كان الضرب خف قليلاً ولكنه لم ينقطع، وكان أحد أولئك الغلمان أعرج تقصر رجله الواحدة عن الأخرى نحو شبر فكانت ضرباته أقوى من ضربات الآخرين فكان يشدد ضرباته بعد أن يحكمها ويقفز مع كل ضربة ينزلها فكانت تسلخ الجلد سلخاً، وقد جعلني هذا العذاب أتيقن أن الموت بطلقة من بندقيته هذا الرجل أقل ألماً مما أنا فيه فقلت له: إذاً ماذا تنتظر أطلق علي بندقيتك وأرحني قال: سأذبحك على هذه المزبلة وأشار إلى كوم من روث الحيوانات يبعد عنا بنحو عشرين متراً، ويظهر أنه يريد أن يقتلني ثم يتركني بالفلا أو يضطر لسحبي لدفني بالمزبلة فأراد قتلي بجانبها ثم دفني بها، عندها خطر لي ما كنت أسمعه أنه إذا قال الخائف للبدوي: أنا داخل عليك وعقد طرف ثوبه أو كوفيته فإنه يقبل «دخالته» ويجيره ولكنه لم تكن من فرصة للقيام بهذه العملية فقررت إجراء عمل يتطلب وقتاً أقصر، وكان الرجل يبعد عني نحو مترين شاهراً بندقيته نحوي، ففي سرعة الخائف اندفعت نحوه ودفعت بندقيته جانباً بسرعة البرق وقبضت على لحيته بيدي اليمنى بكل قوتي بحيث لم يعد يتمكن من التخلص مني وقلت له: (أنا داخل على اللّه

وعليك فكني) فصار يحاول التخلص مني ويقول: «اخس اخس ولك هدني هدني» قلت: واللّه ما هدك حتى تجيرني وأثناء ذلك زاد ضرب الغلمان ولكنني أصبحت بموقف كالقابض على الأفعى فإن تركها قتلته، فكان هو يكرر «ولك هدني» وأنا أكرر واللّه ما أهدك حتى قال: ولك وصلت وصار يصيح على الغلمان: ابتعدوا عنه عندها تركت لحيته وعقدت طرف ردائه وهو يقول لي: خلصت يا معلون الوالدين هيا ولي والتفت إلى الغلمان الذين بدأوا ينفكون عني فأبعدهم وأشار علي أن ألحق برفيقي، عندها شاهدت رفيقي يقف بعيداً عني بنحو خمسين متراً يتفرج علينا منتظراً النتيجة. وهكذا عاد الغلمان إلى قطيعهم. ولما وصلت لقرب سليمان أول ما قاله لي: أما قلت لك أن تعطيني الجاكيت. ها هي راحت أما أنا فكنت بحالة لا تساعدني حتى على الرد حيث بدأ نسيم المساء البارد الآتي من الأحراش يلامس جسمي الممزق بضربات العصي، وأكثر من ذلك أنني شعرت بعجزي عن الاستمرار بالمسير ولو لخطوة واحدة لأن قدمي اللتين تسلخ أسفلهما جراء المسير عشر ساعات قد أدميتا فكان البحص الناعم الدقيق يسبب لهما ألماً كوخز الإبر أو كلظى النار، وعبثاً حاولت أن أتحمل الألم والسير كي نصل إلى بيوت الشعر التي أصبحت قريبة منا. جلست على الأرض وسليمان يلح علي بالمسير وأنا منهوك القوى تكتنفني الآلام فحضر صاحبنا الراعي وكان يشاهدنا مع رفاقه من الرعيان وسأل عن سبب عدم استئنافنا المسير ولما أخبرته بذلك عاد إلى الغلمان وبعد محاولة نحو نصف ساعة عاد ومعه حذائي دون شريط فألقاه علي فلبسته وسرت بصعوبة خلف سليمان إلى أن وصلنا إلى بيوت الشعر، وكان أول من استقبلنا حسب العادة عشرات الكلاب بنباحها وكرها وفرها إلى أن وصلنا إلى بيت الشيخ وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله والنيران تتأجج من جميع البيوت وبدأت الأسئلة حسب العادة

ولما علموا بما حصل أظهر الجميع الأسف والتأثر وصار صاحب البيت يواسيني ويعتذر وبدأت المراسيل تذهب لجمع ملابسي فجاءوني بالبنطال دون أن يتمكنوا من الحصول على غيره خصوصاً الجاكيت. فإن الغلام الذي استولى عليها أنكرها وكنت مسروراً من ذلك وقلت للشيخ بأنني لا أريدها وسليمان يلح بطلبها وجاءني الشيخ بكنزة صوف من متروكات الجيش الإنكليزي فلبستها وما كاد يمر خمس دقائق على ارتدائها حتى شعرت بأن الألوف من القمل قد بدأت ترعى في جسمي. وجاءوا بفضلة طعام فعافتها نفسي ولم أتناول سوى كسرة من الخبز الأسود وكأس من الشاي وشفتين من القهوة وانطرحت إلى جانب الموقد وقد دثروني بعباءتين لا يقل ما فيهما من قمل عما في القميص، فأنا الآن لست بالنائم ولا بالمتيقظ حسبما يعنيه معنى اليقظة بل كنت بحالة بين اليقظة والإنهاك فأين لي أن أغفو أو أن أتمكن من أن أتقلب من جانب إلى آخر وهذه العشرات من الرضوض الممزقة بجميع أطراف جسمي وقد حضنها هذا الزمهرير من البرد القارس فضاعف من آلامها المبرحة التي دونها أي ألم يتصوره الإنسان، وكنت أثناء ذلك أسمع ثرثرة الموجودين في المضافة وقد زاد عددهم على العشرة وهم يتحدثون عن عسكر الشريف وعن الرز والسكر والذهب وعن الترك وانخذالهم في المعارك مع عسكر الشريف وعن جمال باشا وقال أحدهم: إن جمال باشا قال إنه سيربط حصانه في ستار الكعبة. فقال آخر «يخسه» ان سيدنا سيخرج الترك من المدينة قريباً ثم سمعت صاحب المضيف يقول: «مسكين هالولد (وهو يعنيني) قد آذوه هل الرعيان وهو عربي ما بيستاهل هذا فقال آخر: هدول الترك ياخدون أولاد الناس ويحشروهم بحروب لا يقدرون عليها». لقد تنبهت أعصابي من هذا الحديث وتألمت بحيث طغت آلامي النفسية من جرائه على جميع آلام جسمي وشعرت بذل هذه الشفقة يتفوه بها هؤلاء الأنذال الجبناء

البعيدون عن كل مزايا الشهامة العربية والرجولة، وهزتني الغيرة وعزت النفس فجلست في مكاني ووجهت الكلام إلى صاحب البيت قائلاً: يا شيخ فلان... فسكت الجميع ليستمعوا إلى ما سأقوله بعد سكوتي الطويل قلت: إنك تظهر الشفقة علي وتسميني وليد ولو انك افتكرت أكثر لما سميتني وليد بل سميتني غير ذلك وكنت أشفقت على نفسك وعلى هذا (وأشرت إلى سليمان) فأنتم أولى مني بالشفقة فهذه الرضوض التي تراها بجسمي وهذه الآلام ستزول بعد أيام وملابسي ستعوض غداً بأحسن منها ويذهب كل هذا واستعيض عنه بخير منه وهو الشرف الذي سأناله من هذه المخاطرة في سبيل قومي وبلادي وديني، أما أنتم وقد عاملتموني جزاء غيرتي هذه بهذه المعاملة التي لا تدل على شهامة أو رجولة، رجل أعزل منفرد، وليد كما تسميه، يجتمع عليه عشرة وعلى رأسهم رجل يهجمون عليه بحجة أنه كافر ألماني ليسلبوه خرقاً بالية وهو يعلم بأنني لست ألمانياً ولو فرضنا أنني كافر فهل أخلاق العرب أن يقتلوا أو يعاملوا الأعزل هكذا، وأما «خوى» هذا فقد خان ابن عمه لأنني أنا ما جيت إلا بعد أن اتفقت مع الشيخ محمد فسرقني منه طمعاً بالليرات الخمس وفوق ذلك لم يرتح حتى سلبني جميع ما معي عدا ملابسي التي أخذ وعداً بها وكان يسير معي حاملاً بندقيته «كخوى» ليوصلني ويحميني كرجل، ولكنه أمام الرعيان وأمام رجل واحد مثله انهزم كالنساء وتركني بين أيديهم يتفرج علي من بعيد حتى إذا ما تخلصت منهم عاد يسير أمامي كأنه الزير أبو ليلى المهلهل، وأنا «هل وليد» لو كانت معي بندقية لما تمكن أحد من إيذائي وأقول لكم أكثر أعطوني غداً هذه البندقية وأنا أرمي على جميع هذه العشيرة لوحدي لذلك فأنتم أولى مني بالشفقة، كيف سيتحدث عنكم الناس وعن «خوي» هذا. كنت أتكلم بلهجة رزينة وبكلمات متينة والجميع صامتون كأن على رؤوسهم الطير؛ ولا يعجب

القارىء لجسارتي هذه لقد أصبح وضعي أميناً لأنه لم يبق بيننا وبين معسكر الشريف إلا القليل وإنني في مضافة فيها بعض أشخاص أغراب عن العشيرة و«خوي» طبعاً غريب عنهم فأصبح من غير الممكن أن يتمكنوا من إيقاع أي أذى بي. وبعد سكوت برهة سمعت صوت امرأة عجوز من داخل الخباء ويظهر أنها أم صاحب الدار تقول: «يا للعار واللّه انه صادق» فقال لي صاحب الدار: لكن يا ضيف الخير هدول الذين أخذوك رعيان ونحن لا نعلم شيء عن الذي حصل فسألته أنت رحت الشام (أعني دمشق) شي مرة. قال: نعم مرة واحدة. قلت: هل كان معك بندقية. قال: لا. قلت: «لو فرضنا أن كم واحد من الشوام قضبوك فسلبوك وضربوك وثم رجعت لأهلك مسلوب وعريان وسألوك من فعل معك هذا ماذا تقول لهم؟ طبعاً تقول الشوام ولا تقول إنهم كم أزعر من زعران الشام وتبقى أنت وأهلك وجميع عشيرتك وكل من يسمع بقصتك يتحدث بأن الشوام تمرجلوا على بدوي أعزل منفرد». وهكذا وضعي معكم، ثم عدت واضطجعت وكأنني ألقيت عن نفسي حملاً واستسلمت إلى سكون روحي بينما أخذ الحضور يتجاذبون الحديث حول ما تكلمت به بين مصدق وخجلان ومفتش عن الأعذار.

وفي الصباح الباكر أتوني بشيء من الخبز واللبن والقشطة وبعد أن شربنا القهوة بدأنا المسير وقد رافقنا ثلاثة آخرون من العشيرة بحجة المحافظة علي ولكن الحقيقة هي بأمل حصولهم على البخشيش. ووجد سليمان فرصة ليقول لي أن أفهم الشريف عند وصولنا بأنني أنا «خويه» لا هؤلاء كيلا يقاسموه الإكرامية. وبعد مسير نحو ساعة وصلنا إلى حافة وادي موسى الشرقية ومنها ظهر أمامنا الوادي وعلى حافته الغربية شاهدت معسكر الشريف، وكان علينا أن نمر بالقرب من مخفر شريفي فأوقفونا وبعد أن تحققوا من أننا لسنا أعداء سمحوا لنا

بالمرور فنزلنا إلى الوادي ثم بدأنا نصعد نحو المعسكر، ولما أصبحنا في أول المعسكر إذا بنا نسمع ازيز طائرات وبوق الانذار وبعده إلقاء قنابل من الطائرات على المعسكر كانت طائرات المانية وقابلها من العسكر طلقات من البنادق عندها ألقى رفقائي الأربعة بأنفسهم إلى الأرض وأخفى كل منهم نفسه خلف صخرة، أما أنا فبقيت واقفاً أتفرج على الطائرات وهي تحوم وتلقي قنابلها وكنت أسمع صوت سليمان يناديني «يا رجل نام بالكاع» ويكرر ذلك بلهفة وإلحاح وأنا لا أهتم به ولما أعياه الأمر صار يقول: «ولك نام ولك لحتموت يا ملعون الوالدين يا صبيح ولك نام» ولما ذهبت الطائرات اجتمع الأربعة حولي فقلت لسليمان «ولك اشبيك تصيح انت لحتموت والا أنا مالك ومالي» فأجابني ولكن إذا مت كيف آخذ البخشيش قلت له معك حق.

ما كادت الطائرات تفارق سماء المعسكر حتى خرجت العساكر والبدو من مخابئها وقادني بعضهم إلى خيمة الشريف وكان الشريف، في موقع وادي موسى، الشريف عبدالمعين. كان يرافق كل مفرزة أو حملة أو موقع أحد الأشراف بجانب قائدها الضابط وكان الشريف يقوم بتصريف أمور البدو والقائد يقوم بالترتيبات العسكرية ويتعاون الاثنان معاً متشاورين بإدارة شؤون المفرزة فقائد المفرزة يكون مرتبطاً بالقيادة العامة يتلقى منها الأوامر كما يكون الشريف مرتبطاً بالأمير فيصل مباشرة يتلقى الأوامر منه أيضاً.

■ في جيش الثورة

وهكذا وصلت إلى ميدان الثورة العربية ولما دخلت على الشريف عبدالمعين استقبلني بترحاب وحرارة ولما علم بأنني صاحب الكتاب إلى الأمير فيصل زاد في ترحيبه وأعلمني أنه قبل يومين

أرسل لي جواباً تحريرياً بناءً على أمر من الأمير فيصل، وعلمت منه أن الجواب بالترحيب وأن أحضر معي إذا أمكن الرشاشات التي عندنا وعلمت بعد انتهاء الحرب بأن هذا الكتاب وصل إلى منيب وأخفاه عن القائد. وفي هذه الأثناء حضر لخيمة الشريف قائد المفرزة مولود مخلص فرحب بي أيضاً.

■ مولود مخلص

من مواليد ١٨٨٤ م درس في الإعدادي العسكري في بغداد وأثناء ذهابه للاستانة للدخول في المدرسة الحربية طرد لأسباب نزاع مع رفقائه فساقوه إلى القطعات ففر من الجيش، وبواسطة سامي باشا الفاروقي أعيد للمدرسة الحربية ثم سجن لتفوهه ضد السلطان عبدالحميد ولكنه فر من السجن حتى وصل إلى سوريا ورافق بعض البدو إلى ابن الرشيد ولكن طلع عليهم أثناء مسيرهم غزو فسلبوهم فاضطر للرجوع والاشتغال بالخط الحديدي كعامل وثم توجه إلى بلدته الموصل وبعد أن تزود منها توجه إلى نجد عن طريق النجف وبقي عند ابن الرشيد ١٣ شهراً فحضر معه بعض الغزوات ثم توسط له مع الأتراك لإعادته إلى المدرسة الحربية فأبوا لكنهم وافقوا على جعله ضابطاً في الدرك، وأخيراً عند قيام الثورة العربية التحق بها وعين مرافقاً للأمير فيصل برتبة نقيب ثم بدأ يجمع بعض الجنود الملتحقين من الجيش التركي وشكل منهم فصيلاً أسماه الفصيل الهاشمي إلى أن أصبح أخيراً لواء الهاشمي وجنوده من راكبي الخيل والبغال.

حضر بعض الضباط إلى خيمة الشريف لمشاهدتي وقد عرفت أحدهم وهو النقيب محيي الدين البيروتي وقد سبق أن تعرفت به في مستودع تدريب الرشاش في عين كارم التي مر بنا ذكرها

فرجا القائد أن يسمح بأن أكون ضيفه وسألني القائد عما إذا كنت أحب أن أستريح هنا لأيام أم أفضل أن استأنف المسير إلى العقبة لأن النقيب محيي الدين سيتوجه في صباح الغد إليها، ففضلت استئناف المسير وذهبت برفقة محيي الدين إلى خيمته وسألته عما إذا كان بالإمكان أن اغتسل وأن يمنحني ملابس تحتانية وإلا سيكون تحت طائلة عقاب مليون قملة لا يرجى له منها خلاص بعدة أشهر، فأمر خادمه بإحضار ما يلزم وأثناء ذلك أرسل لي مولود مخلص «قميص خاكي وبنطلون وجاكيت ضباطي صوف» كما أرسل الشريف عبدالمعين كوفيه وعقالاً وعباءة، وفي المساء تناولنا الطعام على مائدة الشريف وبعد العشاء وأثناء شربنا الشاي حدثتهم عما جرى لي من سلب وغيره فلامني على عدم إعلامه حال وصولي وقبل رحيل من أوصلوني سريعاً بعد تسلمهم الإكرامية.

وفي وادي موسى تقع مدينة البتراء القديمة المحفورة في الصخور وهي إحدى عجائب الآثار الشرقية بل هي أعجبها في نظر الفنانين وعلماء الآثار ويقول بعض المؤرخين انه حتى الآن تعذر معرفة تاريخ حفرها. وفي القرن الرابع قبل الميلاد كانت تسكنها قبيلة عربية من النبط وتدل الآثار أن الأنباط قد استولوا أولاً على أرض الأدوميين وهم يهود كما استولوا على بيترا وكانت في ذلك الحين مركزاً تجارياً ممتازاً على الطريق التجاري بين الجزيرة العربية التي كانت تمر بها القوافل التجارية والسلع الآتية من الهند والصين إلى البحر المتوسط. والمعروف عن الأنباط أنهم كانوا في ذلك الحين على جانب من القوة والبأس، وفي عام ٣١٢ ق.م استطاعوا أن يقاوموا القوة التي أرسلها عليهم أحد قواد الإسكندر الكبير في سوريا. وصلت مملكة النبط إلى أوجها في عهد الحارث الرابع ٩ ق.م - ٤٠ م وكانت تمتد حتى دمشق وقد استخلصوها من أيدي

السلوقيين ورثة الاسكندر، وظلت هذه المملكة العربية حرة مستقلة حتى قضى عليها الامبراطور تراجار في سنة ١٠٥ م فأصبحت من ذلك التاريخ مستعمرة رومانية. وقد ظلت مدينة البتراء عامرة إلى أوائل القرن الرابع الميلادي ثم دب إليها الخراب لما تحولت عنها طريق القوافل، ولم يدركها عام ٥٣٦م إلا وقد هجرها سكانها وأصبحت منسية إلى أن اكتشفها الاستاذ سيتزن الرحالة الشهير في عام ١٨٠٧م.

نمت تلك الليلة نوماً عميقاً بالرغم من آلام جسمي وفي الصباح ودعت الشريف عبدالمعين ومولود مخلص وباقي الضباط وتحركت برفقة الرئيس محيي الدين راكباً بغلاً يرافقنا جنديان راكبان أيضاً، ونحو الظهيرة وصلنا موقع دلاغة. وكان يشغل هذا الموقع مفرزة بقيادة المقدم راسم سردست من دمشق وقد كان ضابطاً مدفعياً في الجيش التركي برتبة ملازم أول، فنزلنا ضيوفاً على الملازم الثاني عبدالوهاب الحكيم وهو من دمشق أيضاً وصديق لمحيي الدين واجتمع في خيمته ضباط المفرزة للتعرف علي وفي صباح اليوم الثاني استأنفنا المسير وقرب المساء وصلنا إلى موقع الكويره وهذا الموقع كان مشغولاً من قبل لواء مشاة بقيادة الرئيس أول عبداللطيف كما سيأتي ذكره. وفي اليوم التالي وصلنا إلى العقبة وتوجهنا إلى مقر القيادة العامة فاستقبلني القائد العام للجيش الشمالي جعفر باشا العسكري بكل أنس وترحاب كما هي عادته، وكان هناك رئيس أركان حربه العقيد نوري السعيد وبعض الضباط، وقد سألني بعض الأسئلة عن قطعتي التي كنت فيها في الجيش التركي ورتبتي وغير ذلك ثم أمر لي بخيمة وسرير سفري وفراش وباقي ما يلزم من معدات، وبعد ذلك أرسل لي طقم ملابس ونطاقاً وحذاء «وطماقات» جلد وتناولنا الطعام في مطعم الضباط في المقر العام بالقرب من خيمتنا. وفي الصباح طلبني

جعفر باشا وقال لي: هيا بنا نذهب إلى سمو الأمير ليتعرف عليك وكـان برفقته نوري السعيد، وأثناء الطريق أفهمني مراسيم مقابلة الأمير وهي أن أحييه أولاً بالتحية العسكرية ثم أقبل يده وحينما يأمرنا بالجلوس يجب علينا أن نجلس على الركب. وكان الأمير يجلس للاستقبال في خيمة كبيرة مفروشة بالسجاجيد. دخل جعفر باشا ثم نوري السعيد وأنا خلفهما نهض الأمير واستقبلهم ثم تقبل تحيتي بوجهه الباش ولما حاولت تقبيل يده لم يعطها تماماً محاولاً سحبها وأمرنا بالجلوس فجلسنا بعد أن قدمني جعفر باشا بقوله: هذا هو صبحي العمري قائد الرشاش في الهيشة الذي أرسل لسموكم التحرير وهو عربي من دمشق دفعته غيرته العربية على الاشتراك بالنضال العربي وهو يقدم خدماته فقد مر بعذاب وأخطار حتى وصل لوادي موسى فالتفت إلي الأمير فيصل وقال: نحن نرحب بك كل الترحيب ونقدر غيرتك وشهامتك العربية وتضحيتك فالله سبحانه وتعالى يوفقنا على تحرير بلادنا من هؤلاء الأتراك. ثم سألني عن الجبهة التي كنت أحارب فيها قبل الهيشة وكيف تمكنت من الفرار من الجيش التركي، وأثناء الحديث سألني عما إذا كنت أعرف التركية وبدأنا نتكلم باللغة التركية وقد أخذه العجب من اللهجة الصحيحة التي كنت أتكلم بها التركية (وهذا نادر لأن غير التركي لا يمكن أن يتلفظ التركية كأهلها إلا إذا كان مثلي تعلمها في الصغر) وكان في حضرته بعض المدنيين من السوريين تعرفت عليهم فيما بعد وهم عبداللطيف العسلي ولطفي العسلي وفائق العسلي وبدري العظم وفائز العظم وفائز الغصين وقد عرفت أحدهم وهو بدري العظم وقد كان تلميذي في لواء كوجوك ضابط وقد أعلمني بعد ذلك عندما زارني في ذلك اليوم بأن الأمير بعد خروجي من عنده قال: أصبحت أشك بهذا الشاب ان كان تركياً فقال له بدري: لا يا سيدي فأنا أعرفه جيداً وهو صادق بما قال

فعندها تبسم سموه. وعندما ودعنا الأمير أمر أن نتغدى معه ولما خرجت تأخر جعفر باشا ونوري السعيد قليلاً ثم خرجا، وبعد وصولنا إلى المقر طلبني جعفر باشا إلى خيمته وبلغني بأن الأمير أمر باعتبار رتبتي ملازم ثاني وبتعييني مرافقاً لرئيس أركان الجيش نوري السعيد وإعطائي ٢٥ ليرة إنكليزية ذهباً وقال: هذه بدل ملابس وحوائج تعطى عادة إلى كل ضابط يلتحق بالثورة. لقد خرجت من اجتماعي بالأمير فيصل بشعور غريب جعلني أتحسس بأنني بدأت خطواتي الأولى نحو تحمل القيام بأعباء مسؤولياتي القومية وشعرت منذ ذلك اليوم بمسؤولياتي التي ارتضيتها لنفسي وبما يجب علي من حسن أدائها وقدرت أن قيمتي ووزني هما في مجتمعي الجديد وأن ذلك سيتوقف على ما سأبديه من إنتاج وعمل وصدق وإخلاص، كما شعرت أن مقدراتي ومستقبلي بل حياتي كلها قد ارتبطت بمقدرات ومستقبل هذه الثورة القومية ومع من قام بها أو اشترك فيها من هذه العناصر المختلفة المتجمعة من جميع الأقطار العربية وليس من شك أن المحيط وهذه البيئة وهذا الجمع من المتحمسين وهذه الروح الحماسية قد أثرت بي فأوحت لي هذه الأفكار وهذا الشعور، ولكن الذي أجج بي هذا الشعور وأثر في تأثير السحر هو شخصية فيصل وروحية فيصل ونظرات فيصل. لقد كان في ذلك الحين في الحادية والثلاثين من عمره ولكنه كان يظهر أكبر سناً من ذلك، ذو عينين سوداوين ساحرتين تنفذان إلى أعماق القلوب وخدين غائرتين يلحظ المرء في ثنايا وجهه خطوطاً من الألم لطول التفكير وهو طويل رشيق القوام جميل المشبه تتجلى هيبة الملوك في خطواته ورأسه وكتفيه وكلامه وإشاراته، ففي حركاته اندفاع ممزوج برزانة وهو حاد المزاج شديد الحساسية فيندفع أحياناً فيتجاوز حدود ما يريد ويجمع في شخصه قوة الرغبة وسحر الشخصية وشجاعة فوارة واندفاعاً وحماساً مع طبيعة مزهوة

تحببه من الجميع وتجعل منه معبوداً لأتباعه. لقد كان حكيما في تقديره لقيم الرجال وكان يزاول أعماله بنفسه ولا يتركها لعناية الآخرين، وقد كان في حاشية السلطان عبدالحميد ثم كان نائباً في المجلس النيابي التركي فتعلم الشيء الكثير من السياسة ومشاكلها وتفهم الحياة الغربية وتعرف إلى عادات الغربيين ولاحظت أن جميع من في الجيش الشمالي من قادة وجنود وبدو كانوا يشعرون أن فيصل يمثل روح الثورة العربية وهو روحها و«نبيها» لا سواه وأن محبته واحترامه يملآن قلوبهم دون استثناء.

استدعاني رئيس الأركان وأخبرني أنه يوجد في معسكر العقبة ضابط ارتباط بريطاني اسمه (جويز Goees) يرغب أن يستفهم بعض المعلومات عن الجيش التركي وأرفقني بجندي دلني على خيمته فاستقبلني جويز بكل لطف (وهذه أول مرة في حياتي أتكلم فيها مع إنكليزي أو أجلس معه) وقد باشر فوراً بتدوين ما أفدته عن قطعات الجيش التركي بغزة وما جاورها من المواقع ومحلاتها ومعلومات كثيرة كان يدونها بكل اهتمام مما استغرق نحو ثلاث ساعات من الوقت، ولما انتهينا من ذلك شكرني بكل حرارة وقال لي: هذه معلومات قيمة جداً لم نحصل عليها من قبل وأنها أتت بوقتها المناسب (ويتبين لنا بعد أيام أنهم كانوا على وشك القيام بهجومهم الكبير على غزة) ولما نهضت لوداعه رافقني إلى مقر القيادة فشكر القائد العام نوري وكرر شكره لي وأخبرهم أهمية المعلومات التي حصل عليها مني وأثناء مسيرنا إلى المقر قال لي: إنه أرسل بطلب طيارة لتعود بهذه المعلومات إلى مقر القيادة العامة لجبهة غزة.

٢

الثـــورة

كيف تكونت الثورة

أمـا الآن وقـد حطّت بنـا الـرحـال في الميـدان الرئيسي للثورة العربية وهو موقـع العقبة الـذي أصبح يشكل نقطة انطلاق لمـا سيقوم بـه الجيش الشمالي من أعمال عظيمة. وقبل أن نسترسـل بسرد الأعمال التي قـام بها هذا الجيش أرى لزاماً علي أن لا أترك للقارىء ثغرة فارغـة في معلوماته عن تسلسل الحركة العربية فأعود به إلى الوراء قليلاً لأشرح له الأحداث التي كـونت الثورة العـربية ورافقتهـا حتى وصول الجيش الشمالي إلى العقبة وثم نستأنف سيرتنا معها.

كان هناك جملة عوامل قوية دفعت بالحسين نحو الثورة وأهمها أربعـة: العامـل الشخصي، العامـل المحـلي، العـامـل القـومي، والعامل الديني.

١ ـ العامل الشخصي: اعتقد الحسين أن الأتراك نزعوا ثقتهم منه وأصبحوا يعتبرونه خصمهم الخطر هو وأولاده وهم يتحينون الفرص للإيقاع به والقبض عليه وأن جمال باشا كان يحتفظ بابنه فيصل كرهينة لديه وأن تعيين بصري باشا وتزويده بسلطات واسعة كان لكسر شوكته والقضاء عليه ولولا وقوع الحرب العظمى لقضي عليه

٢ ـ العامل المحلي: وقد نشأ عن مركز الحجاز الاقتصادي وهو قطر مجدب يعتمد على موسم الحج وبعض ما يرده من مصر من الحبوب ترسلها الأوقاف المصرية لتوزيعها على الفقراء، ولما وقعت الحرب وقام الحصار البحري وانقطع الحجيج وورود الحبوب من مصر ارتفعت أصوات الحجازيين بالشكوى والاستغاثة وشعروا بألم الجوع حتى ان بعضهم انتزع أبواب منزله وأخشاب السقوف لبيعها. وكان الحسين مرجع الأهالي بهذه الشكاوى والاستغاثات. فراجع الحكومة بأمرها، فاعتذرت بسوء الحالة وبحاجة الجيش إلى القوت. فلم يبق أمام الحسين إلا الاتفاق مع الانكليز ليفتحوا البحر أمام القطر الحجازي تأميناً لوصول الحجاج والهبات أو أن يموت أهل هذا القطر جوعاً أو أن يهاجروا إلى باقي البلاد كما حصل مع أهل المدينة المنورة.

٣ ـ العامل القومي: كان العرب ينظرون إلى شريف مكة كزعيم عربي بل كأكبر زعيم قومي وديني في ذلك الوقت، وقد آلمه أن يعدم شباب العرب ظلماً وعدواناً وأن تبعد العائلات شيوخاً وأطفالاً ونساءً إلى الأناضول مشتتين بجميع أطرافها وأن تساق الحرائر من أبناء أمته كالسبايا تحت ستار هذا النفي الظالم، كل ذلك يجري لا لذنب ارتكب أو إثم اقترف بل للتنكيل والتهجير والتتريك.

٤ ـ العامل الديني: لقد كان الحسين صلباً في دينه متمسكاً بأحكامه كل التمسك شديد المحافظة على التقاليد الدينية يعتقد بكفر الاتحاديين وإلحادهم مما قرأه فيما نشروه من كتب ومقالات عن وجوب الابتعاد عن الدين الذي يعتبرونه عربياً يسيء إلى عنصريتهم وقد بسط ذلك في منشوره الذي أذاعه عقب الثورة وأفاض فيه.

أما العامل الذي فجر الخلاف وأظهره فهو تعيين بصري باشا والياً وقائداً للحجاز وهو من غلاة الاتحاديين، وكان من الواضح بالنسبة لظروف تعيينه ومرافقة قوات كبيرة له، أنه عين من أجل تطبيق قانون الولايات على الحجاز وإلغاء ما تتمتع به إمارتها من امتيازات، ثم المباشرة بتمديد الخط الحديدي من المدينة إلى مكة لمقاصد عسكرية تتعلق بهذه الخطة المنوي تطبيقها، ثم عزل الأمير حسين وتبديله بآخر لا يمانع بكل ذلك. فقامت المظاهرات في المدن وانقطعت السابلة بين الساحل والداخل وبين مكة والمدينة. وكان المتظاهرون ينادون بسقوط تغيير امتيازات إمارة الحجاز ويطالبون بعدم مد سكة الحديد إلى مكة هاتفين للأمير. وحاصرت العشائر القوات العسكرية التي كانت بين مكة وجدة، كما امتنع أهل ضواحي مكة عن جلب الخضر والفواكه والسمن والأغنام إليها. وبقيت الأحوال في مكة وأطرافها على هذه الصورة إلى أن وصلت برقية من الصدارة في الآستانة تطمئن بعدم الإخلال بامتيازات الإمارة وعدم مد الخط الحديدي وقرئت البرقية في الحرم الشريف وهدأت الحالة وهكذا خُذل الوالي ومن خلفه الدولة وبقيت النار تحت الرماد.

هذه هي أهم العوامل التي كانت تدفع بالحسين إلى الثورة على الأتراك. ومع ذلك، فإننا سنلاحظ مما سنبينه أن الحسين كان يعمل جاهداً للابتعاد عن سلوك طريقها، ولكنه أخيراً اقتحمها تحت ضغط هذه العوامل وهو يتمثل بهذا البيت من الشعر الذي سمعناه ينشده حين كان يحدثنا عن اليوم الأول الذي أعلن فيه الثورة من غرفته التي كنا نجلس فيها بحضرته:

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها

المفاوضات مع الإنكليز

في سنة ١٩١٤ وقبل دخول تركيا الحرب وقبل أن يباشر الإنكليز بمفاوضة الحسين، قام ستورس (وهو السكرتير الشرقي في دار الحماية في مصر) باتصالات مع أقطاب حزب اللامركزية في القاهرة يباحثهم ويدعوهم إلى زيارته في قصر الدوباره ويسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركيا الحرب وعن موقفهم لو عمل الحلفاء على استقلال البلاد العربية وهل يستطيع العرب مؤازرتهم والنهوض بأعباء استقلالهم، فأجابوه بأن العرب يتمنون أن يتمتعوا باستقلالهم وهم على استعداد لتأييد كل حركة ترمي إلى استقلال العرب. وبعد محادثات عديدة تم الاتفاق على أن يكتبوا شروطهم الخاصة بالاستقلال وأن يعرض اللورد كشنر هذه المطالب على الحكومة البريطانية حتى إذا ما وافقت عليها رسمياً يجري نشرها بواسطة شركة رويتر فيعرفها العالم. على أن تتعهد بريطانيا بحمل حلفائها على قبول هذا التعهد حتى لا يكون ثمة مجال للطمع في الأقطار العربية. وفعلاً كتب هذا البيان وأرسل إلى لندن وانتدب رجال الحزب اللامركزي رسولين للاتصال بزعماء ورجال البلاد العربية ودرس الحالة فيها واطلاعهم على ما وقع. وهكذا غادر القاهرة إلى البصرة محب الدين الخطيب، كما سافر محمد القلقيلي إلى سوريا وقد عاد القلقيلي ولم يطل الإقامة في دمشق وبيروت. أما محب الدين فقد قبض عليه الإنكليز في البصرة وألقوه نحو عشرة شهور في السجن. وبعد أسابيع عاد البيان من لندن مشوهاً مبتوراً فلم يرض ذلك اللامركزيين فقطعوا المفاوضات وأمسكوا عن العمل.

وبعد ذلك اتجهت الأحداث برمتها نحو الحجاز والشريف حسين بالذات، من قبل الوطنيين المتمثلين بحزب الفتاة أو من قبل الإنكليز أو من قبل الأتراك وخلفهم الألمان، كل من هؤلاء

يريد الاستفادة من هذا المركز وما كان لأميره من تأثير ديني وقومي. وكان الأمير يشعر بضخامة هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه. فالوطنيون العرب أجالوا أنظارهم في جميع ملوك وأمراء العرب فلم يجدوا بينهم من كان بإمكانه الأخذ بيد العرب والنهوض بهم بعزم وحزم وإخلاص سوى الحسين.

والإنكليز تحولوا عن الاتصال بالحزب اللامركزي في مصر لأنهم وجدوا في الحسين مقاماً أقوى وأجدى وممثلاً حقيقياً من الوجهتين القومية والدينية فبدأوا الاتصال به، ومن جهة أخرى قرر الأتراك إعلان الجهاد المقدس على الروس والإنكليز والإفرنسيين باسم الخليفة على أن يذاع من منبر المسجد في مكة داعياً المسلمين للجهاد وقتال أعداء الخليفة. ولكن الأمير أبى هذا الإعلان قبل إرضاء العرب بالعفو العام عن السياسيين ومنح سوريا والعراق إدارة لامركزية والاعتراف بحقوق إمارة الحجاز الموروث من عهد السلطان سليم وأن تكون وراثية، وأرسل الحسين هذا الطلب ببرقية للصدارة فجاءه الجواب قاسياً وأن ذلك ليس من صلاحياته ولا من مصلحته. وتلاحقت المخابرات من قبل الإنكليز من جهة والأتراك من جهة أخرى، فهؤلاء يتزلفون ويعدون ويتملقون ويتحايلون، وأولئك يتعجرفون ويتوعدون ويهددون والحسين محترز غير مطمئن للإنكليز وصامد صابر ناصح غير أمين من الأتراك. وكان حمق الأتراك وكبرياؤهم وغرورهم وقصر نظرهم يخدم قضية الإنكليز كما أن لباقة الإنكليز وحسن مداراتهم وبعد نظرهم وتحايلهم ولين ملمسهم وصبرهم كان يضر بقضية الأتراك. ولم يبق أمام الحسين سوى طريق واحد يختاره من طريقين، إما أن يقبل عروض الإنكليز وهي في صالح العرب. وإما أن يبقى بجانب الأتراك وسيفهم مسلط على رقاب العرب يعملون فيهم تنكيلاً وتقتيلاً. فاختار أن يمشي في الطريق الذي

اعتبره في مصلحة قومه فمشاه محترزاً متحفظاً لم يترك أثناء مكاتباته مع الإنكليز أي نقطة اعتبرها مهمة إلا وتطرق إليها وصارحهم بها وحاول أن ينال جميع حقوق العرب. ولنتذكر أن هذه المفاوضات كانت تجرى في سنة ١٩١٥ ولم يكن في حينها ولا دولة عربية واحدة مستقلة وأن الحسين كان أول أمير عربي يفاوض ويتكلم باسم العرب منذ ألف سنة على الأقل وهو ابن النبي وحاكم البلاد التي يقدسها أربعمائة مليون مسلم وعربي. وكان يفاوض أكبر وأقوى وأخبث وأكذب حكومة استعمارية في ذلك الوقت. وسنجد فيما سننقله من المخابرات التي جرت بين الحسين ومكماهون الكثير من الثغرات ونقاط الضعف التي يمكن التسرب من خلالها بالتأويل والتفسير كما وقع فعلاً. ولكن لا بد للقارىء المنصف أن يذكر أن هذه المفاوضات جرت قبل نصف قرن كامل والعرب جميعهم مستعمرات لأكثر من دولة وكانوا بمجموعهم أقل من متخلفين وأكثر بقليل من أميين وفقراء معوزين. والحسين الذي أقدم على التفاوض مع أعرق وأقوى حكومة استعمارية لم يكن قبل ذلك قد مارس السياسة الأجنبية ووقف على خفاياها وألاعيبها وقواعدها، ولم يكن عنده اختصاصيون في عقد المعاهدات وتنظيمها، كما أنه لم يكن لديه لا سلاح ولا جند ولا مال إلا ما كان يتحلى به من صلابة الإيمان وشجاعة واخلاص. وكان يفاوض بدافع من أخلاقه وصدقه وليس له علم ومعرفة بالتحايل الدولي وأكاذيب المستعمرين.

لقد ذهب الحسين ولم يكن له علي من فضل إلا ما كان من فضله على أبناء أمته جمعاء وذهب أولاد الحسين الواحد بعد الآخر وكذلك لم يكن لأحدهم علي من منة سوى عطف فيصل الأول لما قدمته من خدمات أثناء وجودي في جيشه تتجاوز ذلك العطف. وستجد مما ستقرأه في هذه المذكرات أنني جوزيت

جزاء سنمار من أحد أنجاله وثم من أحد أحفاده. أكتب هذا لأدلل على أنه ليس للأشراف علي من فضل ولا منة سابقة ولا انتظر أو أطلب منهم منفعة لاحقة وأنني والحمد للّه لست بحاجة إليهم. أقولها كي لا أتهم وحسبي اللّه فيما قلت وفيما سوف أقول. إنني من تلك البقية القليلة الباقية التي رافقت نهضة الحسين وعرفت الحسين بشخصه وآمنت بمبادئه القومية وقاتلت تحت رايته وواكبت جميع الأحداث التي تعاقبت على القضية التي أخذها على عاتقه ورأيت تصلبه وثباته في المطالبة بحقوق العرب عامة وتمسكه بحقوق فلسطين خصوصاً إلى أن ضاع الملك ومات منفياً فقيراً مديوناً.

لقد عاش الحسين متهماً ومات معدماً، وأما قومه العرب الذين عاش في خدمتهم وضحى بملكه حتى مات من أجلهم فقد كانوا ولا يزالون لا يقدرون مصالحهم سائرين بوحي من الشعوبية. لقد كان للعرب (ولا يزال) أصدقاء قليلون وأعداء كثيرون. فالأمم المستعمرة الطامعة والشعوبية الحاقدة والأتراك الناقمون والأقليات التي أفسدها المستعمرون وبعض الإمارات العربية الطامحة الجاهلة وفي مقدمة كل هؤلاء وأخطرهم اليهودية العالمية. فجميع هؤلاء كانوا يرون في الحسين خطراً على مصالحهم في جمعه لشمل العرب وإنهاضهم، فناصبوه العداء وعملوا على تحطيمه والتنكيل به والتخلص منه، وساعد على ذلك جهل العرب أنفسهم وتفككهم. لقد اتهموا الحسين أنه تواطأ مع الإنكليز وأنه تساهل بحقوق العرب وأنه خان الإسلام وتآمر مع الكفار وأنه تقاضى منهم الملايين.

لقد مضى على نهضة الحسين نصف قرن ذهب خلاله الحسين إلى خالقه شهيداً فقيراً ليجلس في أعلى عليين كأعظم شهيد من شهداء هذا البيت الشهيد. وتتابعت بعد الحسين قوافل الرجال ولا تزال تتلاحق منها الصديق ومنها العدو وفعل الزمن فعلته

في الخمسين سنة التي مضت مات أثناءها من مات ورجع إلى الحق من رجع.

وبدأ الجهل ينحسر ويتراجع والعلم ينتشر ويعم فيفتح الأذهان على الحقائق. وغاصت الأفكار النيرة بين أنقاض ذلك الماضي لتخرج الحقائق التي لوثها أعداء العرب ليجدوا أن الحسين رضي اللّه عنه، هو المنقذ الثاني ورافع علم النهضة العربية الثانية بعد محمد صلى اللّه عليه وسلم، المنقذ الأول ورافع علم النهضة العربية الأولى. لقد بدا الجيل الجديد ينصف الحسين ابن علي شهيد فلسطين كما أنصف من قبله الحسين بن علي شهيد كربلاء وكما بدأ ينصف فيصل بن غازي شهيد بغداد. وهكذا نحن العرب نقتل من يحيا لأجلنا ثم نبكيه.

في أواخر شهر آب سنة ١٩١٤ وصل إلى الطائف تاجر مصري اسمه علي أفندي البزاز يحمل من المستر ستورس السكرتير الشرقي لدار الحماية إلى الأمير عبداللّه كتاباً هذا نصه:

> أمرني اللورد كشنر وزير الحربية البريطانية أن أكتب إلى سيادتكم لأسألكم فيما إذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب وقد سبق أن أجابكم بعدم إمكانية مساعدتكم في تحقيقها فإن في استطاعة حكومة جلالة الملك أن تقدم لكم المساعدات اللازمة بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الأعداء وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين. فتحفظ الأمير تجاه هذا الرسول، وأنبه على مخاطرته، ولكنه عرض الرسالة على والده الذي أمره بالإجابة عليها بعدم استعداده في الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب وأن يصرف الرسول أميناً مكرماً، ففعل.

وبعد ذلك بحوالى شهر أي في الوقت الذي تطلبه ذهاب الباخرة وعودتها، عاد ذلك الرسول برسالة ثانية من ستورس إلى الأمير عبداللّه وضمنها كتاباً من السير هنري مكماهون إلى الشريف

حسين وفيها يذكر معنى ما جاء في الرسالة الأولى المرسلة للأمير عبدالله فأطلع الأمير والده على الكتاب وسأله بماذا أجيب فضحك وقال: اكتب (في الصيف ضيعت اللبن) فكتبها الأمير وسلمها للرسول. وفي شهر تشرين ثاني أي بعد دخول تركيا الحرب عاد الرسول عينه يحمل كتاباً ثالثاً من المستر ستورس هذا نصه:

> بما أن الترك دخلوا الحرب إلى جانب الأعداء فنحن على أتم استعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته وتقديم كل ما يريده من مساعدة.

فأطلع الأمير والده على الكتاب فقال له: «ليس في استطاعتي أن أعمل شيئاً قبل أن استشير العرب وأسألهم رأيهم «فكتب الأمير بذلك إلى ستورس متمهلاً وواعداً بتقديم اقتراحات معينة في المستقبل».

وقام الحسين بعد ذلك بدرس الموقف والتفكير فيما يجب عليه عمله فأوفد نجله فيصل إلى الآستانة ودمشق لدرس الحالة هنالك والاجتماع برجالات العرب وأقطاب الترك، ولما عاد إلى مكة وأطلع والده وإخوانه على ما تم وما شاهده وما شعره من سوء نية الأتراك وما وجده من رجالات العرب من حض وتشجيع على الثورة، ذهب الحسين وأولاده إلى الطائف وعقدوا مؤتمراً قرروا فيه إعلان الثوة باتفاقهم مع الإنكليز على أساس استقلال العرب وتحريرهم وقرروا أيضاً عودة فيصل إلى دمشق للاتصال برجال العرب فيها وكانوا يفكرون أن تبدأ الثورة هناك وتدرس الخطط والتدابير لتكون الثورة عامة شاملة فتشمل الحجاز والشام ثم يعود فيصل إلى المدينة تحت ستار قيادة المتطوعين ليعمل مع أخيه الأمير على الاتفاق مع مشايخ البدو والقبائل فينظمون أمرهم ويهيئونهم للثورة وأن يتولى الأمير عبدالله تنظيم قبائل الطائف وما جاور مكة ويعد معدات

العمل وأن يشترك مع والده في المكاتبات التي تدور مع الإنكليز.

وفيما يلي نص المخابرات التي دارت بين الإنكليز والحسين.

* * *

ـ ١ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٨ رمضان سنة ٢٣٣٣ (تموز ١٤ سنة ١٩١٥):

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله.

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة ثم يجب أن لا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل لأن القضية قد قررت الآن. وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا في المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) والتي أوقف إرسالها منذ العام الماضي. وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال لتوطيد مصالحنا المشتركة واعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلكم. أطال الله بقاءكم.

حاشية. أرجو أن لا تزعجوا أنفسكم بإرسال أية رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا خلا الجواب على مذكرتنا وما تضمنته. ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك.

والرسول موثوق

* * *

■ المذكرة

لما كان العرب بأجمعهم ـ دون استثناء ـ قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم.

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا، أنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

١ ـ أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ أدنه حتى الخليج الفارسي شمالاً ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً (يستثنى عن ذلك عدن التي تبقى كما هي) ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً.

على أن توافق بريطانيا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

٢ ـ تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

٣ ـ تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية في مجابهة كل قوة

تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لأفضلية إنكلترا الاقتصادية فيها، على أن يكون هذا التعاون في كل شيء، في القوة العسكرية والبحرية والجوية.

٤ ـ إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد على أن هذا الفريق المتعدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معاً وأن يتفقا على شروط.

٥ ـ مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمسة عشر سنة وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام.

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق (والحمد للّه) على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح. وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً، فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا ـ إذا لم يصل الجواب ـ أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي.

* * *

من مكماهون إلى الشريف

مصر في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ اغستوس سيية ١٩١٥)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار فرع الشجرة المحمدية والدوحة النبوية القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع

والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائفين عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترا وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة وهي أن مصالح العرب هي مصالح انكلترا ومصالح انكلترا هي مصالح العرب.

وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كشنر في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي أفندي وهي الرسالة التي أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عندما تعلن الخلافة ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة. أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل ـ والوقت قصير والحرب قائمة ـ سابقاً لأوانه وخصوصاً أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتهم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً.

ثم يجب أن أضيف إلى ذلك أنني علمت بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك وأعني الهدامين الجدد والظالمين القدماء.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالما تعلمونا كيف وأين ترغبون تسلمها ونحن نهيىء الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان والسلام.

وتفضلو بقبول احترامانتا

ا. هـ. ماكماهون

* * *

من الشريف إلى ماكماهون

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٩ أيلول ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله،

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية أعني نقطة الحدود. وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون. وفي أي شكل وفي أي ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم. ويقدر فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن (البرودة) و(التردد) اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنما إضاعة الوقت وأن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها... يعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل.

إن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى. وإذا أجمع هؤلاء على ذلك، فإنما يجمعون على سبيل المصالح المشترك وهم يرون أنه من الضروري جداً أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة ليعرفوا على أي أساس يرسمون حياتهم كيلا تعارضهم انكلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي إلى نتيجة معاكسة الأمر الذي حرمه الله. وفوق هذا أن العرب لم يطلبوا (في تلك الحدود) مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها. أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ويسر الناس بها. وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأنني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا بل هي مقترحات شعب بأسره يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية. أوليس هذا صحيحاً يا فخامة

الوزير. وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا ـ كما قيل ـ أو غاضبين. أما ما يتعلق في قولكم أن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك فلا نظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية في كل عمل أقوم به وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة وانني سأستمر في هذا إلى أن يأمر اللّه بغير ذلك. وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب (ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا) ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها في هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها. ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما تدعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها. ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها. وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق صعوبتها المتاعب الحاضرة. وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنقطة وأنا أصرح بهذا رغم أنني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها المستر ستورس منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تتناسب وموقفنا وخصوصاً فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعنا إليها القدر بسرعة ووضوح لتكون حجة (نحن والذين يرون رأينا) في العمل ضد تركيا ودون أن نتعرض للوم والنقد.

وأعتقد أن قولكم (بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم) لا يحتاج إلى إيضاح... إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة...

واعتقد الآن أن في هذا الكفاية.

* * *

القاهرة في ٢٤ تشرين أول ١٩١٥ (١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣).:

إلى شريف مكة (وهنا درجت الألقاب)

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور وكان للعبارات الودية المخلصة التي وردت فيه أكبر تأثير في نفسي. وانه ليؤسفني أنكم لاحظتم في كتابي الأخير وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرود والتردد مع أنني لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول إن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً هذا كل ما أردت قوله.

وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية وإنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية التي أثق كل الثقة بأنها ستحوز برضاكم.

إن «مرسين» و(اسكندرونه) وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة فيجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على أن لا تنقص شيئاً من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب. أما الأراض التي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم:

١ ـ إن انكلترا مستعدة ـ على أساس تلك التعديلات ـ أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة.

٢ ـ تحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها.

٣ ـ تقدم بريطانيا للعرب ـ عند الحاجة ـ كل مساعدة أو نصيحة تلزم، وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية.

٤ ـ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن العرب يوافقون في الاقتصاد على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الإنكليزية.

٥ ـ أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مراكز إنكلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ومراقبة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها.

وإني لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائنا (التقليديين) العرب ويؤدي حتماً إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وانقاذ العرب من النير التركي الذي كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام.

لقد قصرت كتابي هذا على الشؤون العظيمة الأهمية، فإذا كان لديكم شؤون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ولم أشر إليها في كتابي هذا فإن في وسعنا البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل. وقد تلقيت بالسرور والرضى نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التي قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التي خلقتها الحرب الحاضرة.

أرجو من الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب، لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عريفان وهو سيطلعكم على بعض الشؤون التي لم أذكرها في كتابي.

أ. هنري ماكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٥ تشرين ثاني ١٩١٥)

إلى السير ماكماهون...

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ في ١٥ ذي الحجة وها أنا أجيبكم عليه بما يلي:

١ ـ رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة السلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنه إلى المملكة العربية. أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفاً وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي فكلاهما من نسل واحد.

وسنسير ـ نحن المسلمين ـ على خطة سيدنا عمر ابن الخطاب وسواه من الخلفاء الذين فرضوا على المسلمين ـ بموجب الديانة الإسلامية ـ أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن المسيحيين: إن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات. وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع.

٢ ـ لما كان العراق قسماً من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين تبعوه ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم. ولذلك أعتقد أنه ليس في المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر. إنما رغبة منا في تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الإنكليزية تحت إدارة إنكلترا لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

٣ ـ إذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى أمامنا كثيراً من المخاوف وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم هناك أمر آخر نخشاه وهو أننا إذا وقفنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوة الألمانية فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح فتتركنا إنكلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا. فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع.

٤ ـ إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا، هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا.

٥ ـ عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هي حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتمديدها دوماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر.

٦ ـ إن كتابنا المؤرخ في ٢٩ شوال ١٣٣٣ يقيناً على ما أعتقد من إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على أن لا يكون ـ كما صرحتم ـ تدخل في الشؤون الداخلية.

٧ ـ إننا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع في سبيل الوصول إلى اتفاق يرضي الطرفين ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم أو انقراض في سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطاليبهم. ولو لم أكن أعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانيهم لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وانزوي فيه ولكن العرب بأسرهم يصرون علي بأن أقود حركتهم حتى النهاية.

وليحفظكم الله وينصركم

***

القاهرة ١٣ كانون أول سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٣هـ وسرني ما رأيت من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية وقد تلقيت أيضاً بمزيد من السرور والرضى تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين والتعاليم التي تتضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء هذا وفي قولكم ان العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين بعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء. أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى ـ كما سبق وأخبرتكم ـ مستعدة لأن تعطي الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة وأننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأي وجه كان.

فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف على قوة الاتفاق بيننا وثباته وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك.

وهذا عربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في

غايتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه.

وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثاني ١٩١٦)

تلقيت كتابيكم المؤرخ في ٩ صفر فسرني ما جاء فيهما وذهب ما كان يقلقني وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم أن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية بل إن كل شيء كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وأننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه. وهذه الحقائق هي دوماً في فكري اهتم بها كل الاهتمام وأرجو أن تجد في نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار. إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذي اقترحناه لقاء احتلاله فإنني رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا في القول والعمل أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها. أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم في كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التي يريدها الله العلي الأعلى أن تتحقق. وهذا الشعور هو الذي حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى تحالف انكلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب ومصائبها.

* * *

القاهرة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثاني ١٩١٦)

تلقيت بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية. وإننا نقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح العرب وأنكم لا ترمون إلى شيء ـ في عملكم ـ غير صالحهم وحريتهم. وقد اعتنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن

ولاية بغداد وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية. أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة. وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأي تدخل ـ مهما قل شأنه ـ في اتفاقنا المشترك في ايصال هذه الحرب إلى الفوز ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وإنكلترا ستقوى وتشتد وهما اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات.

والآن.. وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو اللّه أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة.

وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا. ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

* * *

مكة في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤

إلى صاحب السعادة...

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم الأخير المؤرخ في ٢٤ ربيع أول ١٣٣٤ (٣٠ كانون ثاني ١٩١٦) واحطت علماً بما جاء فيه وسأعمل إن شاء اللّه لجمع كلمة العرب لنبدأ العمل قريباً بإذن اللّه.

* * *

القاهرة في ١٠ مارس ١٩١٦ (جماد الأول ١٣٣٤)

بعد تقديم ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا كتابكم المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الأمين وقد

سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها وأنها لموافقة في الأحوال الحاضرة وأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم وأن كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في (بورت سودان) تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم وبالمواقع التي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي سيكون حاملو الوثائق فيها لتسليمها إليهم. إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل اللّه أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج وسيعود إلى بورت سودان وبعدها يصلكم بحراسة اللّه ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله. وننتهز الفرصة لتوضيح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه أن ينتج سوء تفاهم إلا وهو يوجد في بعض المراكز والنقط العسكرية بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحزبية البحرية في البحر الأحمر وعليه نرى أنه من الضروري أن تتخذ التدابير الفعالة ضدهم ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات لأنا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية.. وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغتم خبراً مكذوباً عن الأسباب التي تضطرنا إلى عمل من هذا القبيل.

وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في اعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ولالحاق الأضرار بمصلحتنا في ذلك البحر وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق لديكم ذلك.

وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عدداً عظيماً من الجمال وقد أرسلت إلى دمشق الشام ونؤمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك وإذا هو صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا أن

يقبضوا على الجمال حال سيرها ولا شك أن في ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون إلينا وحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إليهم وقد هزمنا والحمد لله القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم وأن لسقوط (ارضروم) من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاس تأثيراً عظيماً هو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له وإياكم.

نسأل الله عز وجل أن يكلل أعمالكم ومساعيكم بالنجاح وبالختام...

٣

مراسلات الحسين

كثيرون هم الذين انتقدوا المفاوضات التي أجراها الحسين مع الإنكليز باعتبارها غير قوية ويتخللها الضعف والتساهل. وأغلب هؤلاء لم يقرأوا نصوص هذه المكاتبات فبنوا انتقادهم على السمع وعلى النتائج التي وصلت إليها تلك الاتفاقية دون أن يعطوا كبير أهمية لسلوك الإنكليز وخيانتهم للعهد.

عندما بدأ الانكليز بمفاوضة الحسين كانوا وحلفاءهم في موقف ضعيف وخطر فكان الألمان ينتقلون من ظفر لظفر وكانت جيوشهم تدق أبواب باريس، ومع ذلك لقد كانوا مع حلفائهم يتفاوضون على تقسيم ممتلكات تركيا. ولكن عندما انتهت الحرب وجاء دور تطبيق ما اتفقوا عليه مع الحسين كانوا قد كسبوا الحرب وخرجوا منها وهم أعظم وأقوى دول العالم. أما العالم العربي الذي وعدوه بإيصاله لحقه في الاستقلال فقد كان ضعيفاً فقيراً متفرقاً، والسياسة ليس فيها شرف كما كان يتوهم الحسين وغير الحسين، انها مصلحة قبل كل شيء واحترام المعاهدات تابع لما يتمتع به المتعاهدون من قوة وما يتعلق بها من مصالح ولا يضمن تطبيق المعاهدات سوى القوة أو المصلحة وعدا ذلك هراء. حتى معاهدة سايكس بيكو التي جرت بين الحليفتين انكلترا وفرنسا عندما جاء زمن تطبيقها

زاغت انكلترا عن تطبيقها كما اتفقوا عليها لان إنكلترا كانت أقوى من فرنسا فطبقتها حسب مصلحتها فأخذت من فرنسا الموصل وعملت لإخراجها من كليكيا كما جعلت فلسطين من حصتها بعدما كان من المقرر أن تكون دولية وبعد ذلك استمرت في الدس لإخراجها من سوريا طيلة أيام انتدابها عليها. فالحسين كان رجلاً شريفاً ويعرف معنى الشرف ويظن بالإنكليز الشرف الدولي، والحسين ليس رجلاً دبلوماسياً وليس له علم وإلمام بطبائع المستعمرين وأساليبهم والإنكليز أبرع أمم العالم بأساليبهم الاستعمارية ومع ذلك فإن الحسين عمل ما في وسعه في الحيطة والصراحة وعدم التساهل.

افتتح الحسين كتابه الأول في مفاوضاته بأن طلب إلى الإنكليز أن يمتنعوا عن إرسال طائراتهم لإلقاء المناشير وبث الدعايات لعدم لزوم ذلك باعتبار القيادة العربية أعلنت عن انحيازها لطرفهم، وبذلك انحاز الشعب وعليه لم يبق لزوم لاتصالهم بالشعب العربي حفظاً للشخصية العربية، وعزز هذه الشخصية بطلبه أن ينتظروا أفعاله قبل أن يطلب منهم أي عون، أراد أن يفهمهم أنه ليس بالحليف الضعيف. وطلب أن يفسح في المجال أمام دائرة الأوقاف المصرية بإرسال مقادير القمح المعروفة وما هو إلا إعادة الحق لفقراء الحجاز الذين أضر بهم الجوع. وأما طلبه بموافقتهم على إعلان خليفة عربي مسلم فكان يقصد منه تأمين أساس مكين للكيان العربي.

أما المذكرة فهي المطالب العربية الأساسية التي دارت حولها المفاوضات والتي تشكل بمجموعها المبادىء القومية العربية التي عمل من أجلها العرب منذ نهضتهم حتى يومنا هذا. ففي مستهل الكتاب أوضح لهم أن العرب قد قرروا أن يعملوا للفوز بحريتهم واستقلالهم وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. وما قبولهم التحالف مع الإنكليز إلا لاعتقادهم أنه في مصلحتهم

القومية. ومقابل ذلك كثمن لهذه المساعدة، فإن العرب سيتخذون من الإنكليز أصدقاء مفضلين على غيرهم ثم يطلب منهم التصديق رسمياً على مطالبات واضحة بيّنها في مذكرة من خمس مواد.

ففي المادة الأولى يطلب اعترافهم بحدود العرب القومية التي أصبحت معروفة كميثاق قومي للعرب، وفي المادة الثانية يعدهم بالأفضلية الاقتصادية إذا تساوت الشروط مع غيرهم ويقصد بذلك إثبات الصداقة وإبعاد التبعية. وفي المادة الثالثة يوضح التعاون بين الأنداد مستبعداً أيضاً التبعية. وفي المادة الرابعة يحدد مدة هذه المعاهدة كما حدد وقتاً لقبول شروطه واحتفظ بعد انقضائها بحرية التصرف كي يظهر أمامهم بمظهر القوي المستغني لا الضعيف المستسلم.

وهكذا لم يكن في كتاب الحسين الأول ولا في المذكرة الملحقة به لا ثغرة ولا ضعف ولا تساهل في الحقوق القومية.

ونرى في رسالة مكماهون الجوابية بأنها بدأت بديباجة طويلة احتوت جميع ما تمكنوا من جمعه من ألقاب التعظيم والاحترام مما فضح الغاية المقصودة منها، ويتضح من بداية الكتاب نية بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب دون توضيح حدود للبلاد العربية ومن البداية بدأ بالتهرب من تحديدها باعتبار أن هذا البحث سابق لأوانه. وأما الخلافة التي اعتبروا أنها تهم الحسين شخصياً فإنهم أظهروا الموافقة عليها على أن تكون لعربي ولكن متى؟ عندما تعلن ومتى تعلن؟ إنه متروك للمستقبل حلال المشاكل.

وأراد المفاوض الإنكليزي أن يغمز من طرف خفي ويبين للحسين أن العرب جميعهم ليسوا منقادين إليه بمعنى أنه لا يتكلم باسم جميع العرب.

ويبدأ الحسين رسالته الثانية بالضرب رأساً على النقطة الأساسية وتركيز المفاوضات عليها وهي النقطة التي يقدر الإنكليز أهميتها والتي أرادوا من بداية مفاوضاتهم الزوغان والابتعاد عنها. لأنها تمس أساس اتفاقهم مع حلفائهم الروس والفرنسيين الذين كانوا على علم واطلاع بمفاوضاتهم مع الحسين خطوة بخطوة. كشف لهم الحسين هذا التهرب الذي سماه بروداً وتردداً وأفهمهم بكل صراحة أن تعيين الحدود العربية ضرورة ملحة وهو ليس مطلب فرد بل هو مطلب العرب بأجمعهم، وتوضيحه يحول دون خلق متاعب بين الإنكليز وحلفائهم من جهة والعرب من جهة أخرى. ثم يقابل الحسين غمزة المفاوض الإنكليزي بمثلها فيقول له بأن جميع العرب بمن فيهم الذين بجانب الأتراك ينتظرون نتائج هذه المفاوضات أي أنهم سيكونون بجانبنا إذا كانت حقوقنا وحدودنا مضمونة. ثم يتطرق الحسين إلى موضوع مطامع فرنسا في لبنان ليثبت حق العرب فيقول إننا سوف نطالب بحقوقنا حالما تنتهي الحرب وقد نضطر لاتخاذ تدابير من شأنها خلق متاعب تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة وبأننا لا نسمح لفرنسا بالاستيلاء ولو على قطعة صغيرة من تلك المنطقة.

وفي كتاب مكماهون الثاني وأمام إصرار الحسين لتعيين الحدود العربية دخل في الموضوع مضطراً متكلفاً النعومة على قدر ما تساعده العبارات المؤلمة على مسمع كل عربي، عندما يقال له بأن مرسين والاسكندرون وبعض الأقسام التي في غرب دمشق وحمص وحماه وحلب غير عربية. ولا يكاد ينتهي من هذا التصريح المؤلم حتى يسرع بمحاولة لفه بغلاف من عبارات لا تعني شيئاً يخرج عما قصده من ذلك المعنى حيث يقول بأن هذا التعديل لا ينقض شيئاً من الاتفاق ثم يصدر كتابه بخمس مواد ظاهرها اعترافات وحقيقتها تثبيت لتقطيع أوصال البلاد

العربية والحصول على اعتراف به. ففي المادة الأولى اعتراف باستقلال بلاد العرب على أساس توزيعها، وفي المادة الثانية الاعتراف بالاستقلال للبلاد المقدسة أي الحجاز وتثبيت التجزئة للبلاد العربية الباقية، وفي المادة الثالثة تثبيت حق مداخلتها في شؤون البلاد العربية، وفي المادة الرابعة تأكيد على أن العرب يقتصرون على طلب المستشارين والموظفين منها. وأما في المادة الخامسة فإخراج للقطر العراقي جميعه من المجموعة العربية. ويرد عليه الحسين متكلفاً المرونة فيستبعد مرسين وأضنه من المنطقة العربية ولكنه يصر على أن حلب وبيروت والسواحل عربية ويغمز من التعصب العربي الديني فيشرح له العدالة الاجتماعية في الإسلام ثم يتطرق إلى القطر العراقي فيقول إنه جزء من البلاد العربية لا يزال ساحة معركة وأن الإنكليز يحتلون قسماً كبيراً منه ولا يعقل أن يطلب منهم ضمه الآن إلى المملكة العربية التي لم تتشكل بعد، فأراد أن يحصل منهم على اعتراف عملي فطلب أن يكون احتلالهم لمدة قصيرة ومقابل أجر. ثم يطلب منهم التوكيد على استمرار تعاونهم مع العرب في مختلف الظروف وفي نهاية الحرب. فيجيبه مكماهون فيشكره على استبعاد مرسين واضنه من الحدود العربية، وعلى موافقة الحسين بالنسبة لمراعاة معاهدات الإنكليز مع رؤساء العرب ويضيف بخبث أنه من المعلوم أن هذه المعاهدات تشمل البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية، وبذلك يكون قد أخرج من حدود المملكة العربية التي يعينها الحسين جميع الإمارات والمشيخات التي في جنوب الجزيرة العربية لأن للإنكليز معهم معاهدات تتعهد بموجبها لكل منهم بصون حدوده واستقلاله وحمايته. وعلى ذلك لا يبقى من الحدود العربية القومية التي بينها الحسين سوى الحجاز. ويتضح أن الإنكليز في جميع مخابراتهم كانوا لا يحيدون عما رسموه مع حليفتهم فرنسا في معاهدة سايكس بيكو. ونلاحظ كيف أن مكماهون تهرب من

الخوض في حديث ولايتي حلب وبيروت وتلميحه بمصالح فرنسا وثم سد باب النقاش بتأجيل البحث. ويعود الحسين في جوابه ليؤكد تمسكه بالعراق وبجميع أقسام سوريا عدا مرسين وأضنه التي يعتبرها تساهلاً. ويجيبه مكماهون أنه عني عناية خاصة بملاحظته بشأن ولاية بغداد وأجل إتمام البحث بها إلى ما بعد الحرب. وفيما يتعلق بولايتي حلب وبيروت فيقول للحسين بأنه دوّن بسرور رغبته بتجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا. وكأنه يريد بذلك تسجيل عبارة الحسين وكأنها اعتراف منه بحقوق فرنسا في سواحل سوريا.

وتنتهي المخابرات بين الحسين ومكماهون حول حدود المملكة العربية أن الحسين بقي متمسكاً بالحدود القومية من الاسكندرون حتى جميع الجزيرة العربية عدا عدن، فلم يتنازل عن أي قسم منها، ويلاحظ القارىء عدم ذكر فلسطين خلال المكاتبات وما ذلك إلا بسبب أن فلسطين تعتبر في البداهة جزءاً من سوريا وليس فيها خلاف، وأما وعدهم بالوطن القومي لليهود فلم يكن معروفاً بعد. وهكذا انتهى الحسين من مخابراته وهو يعتقد أنه بيّن الكفاية عن الحدود وحصل على ما يمكن الحصول عليه من الاعتراف بها والحرب قائمة على أشدها. أما الإنكليز فإنهم أنهوا موضوع الحدود مستعملين جميع طرق الدهاء واللعب على الألفاظ مستفيدين من عدم خبرة العرب بإدارة وتنظيم المعاهدات الدولية. أخبرني أحد من كان لهم وقوف على مجرى تلك المكاتبات أن الإنكليز لعبوا دورهم الفعال الذي أوصلهم إلى النتيجة التي كانوا يتوخونها بمكالماتهم الشفوية التي كانوا يجرونها مع الرسل الذين كانوا يوصلون تلك المكاتبات وذلك بإعطاء التفسيرات المبالغ فيها التي ترضي الجهة العربية. وبانتهاء الحرب طبقت الحليفتان إنكلترا وفرنسا معاهدة سايكس بيكو وأدار الإنكليز ظهرهم

للحسين الذي بقي يطالب بحق العرب دون هـوادة أو تسامـح، ولمـا ظهر أمـر وعدهم بـإعطـاء وطن قـومي في فلسطـين ركـز الحسين جهده في الدفاع عنها كجزء من الـوطن العربي الـذي يدخل في معاهدتهم معه حتى قطعوا الأمـل من إغرائـه فعملوا على خلعه ثم اعتقاله في قبرص.

٤

معاهدة بطرسبورغ

بينما كانت بريطانيا تمثل على المسرح العربي هذه الرواية ببطولة ماكماهون وستورز، كانت في الوقت نفسه وعلى مسرح ثانٍ تقوم بتمثيل رواية ثانية اضطلعت ببطولتها بالاشتراك مع روسيا وفرنسا ليقضوا نهائياً على الرجل المريض ويتقاسموا تركته، وكانت أيضاً في الوقت عينه تقوم بتمثيل رواية ثالثة مع اليهود لتمنحهم في إحدى حصصها من تلك التركة وطناً قومياً لهم (في فلسطين) حيث ضمنت بذلك معاونة اليهودية العالمية في الحرب وأموراً أخرى بعيدة سنأتي على ذكرها في سياق الحديث. أما وقد وصلنا إلى نهاية المخابرات التي جرت مع الحسين وأصبحت الثورة على وشك الاندلاع وقبل أن نسترسل في الكلام عنها ونساق مع تسلسل الأحداث، نرى أن نعرج بالقارىء إلى الطرف الآخر لنشاهد معه تلك التمثيلية الأخرى وثم نعود به إلى ميدان الثورة العربية لنسير معها إلى نهايتها.

وهذا هو المسرح الأول وقد كتب على بابه (مسرح الحلفاء) وقد تحالفوا بزعمهم ضد الظلم والطغيان والعدوان ولتحرير الشعوب المظلومة. فكان كل من هؤلاء الحلفاء يعلم علم اليقين أنهم إذا ما خرجوا من هذه الحرب ظافرين فليس لأحد منهم أمل في غنيمة من الأراضي الأوروبية، فالأمل كله في ممتلكات

هذا الرجل الغني المريض، وقد أجبرتهم الظروف والمصلحة على الاتفاق لخوض الحرب بجانب بعضهم بعضاً كما أجبرتهم على الاتفاق حول ما كانوا مختلفين عليه وهكذا جلسوا ليتقاسموا «جلد الدب» الذي قرروا صيده.

وبعد مفاوضات طويلة وقّع الحلفاء الثلاثة يوم ٤ مارس ١٩١٦ في بطرسبورغ على المعاهدة الآتية، وقد نشرت الحكومة البلشفية هذه المعاهدة في يوم ٢١ شباط ١٩١٨ وهذا نصها:

بناءً على المفاوضات التي دارت بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا في ربيع سنة ١٩١٥ في لندن وباريس.

وبناءً على اقتناع هذه الدول المتحالفة بوجوب إنقاذ الأمم الخاضعة للسلطنة العثمانية واقتسامها مناطق نفوذ فيما بينها.

ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة في الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة.

ولما كان الواجب يقضي بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب فقد تقرر ما يلي:

أولاً: تتعهد فرنسا وبريطانيا وروسيا فيما بينها أن تعمل يداً واحدة في سبيل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيا مراقبتها وإدارتها.

ثانياً: تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج وتسهيل سائر السبل المؤدية إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

ثالثاً: تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالي:

منطقة نفوذ روسيا

أولاً: تضم روسيا المناطق التالية:

أ ـ ولايتا أرضروم وتبليس والمناطق التابعة لها.

ب ـ الأراضي الكائنة جنوبي كردستان وتمتد على خط من ولاية موش إلى سعرد ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمر ثم تتبع خطاً مستقيماً إلى العمادية ومنها إلى الحدود الإيرانية.

ج ـ تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالاً إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون وسمتها.

د ـ تنتهي نقطة حدود روسيا على البحر الأسود شرقي طرابزون في منطقة تحدد فيما بعد.

هـ ـ تخضع هذه الأراضي خضوعاً تاماً إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته.

منطقة نفوذ فرنسا

تضم منطقة نفوذ فرنسا المناطق التالية:

أ ـ السواحل السورية وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهي في الاسكندرونة.

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسا مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي.

ج ـ تضم جزيرة أرواد والمناطق المجاورة لها والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعروف في الفقرة السابقة.

د ـ تضم ولاية كليكية إلى النفوذ الفرنسي وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمر ثم تتجه إلى عيناب وماردين وثم تنحدر شمالاً من آلاطاغ ـ قيصري ـ اق طاغ يلديز طاغ ـ زرعة ـ اكبن ـ ضربوط.

هـ ـ تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسي.

منطقة نفوذ بريطانيا

تؤلف منطقة النفوذ البريطاني من المناطق التالية:

أ ـ تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والإفرنسية في الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطاني وهذه المنطقة تضم القطر العراقي مع مدينة بغداد.

ب ـ السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا.

ج ـ تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى آخر البحر الأحمر إلى نفوذ بريطانيا المطلق.

د ـ تؤلف الحكومات العربية عملاً بالمواد الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب على أن تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال اللازم لها والذي يعين فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

رابعاً: تتألف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الإفرنسي والبريطاني دولة أو حلف دول عربية مستقلة وفقاً لاتفاق خاص بين فرنسا إنكلترا على أن تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق.

خامساً: تكون ميناء اسكندرونة دولية وتعلن حريتها.

سادساً: تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضي التركية على أن توضع تحت إدارة خاصة وفقاً لاتفاق يعقد بين إنكلترا وفرنسا وروسيا بهذا الشأن وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصلحتهم.

سابعاً: تعترف الدول المتعاقدة مبدئياً ومتقابلاً بجميع العقود والامتيازات المعقودة والمعطاة قبل الحرب في هذه الأراضي.

ثامناً: تقبل الدول المتعاقدة جانباً من الدين العثماني بنسبة الأراضي التي تمتلكها.

وأثناء هذه المفاوضات دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء فبلغوا بواسطة إنكلترا عن مجرى هذه المعاهدة فوافقت على موضوع هذه المفاوضات على أن تعرض بعد الحرب القضية الشرقية بسائر فروعها على بساط البحث بين دول الحلفاء وايطاليا، وأن تعطى لإيطاليا سائر الحقوق التي ستعطى لفرنسا وبريطانيا وأن تعترف روسيا بالمنطقة التي ستعطى لإيطاليا من المملكة العثمانية وأن تكون حصة إيطاليا من البلاد التي ستسلخ عن السلطة العثمانية مساوية تماماً للأراضي التي ستعطى لفرنسا وبريطانيا.

٥

معاهدة سايكس ـ بيكو

بناءً على ما جاء في المادة الرابعة من المعاهدة الثلاثية وفي ٩ تشرين ثاني سنة ١٩١٥ عينت الحكومة الفرنسية المسيو جورج بيكو قنصلها العام في بيروت سابقاً مندوباً سامياً لمتابعة هذه الشؤون وللمفاوضة مع الحكومة البريطانية في مستقبل البلاد العربية، كما عينت الحكومة البريطانية السير مارك سايكس النائب البريطاني والمندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى، واجتمع المندوبان في القاهرة ودارت المفاوضات بينهما وقد أشرف عليها معتمد روسيا لتطبيق المباديء التي جاءت في المعاهدة الثلاثية. وفي شهر أيار/ مايو ١٩١٦ تم الاتفاق نهائياً بين المندوبين وفي ٩ منه أرسل السفير الفرنسي في لندن الكتاب التالي إلى السير إدوار غراي وزير الخارجية البريطانية:

أمرت أن أبلغكم أن الحكومة الفرنساوية قبلت الحدود التي رسمت على الخرائط الموقعة من جانب السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو ورضيت بالمباديء التي دارت عليها المفاوضات بينهما وهي تنتظر التوقيع على نصوص الاتفاقية المرسلة طيه.

المادة الأولى: ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سوريا) و(ب) (داخلية العراق)

المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولإنكلترا في منطقة (ب) حق الأولية في المشروعات والقروض المحلية وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولإنكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو بالمراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة الرابعة: تنال إنكلترا ما يأتي:

١ ـ ميناء حيفا وعكا.

٢ ـ يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها أن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً.

المادة الخامسة: تكون اسكندرونة ميناءً حراً للتجارة الامبراطورية البريطانية ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء ولا يرفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الإنكليزية عن طريق اسكندورنة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و(ب) أو صادرة منهما ولا تنشأ معاملات مختلفة (بالذات أو بالتبع) على أية سكة من سكك الحديد أو في أي ميناء من موانىء المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناءً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية ويكون نقل البضائع

الفرنسية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنكليزية في المنطقة السمراء سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) والمنطقة (ب) أو واردة إليها ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسية في أي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانىء في المناطق المذكورة.

المادة السادسة: لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) إلى ما بعد سامراء شمالاً إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة: يحق لبريطانيا العظمى أن تنشىء وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب) ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذراً فالحكومة الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره في طريق بربوره ـ أم قيس ـ ملقى ـ ايدار ـ غسطا مقابر قبل أن يصل إلى المنطقة (ب).

المادة الثامنة: تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و(ب) فلا تضاف أية علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع في الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة: من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضة في أي وقت للتنازل عن حقوقها ولا تعطي ما لها من حقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى سوى للدولة أو حلف الدول العربية دون أن توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

المادة العاشرة: تتفق الحكومتان الإنكليزية والفرنسية بصفتهما حاميتين للدولة العربية على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب أو تنشىء قاعدة بحرية في الجزر على ساحل البحر الأبيض المشرقي على أن هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة: تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعين حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة: من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان في الوسائل لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية.

وفي يوم ١٥ أيار/ مايو ١٩١٦ أرسل السير إدوارد غراي وزير الخارجية البريطانية إلى سفير فرنسا في لندن الكتاب الآتي:

لي الشرف أن أجيبكم على كتابكم المؤرخ في ٩ الجاري والخاص بإيجاد حكومة عربية. إني انتظر أن تعلموني مباشرة فيما إذا كان في إمكانكم إعطائي ضمانات معينة تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية في المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية في المناطق التي ستصير فيما بعد مناطق فرنسية أو في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسية وفقاً للقواعد الواردة في كتابكم وتفضلوا...

فرد عليه السفير الفرنسي في اليوم نفسه بالخطاب الآتي:

لقد أعربتم في كتابكم تاريخ اليوم عن رغبتكم قبل الرد على كتابي الخاص بمسألة تأليف حكومة عربية والمؤرخ في ٩ الجاري في الحصول على ما يضمن لكم دوام بقاء امتيازات وحقوق الملاحة وكذلك جميع الحقوق والامتيازات البريطانية في المؤسسات الدينية ومعاهد التعليم وفي المعاهد الصحية في المناطق التي تصير فيما بعد مناطق فرنسية أو في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسية ـ كما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا في المناطق التي تصير فيما بعد مناطق بريطانية، فلي الشرف أن أبلغ سعادتكم أن حكومة فرنسا مستعدة للمصادقة على جميع الامتيازات البريطانية المختلفة التي يرجع تاريخها إلى زمن معين قبل الحرب في المناطق التي تنسب إلى فرنسا في ما بعد أو في المناطق التي تعتمد على مجهوداتها أما فيما

يختص بالمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية فإنها ستظل كما في الماضي مستمرة على أداء مهمتها. وألفت نظركم في الوقت نفسه إلى أن هذا العهد لا يشمل الامتيازات الأجنبية أو ما يتعلق بالأمور العدلية والقضاء.

فرد عليه السر إدوارد غراي يوم ١٦ منه بالكتاب الآتي:

جواباً على خطابكم المؤرخ في ١٥ الجاري لي الشرف أن أبلغ سعادتكم أن قبول جميع هذه التكليفات والترتيبات بهيئتها الحالية مما يوجب إهمال المنافع البريطانية العظيمة غير أنه لما كانت حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ترجو الفوائد العميمة لمصالح الحلفاء عامة بإحداث حالة سياسية داخلية مساعدة في تركيا فقد استعدت لقبول المواد المتفق عليها لضمان اشتراك العرب في الحرب ولكي يقوموا بواجب التحالف فيحتلوا حلب وحماه حمص ودمشق فقد حصل التفاهم بين إنكلترا وفرنسا فيما يتعلق بالشروط الواردة في كتابكم المؤرخ في ٩ الجاري.

ثم أدرج في الكتاب نص مواد المعاهدة بكاملها.

لقد ابتدأت المخابرات بين الحلفاء منذ انقطاع العلاقات بينهم وبين تركيا وكان ذلك باقتراح من الحكومة الفرنسية بموجب البرقية المرسلة بتاريخ ٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ والمرقمة ٥٧٢ من السفير الروسي في باريس (آب ايزوفسكي) إلى وزير خارجية روسيا (سازانوف) يخبره فيها بأن وزير الخارجية الفرنسية قال له بمناسبة قطع العلاقات مع تركيا إنه يتمنى تنظيم اتفاق ما بين بترغراد وباريس ولوندره بما يتعلق بالامبراطورية العثمانية بسبب تعقد منافع الدول الأوروبية فيها.

وبعد نحو أربعة أشهر أي في ٢٨ شباط ١٩١٥ أرسل وزير الخارجية الروسية برقية برقم ٨٥٠ إلى سفيريه في باريس ولوندره يخبرهما أنه اتفق مع كل من سفيري بريطانيا وفرنسا على أن الحلفاء سوف لا يقبلون إجراء أي صلح قبل أن تلقي ألمانيا واستريا والمجر سلاحهم غير أنهم يوافقون على الهدنة معها (أي مع تركيا) بموجب شروط (ذكرها: تسليم المراكب

الألمانية، تسليم ما بخدمتها من الألمان. تجريد المضايق من السلاح، دخول أسطول الحلفاء للآستانة، تسليم المواقع المستحكمة) فأجابه السفير الروسي في باريس في ١ مارس ١٩١٥ أن وزير خارجية فرنسا قال له: إنه إذا ما دخل الحلفاء إلى الآستانة فمن المحتمل أن لا يجدوا فيها حكومة وإن الحلفاء سيحتلون الآستانة وجوارها، وفي هذه الحالة تكون تركيا قد خرجت من ممتلكاتها في أوروبا نهائياً وتكون ممتلكاتها في آسيا قد بقيت دون تعيين مصيرها إلى أن قال له: فيجب أن يُتفق بصورة مسبقة على هذه المسائل. أما السفير الروسي في لوندره فأجابه بتاريخ ٣ مارس ١٩١٥ بكتاب مطول خلاصته أنه استلم أمس كتاباً خصوصياً من السير إدوارد غراي فهم منه ومن مكالماته معه أن إنكلترا قد غيرت سياستها السابقة وقد أصبح يرى أنه ليس من الطبيعي أن تبقى امبراطورية عظيمة مثل روسيا دون مخرج على البحر وأن هذه المسألة يجب أن تحل بالنسبة لمنافعهم السياسية والاقتصادية وقال له غراي: إن الإنكليز الذين كانوا يقولون باستحالة إعطاء الآستانة إلى الروس قد أصبح عددهم قليلاً جداً ولكن يجب أن يؤخذ رأي فرنسا قبل إعطاء أي قرار بهذا الخصوص إلخ... وعلى هذه الصورة ابتدأت المخابرات بين الحكومات الثلاث ثم أدخلوا فيها اليونان لإشراكها معهم في الحرب مقابل إعطائها أزمير ثم أعلموا بالأمر إيطاليا لفصلها عن ألمانيا مقابل إعطائها أضاليا؛ وقد دامت هذه المخابرات نحو ستة عشر شهراً ابتدأت بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٤ وانتهت بتوقيعها في ٤ مارس ١٩١٦. وقبل توقيع هذه الاتفاقية بنحو أربعة أشهر أي في ٩ تشرين الثاني ١٩١٥ تشكلت لجنة من الفرنسي جورج بيكو والإنكليزي السر مارك سايكس وبحضور مندوب روسي للاتفاق على ما يخص الدولتين الإنكليزية والفرنسية من تلك القسمة، وفي ١٦ مايس سنة ١٩١٦ تم الاتفاق عليها ووقعت وسميت

باتفاقية (سايكس ـ بيكو) كما بيّنا ذلك مع نص الاتفاقية في الفقرات السابقة؛ وأثناء هذه المحادثات ظهر في ميدانها حادث يتعلق بالوطن العربي ألا وهو ميل جمال باشا للوقوف بوجه الحكومة العثمانية وانفصاله عنها بتشكيل سلطنة تحت رئاسته في آسيا الصغرى والبلاد العربية وبتنازله عن الآستانة والمضايق وبدأت المخابرات بين الحلفاء الثلاثة بالكتاب الذي أرسله وزير خارجية روسيا سازانوف بتاريخ ٢٥ تشرين أول ١٩١٥ رقم ٦٣٩١ إلى سفراء الروس في باريس وروما ولوندره وهو يعلمهم أن الأخبار الواردة لهم من الدوائر الأمنية تفيد أن جمال باشا يرغب في القيام بحركة عداء لحكومة استانبول إذا حققت له الاعتراف بسلطنة يترأسها وتكون في أعقابه تتألف من سوريا، فلسطين، العراق، عربستان، كليكية، أرمينية، وكردستان، على أن يتعهد الحلفاء بمده بالمال والسلاح إلى نهاية الحرب، وبمقابل ذلك يرضى بترك المضايق والآستانة للحلفاء ويترك الطريق مفتوحاً لمعاونة الأرمن. ولكن الفرنسيين عارضوا ذلك لأن هذا المشروع لا يحقق سوى مطامع الروس ويقضي على مطامعهم في سوريا. كما أن الإنكليز عارضوه للسبب نفسه وأضافوا إليه أنهم لا يعتقدون بأهمية ما لديه من القوة وأن العرب الذين تجري معهم مفاوضات هم أقدر على الإفادة منه وبذلك فشلت هذه القضية.

وأيضاً أثناء ذلك كانت تجرى مفاوضات أخرى تتعلق بالوطن العربي وهي إعطاء اليهود حقوقاً في فلسطين وقد توصلوا إلى ذلك بحصولهم على اعتراف الحلفاء لهم بتأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين وبما سمي بوعد بلفور الذي وقع في ٢ تشرين ثاني ١٩١٧ والذي سنتكلم عنه في مناسبته.

٦

الثورة كانت ستبدأ في دمشق

يذكر القارىء فيما بيناه أنفاً أن الإنكليز بدأوا بمفاوضة الحسين عن طريق ابنه الأمير عبدالله في أواخر شهر آب سنة ١٩١٥ فلم يحظوا منه بجواب، وفي شهر تشرين ثاني وعقب دخول الأتراك الحرب أعادوا الكرة فجاوبهم عبدالله على لسان أبيه أن والده لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل استشارة العرب وأخذ رأيهم وعقب ذلك أرسل ابنه فيصل إلى الآستانة ودمشق للاتصال برجال الدولة من جهة، والاتصال برجالات العرب والوقوف على أفكارهم من جهة ثانية. فعاد فيصل إلى مكة فعقد الحسين في شهر تشرين أول سنة ١٩١٥ مؤتمراً في الطائف مع أولاده واستمعوا إلى ما شرحه لهم فيصل عن موقف الأتراك وتعنتهم واستمرارهم في التنكيل بالعرب، وإعدام رجالهم واجتماعاته برجالات العرب وتحريضهم له على الثورة لإنقاذ العرب فقرروا في هذا المؤتمر إعلان الثورة على أساس استقلال العرب بالاتفاق مع الإنكليز. كما تقرر أن يعود فيصل إلى دمشق ليبقى متصلاً برجال العرب لأن الفكرة المقررة كانت أن تبدأ الثورة في سوريا وتتبعها الحجاز والبلاد العربية الأخرى.

وكان ممن اتصل بهم في دمشق الدكتور أحمد قدري معتمد جمعية الفتاة والدكتور عبدالرحمن الشهبندر ومحمد الشريقي

وياسين الهاشمي (رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر يومئذ) والفريق علي رضا الركابي وأفهموه أنهم مستعدون للعمل ولإضرام ثورة عربية في سوريا لأنهم أصبحوا واثقين من أن البلاد أصبحت معرضة لاحتلال أجنبي؛ وزار ياسين الهاشمي في أحد الليالي ومكث لديه مدة طويلة أفهمه خلالها أنهم ليسوا بحاجة إلى أي معونة من الإنكليز فلديهم كل شيء ولا يريدون سوى أن يكون فيصل على رأس الثورة في سوريا. فسر فيصل من هذه الاجتماعات وقنع أن في سوريا إمكانات ورجالاً وحياة ومنح جمعية الفتاة ألف ليرة ذهباً فدب فيها النشاط وبدأت تتصل بمشايخ القبائل فدخل فيها نواف ابن نوري الشعلان شيخ الروله ونسيب الأطرش من كبار شيوخ الدروز وفرحان الميدا شيخ مدائن صالح وأبو سليم فرحان المغوش شيخ قرية خلخلة وغيرهم الكثير من ذوي النفوذ والمكانة على اختلاف الطبقات. وذكر فيصل في تقرير أرسله لوالده أن الوضع المحلي في سوريا حسن فقد كانت في دمشق ثلاث فرق مستعدة لإعلان الثورة وكان في حلب فرقتان فيهما الكثير من الوطنيين مستعدين للانضمام إلى الثورة متى بدأت. ولم يكن في تلك الآونة للأتراك سوى فرقة واحدة كثرتها من الأتراك ولذلك كان من المؤكد أن يستولي الثوار على سوريا بسهولة، ولكن من جهة ثانية كان الرأي العام أقل استعداداً لمثل هذه الأعمال المتطرفة وكان المنتظر أن يقوم الحلفاء بعملية إنزال في ميناء الاسكندرون، الأمر الذي كان يشجع على قيام الثورة في سوريا ويحقق نجاحها، ولكنهم عوضاً عن ذلك أنزلوا جنودهم في الدردنيل لا في الاسكندرون فذهب فيصل إلى الآستانة ليقف بنفسه على أحدث الأخبار وكان الوضع يؤكد أن انكسار الأتراك في الدردنيل يكون إشارة لقيام ثورة العرب في سوريا ولكن معركة الدردنيل ورغم أن الإنكليز لم يوفقوا باقتحام الدردنيل إلا أن الأتراك فقدوا خيرة جنودهم فيه

وكانت كارثتهم عظيمة حتى أن فيصل عاد إلى سوريا وهو يعتقد أن الوقت قد أصبح مناسباً ليضرب ضربته؛ غير أنه وجد أن الوضع المحلي تبدل ولم يعد ملائماً. لقد وجد أنصاره من رجالات البلاد العاملين في ظروف مختلفة فمنهم من أوقف ومنهم من أرسل إلى جهات أخرى بعيدة والقطعات العسكرية العربية قد ووزعت بين الفرق التركية، ووجد أكثر الشباب قد أصبح في قبضة الخدمة العسكرية وسوريا تقاسي الأمرين تحت ضغط جمال باشا القاسي فخابت آماله وكتب إلى والده ينصح له بتأخير الثورة حتى تصبح الظروف ملائمة أكثر. وكانت إنكلترا في ذلك الحين في موقع حرج فقد كانت جيوشها تنسحب من الدردنيل منهزمة وكان الجيش الإنكليزي المحصور في كوت الإمارة جهة العراق في نزاعه البطيء نحو الاستسلام وثورة السنوسي تدق أبواب مصر وتهدد بفتح ميدان جديد.

وفي كانون أول سنة ١٩١٥ عاد فيصل إلى مكة ومعه ختما رضا الركابي والشيخ بدر الدين الحسن كبير علماء دمشق علامة موافقتهما على إعلان الثورة، وعرض فيصل على والده ما سمعه من أقوال وما شاهده من أمور وأحوال. وعقد الحسين مؤتمراً ثانياً مع أولاده في الطائف قرر فيه إشعال نار الثورة في الحجاز بعد أن يتمموا مفاوضاتهم مع الإنكليز وأن يعود فيصل إلى دمشق ليكون على صلة مع من بقي من رجال الحركة العربية، فوصل دمشق في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦ ومعه خمسون فارساً بقيادة الشريف ناصر ابن علي كبير أشراف المدينة فنزلوا في قرية القابون قرب دمشق ونزل فيصل بضيافة آل البكري وثابر على اتصالاته برجالات البلاد وفي شهر شباط وصل إلى دمشق أنور باشا ثم سافر وبرفقته جمال وفيصل إلى المدينة وأظهر رغبة بملاقاة الحسين في المدينة، ولكن الحسين أبى ذلك واعتذر وعاد فيصل معهما إلى دمشق. وفي شهر مارس أرسل

الشريف حسين إلى الصدر الأعظم سعيد باشا البرقية الآتية:

«إن خروج الدولة العثمانية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم وتأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها. ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي:

١ ـ إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين.

٢ ـ انالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزي.

٣ ـ جعل إمارة مكة وراثية في أولادي وإبقائها على حالتها الحاضرة.

فإذا قبلت هذه المطالب فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين وإذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا مني شيئاً سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق.

فردّ عليه سعيد باشا بالبرقية الآتية:

وصلتنا برقيتكم الهاشمية القائلة ان إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالباً، ولما كان طلب إعلان عفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية في سوريا واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم خارجاً عن اختصاص سيادتكم. فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء. وإني أبلغكم أنه لا بد من أن ينال الموقوفون عقابهم كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل في الحجاز على ما كانت عليه وكما هي في جميع الممالك الشاهانية وأوصيكم ملحاً أن تستدعوا ولدكم علياً الموجود في المدينة إلى مكة فوراً وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم إلى دمشق ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك وبديهي أنه سيظل ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب. والأمر لمن له الأمر سيدي.

فأرسل الشريف الرد الآتي:

لقد أرسلت نجلي فيصلاً إلى دمشق اعتماداً على شرف الدولة ولست أرجو أن يعود إلي الآن على أن سوق المتطوعة إلى دمشق يتوقف على وصوله إلى المدينة ورؤية هؤلاء له وسيدعى نجلي علي إلى مكة قريباً.

يلاحظ من كتاب سعيد باشا الشدة والحزم كما يلاحظ من كتاب الحسين الضعف.

أما الحقيقة فهي خلاف ذلك تماماً ان كتاب الصدر الأعظم كان عين الحماقة والرعونة وعدم التبصر بحقائق الواقع وكتاب الحسين على اقتضابه فيه كل التبصر واللين وحسن التصرف والحيلة.

وإذا تمعنا بنتائج الأحداث التي انتهت بانفصال البلاد العربية عن المملكة العثمانية بل ضياع الخلافة الإسلامية نهائياً نجد أنها ابتدأت بهاتين البرقيتين التاريخيتين، كما أن العلاقات العربية ـ التركية التي دامت أكثر من أربعة قرون انتهت بهما، ولو أن سعيد باشا كان يعلم ما سيكون لبرقيته هذه من شأن في تقرير مصيره ومصير دولته لتفكر كثيراً قبل إرسالها. والخلاصة أن هاتين البرقيتين كانتا بمثابة المعركة الفاصلة للمعارك التي كانت تدور بين الأمتين التركية والعربية وانتهت بانتصار العرب.

ويلاحظ القارىء أن تحايل الحسين بطلبه إرسال فيصل إلى المدينة ليعود على رأس المتطوعة إلى دمشق واضح كل الوضوح ولكن على ما يظهر أنه لم تتفتق أمام الترك طريقة أخرى أو انهم انخدعوا بها؛ وعلى كل حال فقد سمحوا لفيصل بالشخوص إلى المدينة للعودة بالمتطوعين وأرفقوه بوفد تحت رئاسته أعضاؤه كاظم بك مفتش المنزل، واصف بك المستشار

العدلي للجيش، نسيب البكري والشيخ عبدالقادر الخطيب.

تحرك الوفد بالسكة الحديدية في منتصف شهر مايو سنة ١٩١٦ (أي بعد إعدام الرعيل الثاني في دمشق بنحو عشرة أيام) وفيصل يكاد يطير فرحاً لأنه أفلت من القفص ونجا من الترك، وعقب ذلك وصل إلى المدينة فخري باشا ليتولى قيادة الجيش فيها. وغداة وصول الوفد إلى المدينة قابل أحد أعضائه (آصف بك) الأمير فيصل في الحرم النبوي وأسر له وهو يبكي بقوله: إذا كنت تستطيع أن تنجو بنفسك فانج ولا تعد إلى دمشق فهم يضمرون لك الشر وإني أقول ذلك كرامة لجدك الراقد في هذه الروضة. وكان في المدينة ثلاثة آلاف جندي عززوا بعد وصول فخري باشا بحجة إرسالهم إلى اليمن مما زاد في مخاوف الحسين وعجل في الثورة. واعتذر فيصل لرجال الوفد الذين جاءوا معه من دمشق بمشاغل ضرورية تحمله على البقاء بضعة أيام في المدينة، فعاد الوفد وبينهم نسيب البكري الذي اتفق مع الأمير سراً أنه إذا تقررت الثورة أن يرسل إليه برقية تقول: (أرسلوا الفرس الشقراء) عندها يعمل لفرار الخمسين هجاناً الذين بقيادة الشريف ناصر ويرافقهم إلى المدينة. وفي الأسبوع الأخير من شهر مايو ١٩١٦ وصلته تلك البرقية، في منتصف تلك الليلة غادرها إلى الحجاز وانضم إليهم في هذه الرحلة خالد الحكيم وبعد يومين علم جمال باشا بذلك فأمر بمطاردتهم ولكنهم لم يقفوا لهم على أثر.

الفصل الثاني

١

وقائع الثورة

كيف بدأت الثورة

في أول يوم من حزيران ١٩١٦ غادر الأمير علي المدينة إلى سيدنا حمزة بالقرب من المدينة المنورة حيث معسكر المتطوعة بعد أن ودع فخري باشا وبصري باشا على أن يقضي ليلته في سيدنا حمزة ويسافر في الصباح ورافقه أخوه فيصل لوداعه. فقضيا ليلتهما هناك وفي صباح ٢ حزيران كتبا كتاباً مشتركاً إلى فخري باشا وبصري باشا وأرسلاه مع مرافق الأمير علي وهو ضابط تركي وقالا في الكتاب:

> إن المطالب العربية المعتدلة قد رفضت من جانب الدولة العثمانية وبما أن الجند الذي تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحي لغير مسألة العرب والإسلام فإذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالاً فلا لزوم لبيان قطع علاقاته بين الأمة العربية والأمة التركية وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين.

وركبا على الفور مع حاشيتهما و٢٠٠ هجان حتى بلغا الخانق وفي صباح يوم ٣ حزيران عادا إلى بيار علي قرب المدينة وأرسلا الرسل إلى القبائل يدعونها لموافاتهم. ولم ينقض

أسبوع حتى وافاهما نحو ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ مقاتل. وأول ما فعلاه هو مهاجمتهما سكة الحديد بين المدينة ومحطة المحيط. وفي ٩ حزيران دارت أول معركة بين العرب والأتراك الذين خرجوا لقتالهم وفي ثاني يوم عاد العرب لمهاجمة محطة المحيط أيضاً وخرج لهم فخري باشا بنفسه واستمر القتال حتى الظهر ورجع العرب لنفاد عتادهم حتى بئر الماشي ومنها رجعوا إلى الغدير، وهناك افترق الأميران فذهب فيصل إلى جهة ينبع وبقي علي في بئر الماشي وأخذا يستعدان للنضال، هذا والثورة لم تعلن بعد بصورة رسمية.

أما الطائف فكان الموكل بها الأمير عبداللّه وكان يستعد لها سراً من قبل، وقد عقد المواثيق مع قبائل عتيبة وثقيف وهذيل وسبيع، وبني الحارث. وكان الوالي غالب باشا وكبار القواد يصطافون في الطائف وكان عدد من كان فيها من الجنود نحو ألفي جندي. وكان قائد الفرقة الأميرالاي أحمد بك والبن باش أحمد بك يرون إلقاء القبض على الأمير عبداللّه الذي جاء الطائف بحجة تأديب قبيلة البقوم العاصية ولكن الوالي أبى عليهم ذلك. وفي يوم ٨ شعبان ودع الأميرالاي الوالي في دائرته وفي الساعة الثانية بعد الظهر غادر الأمير الطائف مع رجاله متجهاً نحو الشرق، وعندما أصبح خارج المدينة أمر بتقطيع أسلاك البرق والتلفون ثم هاجم الترك في المساء.

ويلاحظ هنا أن الأميرين علي وفيصل أعلنا لفخري باشا خروجهما عن الطاعة في كتابهما المؤرخ في ٢ حزيران وأن الأمير عبداللّه أعلن خروجه بتخريب خطوط المخابرات في ٨ شعبان الموافق ٩ حزيران ١٩١٦ ومن المفروض أن والي المدينة وفخري باشا كان يجب عليهما أن يخبرا والي مكة وقائدها بأمر خروج الأميرين عن الطاعة ليتخذ الاجراءات السريعة في مكة والطائف وجدة، ولكن على ما يظهر أن وسائل المخابرة بين مكة

والمدينة كانت مقطوعة مع العلم أنـه لم يكن في الجيش التركي مخابرات لاسلكية.

وفي ٩ شعبان سنة ١٣٣٣ الموافق في ١٠ حزيران ١٩١٦ أعلن الحسين الثورة رسمياً وذلك بإطلاقه طلقة من بندقيته من نافذة غرفته، وقـد سمعت هذه القصـة يحدثنـا بها الحسـين في تلك الغرفة بحضور الشريف ناصر بن عـلي عندمـا وصلنا مكـة من القاهرة، وقد رأينا آثار طلقات البنادق وإحدى قنابل المدفعية في النافذة وجـدران الغرفـة. وكانت طلقـة الحسين هـذه الإشارة المتفق عليها لبدء الهجوم على ثكنـات مكة العسكـرية من قبـل حشد من العرب لهذه الغاية قبل الفجـر. واستمر من كـانوا في هذه الثكنات في الدفاع عن مواقعهم، ومن هذه الثكنـات ما هـو مسيطر على أكثرية مساكن البلد والحرم الشريف.

وحدثنا جلالته كيف أنهم باغتوا جند ثكنة جرول أثناء وجودهم في ميدان التعليم والجنود دون ذخيرة، وكيف أن قائـدهم المقدم درويش بك خابر جلالته بالتلفون يطلب الاستسلام وأن جلالته أرسـل الشريف محسن لأجل استـلامهم، ولكن القـائـد خـدع الشريف محسن بحجة دخول الثكنة لتسليمها وتسليم المهمـات وتمركز فيها، وكان عـلى وشك احتجـاز الشريف محسن لولا أن أحـد الضباط العـرب نبّهه فـاحسن التخلص. وبهذه الخـدعة تمكنت الثكنة المذكورة من الدفاع ما يقـرب من شهر، كمـا أن الأتراك قامـوا برمي البلـدة بمدافعهم حتى انهم رمـوا قنبلتين على الكعبة وقعت إحـداهما فـوق الحجر الأسـود بمتر ونصف والثانية تبعد عنه ثلاثة أمتار كما سببتا بالتهـاب ستار الكعبـة فهجم الخلق لإطفـائـه وهم ينـادون اللّـه أكبـر مـالئـين الجـو بالصياح والضجيـج والنحيب مما اضطـرهم لفتح بـاب البيت والصعـود إلى السطح حتى تمكنـوا من إطفـاء الحـريق وأنهم أطلقوا قنبلة ثالثة على بيت إبراهيم وعـلى عدة مسـاجد أخـرى

وقد قتلوا عدة أشخاص في ساحة الحرم برصاص بنادقهم أثناء قيام الناس بأداء الصلاة حتى تعذرت العبادة فيه.

وفي صباح يوم ١٠ حزيران أي في الساعة نفسها التي أعلن فيها الحسين الثورة هاجم الشريف محسن ابن أحمد منصور شيخ قبائل حرب جدة على رأس أربعة آلاف مقاتل (وقبائل حرب هي أكبر قبائل الحجاز) فتحصنت حامية جدة في الثكنات التي في شمالها وجنوبها وحاصرتها القوات العربية، وفي ١٣ منه اشتركت ثلاث سفن بريطانية وهي (دفر، فوكس وهاردنج) في قصف الثكنات، وفي ١٤ منه ألقت طائرتان بريطانيتان منشوراً على القوات التركية تهددهم فيه بالتسليم لقوات الشريف، وفي ١٦ منه استسلمت حامية جدة وهي أول القوات التي استسلمت في الحجاز وكان مجموع من أسر منهم ٢٠ ضابطاً ١٣٢٦ جندياً ١٠ مدافع ميدان، ٤ مدافع جبلية، ٤ رشاشات. فنقلت هذه إلى مكة واستعملت في رمي الجيش المتحصن في ثكناتها، وفي ٤ تموز استولوا على قلعة جياد وهي المسيطرة على مكة. وفي ٩ منه استسلمت ثكنة جرول وكان مجموع ما استولي عليه من حامية مكة هو ٢٨ ضابطاً و٩٠٠ جندي و٣ مدافع. وفي ١٥ آب استولى العرب على ثغر (الليث) على ساحل البحر الأحمر بين الحجاز واليمن ثم استولوا على أم لج.

وفي ٢٢ أيلول أي بعد حصار دام ثلاثة أشهر واثني عشر يوماً استسلمت الطائف مع الوالي وجميع الضباط والجنود وكان مجموعهم ٧٦ ضابطاً و١٩٨٢ جندياً و١١ مدفعاً وكميات كبيرة من الذخائر والأسلحة.

وفي ٢٧ حزيران ١٩١٦ أي بعد استسلام حامية جدة بأحد عشر يوماً وصل إلى جدة ولسن باشا حاكم بور سودان (الكولونيل ولسن) مندوباً من قبل السردار في السودان (مندوب

الملك السير رجنلد ونجت) يحمل كتاباً منه إلى الشريف حسين يتضمن التهنئة بالنصر والاستقلال ويعرب عن إعجابه برجولته ويقول إنه أرسل مع هذه التحية قوة بسيطة من قبيل المساعدة مجهزة ببطارية ميدان وبطارية مكسيم وثلاثة آلاف بندقة وأن عدد القوة هو ٣٢٠ جندياً معهم ٢٤٠ دابة وهم جميعاً بقيادة اللواء السيد بك علي. وقد حاول الحسين كما يقال رفض السلاح ثم وافق على أن يرسل منها ٤ مدافع إلى رابغ ويبقى اثنان في جدة وأن تبقى مدافع المكسيم في بور سودان لحين الطلب. وهكذا عينت الحكومة البريطانية الجنرال ونجت حاكم السودان ليكون صلة الوصل العسكري للثورة كما عينت الكولونيل ولسن معتمداً لها في جدة.

أما ما حصل في المدينة المنورة بعد إعلان الثورة: فقد كنا ذكرنا كيفية خروج الأميرين علي وفيصل من المدينة وكتابهما إلى فخري باشا وجمعهما القبائل في أول معركة مع الأتراك في محطة المحيط ثم انسحاب الأمير فيصل إلى ينبع والأمير علي إلى بئر الماشي. وكان الشيخ حسين بيرك حاكم منطقة رابغ من ذوي النفوذ وصديق للأتراك وكان يضمر خصومة للاشراف حتي قيل إن الإنكليز بدأوا بمفاوضته للقيام ضد الأتراك قبل مفاوضتهم للحسين ولكنهم عدلوا عن ذلك عندما تأكدوا من ضآلة شأنه.

وقد أراد هذا الشيخ أن يقوم بعمل ضد الأميرين علي وفيصل فلم يفلح، حيث أوفد الحسين قوة بقيادة نجله زيد فدحرته وانتهى أمره. أراد فخري باشا سرعة القضاء على حركة الأميرين فزحف بقواته المرابطة في المدينة وجوارها على ينبع البحر، ولما علم الحسين بذلك وقد كانت الطائف قد استسلمت أرسل نجله الأمير عبداللّه مع قوة كافية نحو المدينة عن الطريق الشرقي أي شرقي المدينة بحيث أصبح خلف قوات

فخري باشا الزاحفة على ينبع مما اضطر فخري للعودة إلى المدينة والدفاع عنها. ثم انتقل الأمير عبدالله إلى وادي العيصى وعسكر فيه وجعل مقره هناك وسمي هذا الجيش بالجيش الشرقي. وعقب انسحاب فخري إلى المدينة تقدم الأمير علي بجيشه واحتل بئر درويش وجعله مقراً له وسمي جيشه بالجيش الجنوبي، وهذا الجيش هو الذي قام بحصار المدينة وبقي محاصراً لها إلى أن استسلمت ما بعد الهدنة بثلاثة أشهر. وأما فيصل فاحتل بجيشه الوجه.

كيف أعلن الاتفاق العربي ـ الإنكليزي

إن السيد طاهر العمري الموصلي مؤلف كتاب مقدرات العراق السياسية يشرح في كتابه الطريقة الغريبة التي أعلنت فيها الاتفاقية التي تقررت بين الحسين والإنكليز. والمؤلف ينقل هذا الخبر عن الضابط شريف الفاروقي العمري، وهذا الضابط على ما يظهر كان أول ضابط التحق في الثورة بل إنه كان متصلاً بالحسين قبل ذلك وأثناء ما كانت المفاوضات سائرة بينه وبين الإنكليز وكان على علم بها وانه التحق بجدة قبل قيام الثورة بقليل واشترك في محاصرة الأتراك في جدة ثم انتقل بما استولوا عليه من المدافع والرشاشات من جدة إلى مكة حيث اشترك بمحاصرة القوات التركية المحاصرة. ويذكر المؤلف الكيفية الغريبة التي أعلنت بها الاتفاقية فيقول: (وكان قد تقرر بعد انتهاء المفاوضات والمخابرات مع الإنكليز أن يبعث الإنكليز إلى سيادة الشريف بالجواب النهائي، الذي يجب أن يذكروا فيه ما يتعهدون للعرب به وإذا وافق عليه سيادته أخبر الإنكليز بموافقته فعندئذ تطلق إحدى البواخر الحربية البريطانية بضع طلقات مدفعية تشير بها إنكلترا إلى موافقتها وعلى أن الاتفاق قد تم بين الطرفين. فهذه الطلقات كانت هي الإشارة لإعلان التحالف البريطاني ـ العربي.

ففي أوائل شعبان سنة ١٣٣٤هـ وصلت باخرة إنكليزية إلى ينبع البحر تقل المستر كورنوالس والمرحوم شريف أفندي العمري الضابط المذكور وبضعة أشخاص، ولما وصلوا إلى المرفأ انزلت الباخرة قارباً أوفدت فيه بعض الوجهاء ليستدعوا أمير ينبع ويسلموه الأوراق الرسمية السرية الإنكليزية التي يجب إيصالها إلى سيادة الشريف حسين وأفهموه بوجوب تسريع أخذ الجواب من الشريف وإيصاله إلى الباخرة وعند موافقة الطرفين على شروط الاتفاقية يطلق بضع طلقات مدفعية من الباخرة إشارة إلى موافقة إنكلترا فيما اشترطه الشريف. ففي أوائل شعبان سنة ١٣٣٤هـ ورد جواب الموافقة من سيادة الشريف حسين فأطلقت الباخرة المدافع وبعد ذلك بثلاثة أيام نشبت الثورة الحجازية) وحسب ذلك فيكون الاتفاق النهائي قد أعلن بتاريخ ٦ شعبان وأعلنت الثورة في ٩ منه.

٢

العناصر التي تكونت منها الثورة

كان للثورة العربية عناصر استندت إليها للوصول إلى هدفها، فالعنصر الأول والأهم هو الذي أخذ على عاتقه هذه المسؤولية العظيمة الخطيرة الجريئة وهو أمير مكة الحسين ابن علي يعاونه أنجاله الأربعة علي وفيصل وزيد وعبدالله، كما ساعده وسانده فيها جميع الأشراف من آل هاشم ممن هم في مكة أو المدينة أو من رؤساء العشائر. كما سانده منذ قيامها جميع العشائر الحجازية باستثناء حسين بيرك حاكم منطقة رابغ وهذا قضي عليه من أول الحركة كما مر ذكره. ولم يكن حين قيام الثورة لدى الشريف حسين من المقاتلين سوى هذا العنصر البدوي. أما الحضر من أهالي الحجاز فمن طبيعة حياتهم ونشأتهم أنهم غير قابلين للقتال وفعلاً لم يشترك منهم في أعمال الثورة سوى عدد ضئيل بخدمات خارج خط القتال، حتى ان الحسين أسس في مكة مدرسة لتخريج ضباط وأدخل فيها بعض شباب مكة وبعد محاولات تعليمية لعدة أشهر أرسل منهم قسماً إلى الجيش الشمالي كضباط برتبة ملازم ولكنهم لم ينجحوا، ولو أن الثورة بقيت منحصرة بالبدو لما نجحت أيضاً ولما كانت وجدت من يتمكن من استعمال مدفع أو رشاشة في سبيل إجبار قلاع وثكنات مكة والطائف وجدة على التسليم ولكان بإمكان القطعات

التركية التي كانت محصورة فيها وفي المدينة بعد زوال دهشة المفاجأة والوقوف على حقيقة قابلية البدو بإمكانهم أن يخرجوا من أمكنتهم ويعيدوا السيطرة على جميع مدن الحجاز وحواليها.

وإنني لا أقصد بهذا أن أقلّل من قيمة البدو ومزاياهم الحربية وشجاعتهم، فإنني قد عاشرتهم وبقيت مدة غير قصيرة أزاملهم في الصحراء وفي الحروب، ولذلك فأنا إن ذكرت عنهم شيئاً إنما أذكره عن علم ومعرفة لا عن نقل أو استنتاج، لقد قصدت بما قلت أن البدوي مسلح ببندقية فقط وهو ذكي ومحترز يقدر أن البندقية وحدها لا يمكن أن تتغلب على المدفع أو الرشاش حتى ولا على الجندي القابع في خندق خلف الأسلاك الشائكة أو في بناء من حجر، ولذلك فهو إن قاتل تجاه مثل هذه المحلات إنما لا يتقرب منها بقصد الاستيلاء. أما قيام الجند بمثل هذه الأمور فله أسباب ليست متوفرة في البدوي وهي الممارسة والضبط المؤسس على الطاعة ووحدة العمل والتنظيم وهو الأمر الذي لا يتلاءم مع طبع البدوي وطراز حياته.

أما العنصر الثاني المهم في الثورة فهم الضباط والجنود العرب من عراقيين وسوريين فهؤلاء هم الذين مكنوا أساسات الثورة وقووا دعائمها وأضفوا عليها شكلها العسكري النظامي وجعلوها تقف أمام الجيش التركي موقف الند المتفوق بمعنوياته وإمكاناته، وهم الذين أعطوا الثورة قابلية النشاط والحركة الأدبية والمادية للسير خارج الجزيرة والصحراء وأرض الحجاز وبالتالي هم الذين أخرجوها من الإقليم الذي ظهرت فيه إلى شكلها القومي العربي الذي وصلت إليه. فعنصر الضباط هذا هو الذي اتصل مع فيصل وشجعه وأقنعه على الثورة قبل إقرارها، وفيصل هو الذي أوصل هذه القناعة إلى أبيه وجعله يتقبلها. وعلى ذلك، فإذا اعتبرنا أن الحسين

وأنجاله كانوا روح الثورة العربية، فإن الضباط كانوا سواعدها الفعالة الذين قاموا بإيصالها إلى ما وصلت إليه.

وجدير بنا في هذه المناسبة أن نوضح الأسباب التي مكنت عنصر الضباط من الالتحاق بالثورة والمساهمة فيها. لقد مر بنا في سياق حديثنا عن الجمعيات والأحزاب العربية السرية التي تشكلت عقب إعلان الدستور وجهر الاتحاديين بالفكرة الطورانية على أن من هذه الجمعيات ما كانت عسكرية شكلها الضباط وأن الأتراك شعروا بها، وخلال الحرب قاموا بتفريق الضباط العرب وتشتيتهم على قدر الإمكان وتوزيعهم في الأماكن النائية وفي مختلف جبهات القتال الأمر الذي نبه بعض هؤلاء الضباط إلى نوايا الأتراك الانتقامية مما سبب استئناف تفكيرهم القومي بعد جنوحهم إلى الهدنة خلال الحرب. وهكذا استؤنف الصراع بين الضباط العرب والأتراك بصورة مستترة خلف برقع شفاف من المجاملات والمظاهر الكاذبة. وقد كانت الكثرة من هؤلاء الضباط من الاحتياط أي من الشباب المتعلم الذين تم أخذهم للجيش بصورة ضابط احتياط، أي أنهم كانوا ممن رافق نشأة الوعي القومي منذ إعلان الدستور وبدء الصراع مع الأتراك منذ ٥ ـ ٧ سنوات. لقد كان الجيش العثماني موزعاً على ثلاث جبهات رئيسية هي: الدردنيل وفلسطين والعراق. وان الأسرى الذين يأخذهم الإنكليز يرسلون إلى معسكرات الأسر في مصر بالنسبة لجبهتي فلسطين والدردنيل وإلى الهند بالنسبة لأسرى العراق. وهناك في معسكرات الأسر البعيدة عن سيطرة الأتراك وسيف النقمة أصبح الجميع سواسية فأغمدت السيوف وسلت الألسن وبدأ بين ضباط الأتراك والعرب صراع قومي يتأجج من خلال ما ارتكب من أفعال. إنني لم أكن في إحدى هذه المعسكرات ولكنني أنقل ما حصل فيها عن زملائي ضباط الثورة الذين

التحقوا بها وهم الأكثرية الساحقة، وقد كانت أحاديثهم كثيرة ومتنوعة عما كان يدور في هذه المعسكرات من صراع حتى أن جميع معسكرات الأسر في الهند ومصر كانت داخلياً منقسمة إلى معسكرين: ترك وعرب، وجميع هؤلاء الشباب الذين لم يكن لديهم عمل يقومون به لصرف نشاطهم سوى التصارع بين فئتي الترك والعرب حتى انه في كثير من الأوقات وصل الصراع إلى درجة الاقتتال. كان في الجبهتين من كان لا يهتم قبل دخوله إلى معسكر الأسر بالمسائل القومية ولكن بعد أن أصبح المعسكر على ذلك الانقسام انحاز كل منهم إلى أبناء قومه وبدأ يشعر بما يشعرون به إلا القليل ممن تغلبت عليهم الفكرة العثمانية. وكان في هذه المعسكرات من ينتسب إلى قوميات أخرى كالأكراد والشركس وغيرهم فكان منهم من ينحاز إلى هذا المعسكر ومنهم لذاك، ولكن على العموم فقد كان الأكراد ينحازون إلى العرب. وأما الشركس ومشتقاتهم فكانوا ينحازون إلى الترك. وقد كان الإنكليز وهم أمراء هذه المعسكرات ومديروها مسرورين من هذا الصراع بل يشجعونه ويؤججون ناره للحد الذي لا يصل إلى الإخلال بضبط المعسكر، وبصورة عامة كانوا يلتزمون جانب العرب خصوصاً بعد إعلان الثورة العربية. ما كادت الثورة تخطو خطواتها الأولى حتى شعر القائمون عليها من العرب والإنكليز بحاجتها إلى جيش نظامي ولم يكن أمامهم لتحقيق هذه الحاجة إلا الضباط والجنود الموجودون في معسكرات الأسر. وبدأت الدعاية من قبل من ذهبوا لهذه الغاية من الوطنيين الذين في مصر وفي مقدمتهم الدكتور عبدالرحمن شهبندر، إنما الوصول إلى إقناع الضباط ليس بالأمر السهل لأن الأتراك لا يزالون في البلاد وعائلات الضباط لا تزال تحت حكمهم ورحمتهم ويتقاضون رواتب من في الأسر وهم معرضون للانتقام، والجيش الألماني الذي تتوقف عليه آمال الأتراك لا يزال يتنقل من ظفر إلى ظفر فالتحاق

الضباط العرب في الثـورة أمر يحتـاج إلى مغامـرة لا بالشخص ومستقبله بل وبأهله وذويه. ومع ذلك فقد غامر من غـامر منهم وتشكـل من هؤلاء جيش الثـورة النظـامي الـذي قـام بجميـع مهامها. وهنا أرى من المفيد للمؤرخ الذي يعالج دقائق الأمـور أن أشرح لــه نقطـة لم تـوضـح من قبـل وهي كـون الضبـاط العراقيين كانوا يشكلون العدد الأكبر من ضباط الثورة، بالرغم من أن الثـورة قامت في الحجـاز التي هي أقـرب لسوريـا من العراق، والسبب في ذلك هو كون القسم الأكبر من العراق كـان عند قيام الثورة قد سقط بيـد الإنكليز ولم يعـد من خوف عـلى ذوي الضباط. كذلك توقفت الـرواتب عن الأسر التي في العراق الواقع تحت سلطة الإنكليز، فلا خوف من قطعهـا إذن. وأيضاً لم يكن بيد الأتراك، نتيجة لذلك، أن يحاكموا الملتحقين غيـابياً بالإعدام في مناطق لا يسيطرون عليها وقد ساعد زوال كـل هذه المحاذير الضباط العراقيين على الالتحاق بالثورة.

أمـا المنبع الثـاني لضباط الثـورة فهم الضباط الـذين أخـذوا أسرى من الجيش التـركي من قبل جيش الثـورة أثناء المعـارك التي جرت معه وقد كان عدد هؤلاء قليلاً جداً لأن الأتراك قلما كانوا يعينون في القطعات المرابطة في جبهـة الثورة ضبـاطاً من العـرب لعدم ثقتهم بهم. أمـا المنبع الثـالث فهو التحـاق بعض الضباط العرب مباشرة من الجيش التركي إلى جيش الثورة وقد كان هؤلاء أيضاً قلة بل نوادر، ولذلك عدة أسباب منها أن مثل هذا الالتحاق المباشر يعتبر التحـاقاً بـالعدو وخيـانة تستـوجب الحكم بالإعدام بصورة أوتومـاتيكية وسريعـة. وإذا صادف أن تعرقل أمر وصوله وألقي عليه القبض فإنه يعدم حالاً. كمـا أن أمر الالتحاق دونـه مصـاعب وأخطـار كثـيرة جـداً. وإذا وفق الملتحق وتجاوز جميع هذه المخاطـر، فإن الأتـراك ينتقمون من أهله حالاً كما وقع فعلاً معي ومع السيد سمير الرافعي عندمـا

أمر جمال باشا بتسفير والدينا إلى معان وشنقهما بها إذا لم نسلم نفسينا، ولكن نقل جمال باشا في تلك الأثناء غير الأمر واكتفى بابعادهما إلى الأناضول. ولذلك ان الالتحاق رأساً من الجيش التركي إلى جيش الثورة كان قليلاً وقد حاولت أن أحصي الملتحقين هؤلاء فلم أتذكر منهم أكثر من عشرة ولربما يزيدون على ذلك بعدد قليل وهم من العراقيين: نوري السعيد، بهجت القوري، مولود مخلص. ومن السوريين شوكت العائدي، سمير الرافعي، محمود الهندي، تحسين قدري، صبحي العمري، الدكتور أحمد قدري وسليمان صبحي العمري.

ويجب أن لا تفوتني المناسبة أن أذكر أن هناك من المدنيين من التحق بالثورة وعمل فيها ممن سنذكر فيما بعد.

بعد إعلان الثورة

بعد إعلان الثورة وبدء الهجوم على مواقع الأتراك في مكة وجدة والطائف والمدينة كان أول مساعدة قدمها الإنكليز هو قيام سفنهم وطائراتهم بقصف مواقع الأتراك في جدة الأمر الذي عجل في استسلامهم، ثم تعاقبت المساعدات من أسلحة وذخائر وأرزاق وأموال ولم تكن هذه المساعدات مرتبة ومنظمة بل حسب طلبات ارتجالية غير مدروسة. وكانت الأسلحة المرسلة من النوع الذي يخرجها الجيش من الاستعمال عادة بعد أن تبلى وتصبح غير صالحة. وأول ما لوحظ عقب قيام الثورة وحتى قبل استسلام أكثر مواقع الأتراك هو الحاجة إلى ضباط وعساكر نظاميين فطلب إلى الإنكليز أن يؤمنوا ذلك بعدد من الضباط العرب الذين كانوا في معسكرات الأسرى في مصر. وقد أوفد الحسين إلى مصر الضابط شريف الفاروقي الذي جاء ذكره وفي تاريخ ٣ رمضان أبحر متوجهاً إلى القاهرة ليكون معتمداً لدى نائب ملك بريطانيا وكلفه أن يسعى لدى

البريطانيين لتأمين تشويق وتطويع وسوق ما يمكن من الضباط والجنود. فبدأ في مسعاه فوراً، كما أرسل بواسطة الإنكليز بعض الرسائل إلى من يعرفهم من رفقائه في معسكرات الأسر في الهند. وكانت أول قافلة من هؤلاء المتطوعة ممن كانوا في معسكرات مصر ستمائة ضابط وجندي مشاة ومائة مدفعي بقيادة نوري السعيد، وهو ضابط من مواليد العراق ولد في بغداد سنة ١٨٨٨ أبوه سعيد أفندي كاتب محاسبة تخرج من الإعدادي العسكري في بغداد ودخل الحربية في استانبول وتخرج برتبة ملازم ثانٍ في سنة ١٩٠٦ ودخل مدرسة الأركان سنة ١٩١١ وفي هذه السنة تعرف على عزيز المصري ثم اشترك بحرب البلقان وبعدها عاد لمدرسة الأركان لإكمال تحصيله ثم اضطر للفرار من المدرسة لأسباب قومية وذهب إلى مصر ومنها إلى البصرة فالتجأ إلى طالب باشا النقيب، وعندما سمع بانفجار الثورة العربية التحق بها عن طريق مصر ثم تقلد رئاسة أركان الجيش الشمالي كما سيأتي بيان أعماله في سياق الأحاديث المقبلة.

وكان معهم بطارية مدافع ابوس وعدد من الرشاشات ومستشفى سيار وعدد من البغال للجر وحمل المدافع والرشاشات كما تطوع من معسكرات أسرى الهند أول قافلة متشكلة من ١١٠ ضباط و١٩ نائب ضابط و٢٦٠٠ جندي. وكذلك أرسل هذا المعتمد من مصر بعض الأطباء المدنيين والموظفين للقيام بالوظائف المدنية كالجمارك والبرق والبريد والأمور المالية وأرسل كذلك السيدين فؤاد الخطيب ومحيي الدين الخطيب للإشراف على تأسيس صحيفة باسم القبلة وكذلك وصل إلى مكة الضابط عزيز علي المصري وهو من مواليد مصر سنة ١٨٧٩ والده علي بك وهو ثري ينتمي بصلة إلى العائلة المالكة بمصر. درس في حربية استانبول وتخرج ضابطاً

ثم درس في الأركان. دخل جميعة الاتحاد والترقي اشترك في قمع عصابات اليونان، ثم في حركات الانقلاب العثماني وفي حرب البلقان وطرابلس الغرب واختلف هناك مع أنور باشا. عاد إلى استانبول وشكل جمعية العهد السرية التي دخل فيها الضباط العرب العاملون ومنهم نوري السعيد وترأس حركة الضباط العرب. وفي سنة ١٩١٤ ألقي عليه القبض بتهمة الخيانة عندما كان في اليمن وطرابلس الغرب لأنه كان يقول بتشكيل دولة عربية وأنه اختلس أموال الدفاع. حكم عليه بالإعدام فقامت الجالية العربية بالعمل لإنقاذه وكان أكبر الأثر في ذلك لمداخلة إنكلترا وهكذا أخلي سبيله وسافر إلى مصر. ثم عهد إليه بأمر تنظيم الجيش العربي وإدارته.

وأثناء ذلك كان قائد الجيش في المدينة فخري باشا يحاول عمل شيء للقضاء على الحركات التي كان أولاد الحسين الثلاثة يقومون بها لعزل قواته، وقد كانت مدن السواحل كينبع البحر والوجه لا تزال في يد الأتراك وقد وصلت الأخبار الموثوقة أن الأتراك عينوا الشريف حيدر مكان الشريف حسين وقد وصل دمشق وهو على وشك التوجه إلى المدينة. كل ذلك (والطائف لا تزال محاصرة لم تستسلم بعد). كل ذلك كان يشغل أفكار الحسين فيلح على الإنكليز بإرسال قوات نظامية من المسلمين لاحتلال ينبع والقيام بقطع الخط الحديدي وألح بصورة خاصة بطلب طائرات. وكان الإنكليز يصرون على التهرب من إرسال الجنود من مسلمي الجيش البريطاني لأسباب سياسية وصرحوا أن ذلك قد يجعل المسلمين في الهند يعتبرونه احتلالاً بريطانياً للأراضي المقدسة، الأمر الذي كان يخشاه الإنكليز. حتى انهم كانوا قد أرسلوا بعض الطائرات إلى رابغ ثم عادوا فسحبوها. وعقب استسلام الطائف وباقي مدن السواحل عول الحسين على إعلان ملوكيته واختار لنفسه لقب ملك العرب

وأوعز إلى مندوبه في القاهرة أن يجس نبض الإنكليز والفرنسيين حول هذا الأمر، وقد ترددوا في الموافقة على اللقب خوفاً من أن يشمل عدن واليمن والسعودية والمحميات وفلسطين بالنسبة للإنكليز، وبالنسبة للفرنسيين فقد خافوا أن يشمل ذلك تونس والجزائر والمغرب وسوريا بالرغم من أن مندوب الحسين وضح لهم أن القصد لن يشمل سائر العرب. وهكذا لم يعترف الحلفاء إلا بلقب ملك الحجاز.

وبعد أربعة أشهر من إعلان الثورة، أي عقب الاستيلاء على الطائف وباقي مدن الحجاز (عدا المدينة) أعلن الحسين بمنشور استقلال العرب وانفصالهم عن الأتراك، وبعد ذلك بشهر أي بعد خمسة أشهر من إعلان الثورة وبتاريخ ٦ محرم ١٣٣٥ الموافق ٣ كانون أول ١٩١٦ أعلن ملوكيته رسمياً في اجتماع كبير عقد لهذه الغاية في حرم مكة الشريف وجرت له المبايعة من قبل الشعب؛ وكان الشيخ رشيد رضا العالم الشهير وصاحب مجلة المنار حاضراً هذه البيعة فألقى خلالها خطاباً يعبر عن أفكار المشتغلين في القضية العربية وقد كان من أبرز وأنشط شخصياتها. وقد اعترفت خلال ذلك الوقت كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا بملوكية الحسين على الحجاز (ملك الحجاز) وبذلك أصبحت الحجاز دولة مستقلة معترفاً بكيانها. ولكن الحسين لم يفت في عضده عدم اعتراف الحلفاء بملكيته على العرب وبقي مثابراً على خطته باعتبار ما قام به ليس المقصد منه استقلال الحجاز بل استقلال العرب وضاعف اتصالاته برجالات العرب مع المثابرة على جمع الضباط والجنود من منسوبي الأقطار الأخرى لتوسيع وتقوية الجيش النظامي الذي أطلق عليه اسم الجيش العربي، ولم يدع لا هو ولا أولاده أية وسيلة يتسرب منها أدنى شك بأن هذه الثورة عربية تستهدف مصلحة العرب واستقلالهم. وفيما يلي أسماء

أول وزارة حجازية تشكلت بتاريخ ٧ محرم ١٣٣٥ الموافق ٤ كانون أول سنة ١٩١٦.

رئيس الوكلاء	الأمير علي ابن الحسين
قاضي القضاة ووكيل رئيس الوكلاء	الشيخ سراج
وكيل الخارجية ووكيل وكيل الداخلية	عبدالله بن الحسين
وكيل الداخلية	فيصل ابن الحسين
رئيس أركان حرب ووكيل رئاسة الجند	عزيز بن علي المصري
وكيل المعارف	الشيخ علي المالكي
وكيل المنافع العمومية	الشيخ يوسف بن سالم
وكيل الأوقاف مع نظارة أمور الحرم	الشيخ محمد أمين
وكيل المالية	الشيخ أحمد بن عبدالرحمن يناجه

وفي التاريخ نفسه أعلن الأمر بتشكيل مجلس الشيوخ من السادة التالية أسماؤهم:

الرئيس الشيخ محمد الشبيبي، والأعضاء: مفتي الشافعية السيد عبدالله بن محمد صالح الزواوي، مفتي المالكية الشيخ عابدين بن حسين، الشيخ عبدالقادر بن علي الشبيبي، ونائب الحرم السيد إبراهيم بن علي، وكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوي السقاف، الشيخ عبدالله علي رضا، الشيخ علي عبدالله الشرباصي، الشيخ أبو بكر بن محمد خويفير، الشريف حمزة الفعر، الشريف فتن بن محسن، الشريف سليمان بن أحمد بن سعيد، والشريف ناصر بن شكر.

تسلسل الوقائع حتى فتح العقبة

لقد بيّنا أعلاه الوقائع التي جرت قبل وبعد إعلان الثورة، وفيما يلي سأبيّن بإيجاز تسلسل باقي الوقائع وتشكيلات الجيش

النظامي والمواقع الحربية التي جرت في فتح العقبة والتحاقي في الثورة:

١ ـ بتاريخ ٢ حزيران ١٩١٦ أعلن الأميران علي وفيصل في كتابهما إلى فخري باشا في المدينة انفصالهما عن الترك وشق عصى الطاعة.

٢ ـ في ٩ حزيران دارت أول معركة بين العرب والأتراك يقود العرب الأميران علي وفيصل.

٣ ـ في ٨ شعبان ٩ حزيران ١٩١٦ خرج الأمير عبدالله من الطائف وقطع خطوط البرق والهاتف عنها وأعلن بذلك انشقاقه عن الأتراك.

٤ ـ في ٩ شعبان ١٣٣٣ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ أعلن الحسين رسمياً الثورة بإطلاق طلقة من بندقيته من نافذة غرفته بدار الإمارة في مكة. وفي الوقت نفسه بُدىء بمهاجمة الثكنات في مكة.

٥ ـ في ١٦ حزيران سلمت حامية جدة واستولي فيها على ٢٠ ضابطاً ١٣٢٦ جندياً و١٠ مدافع ميدان و٤ مدافع جبلية و٤ رشاشات.

٦ ـ في ٤ تموز ١٩١٦ استسلمت قلعة جياد في مكة وفي ٩ منه استسلمت قلعة جرول وكان مجموع ما استولي عليه من حامية مكة ٢٨ ضابطاً و٩٠٠ جندي و٣ مدافع.

٧ ـ وفي ١٥ آب استولي على ثغر الليث على ساحل البحر الأحمر بين الحجاز واليمن. ثم استولي على أم لج والقنفذة.

٨ ـ وفي ٢٧ تموز استولي على ثغري ينبع ورابغ على البحر الأحمر غرب المدينة.

٩ ـ وفي ٢٢ أيلول استسلمت حامية الطائف مع الوالي وقائد الفرقة ومجموع ما أخذ منها ٧٦ ضابطاً و١٩٨٢ جندياً و١١ مدفعاً وكميات كبيرة من الذخائر.

١٠ ـ في ٢٧ حزيران أي بعد استسلام جدة بأحد عشر يوماً وصل إليها ولسن باشا (الكولونيل ولسن) حاكم بور سودان مندوباً من قبل نائب الملك في بريطانيا السير (رجنلد ونجت) يحمل كتاب تهنئة إلى الحسين بالنصر والاستقلال ووصلت منه كمساعدة أولى بطارية ميدان، بطارية مكسيم و٣ آلاف بندقية مع ذخيرتها ومع هذه المعدات ٣٢٠ جندياً و٢٤١ دابة بقيادة الضابط المصري السيد بك.

١١ ـ وفي تموز غادر مصر إلى الحجاز ٦٠٠ ضابط وجندي بقيادة نوري السعيد ومعهم ٤ مدافع قوس وبطارية صحراء وبطارية جبلية وثمانية رشاشات و٤٠٠٠ بندقية ومستشفى سيار وانضموا إلى قوة الأمير علي في أطراف المدينة.

١٢ ـ ثم وصلت إلى جدة أول قافلة من المتطوعين من معسكرات الأسر في الهند وعددهم ١٠٠ ضابط و١٩ نائب ضابط و٢٦٠٠ جندي وقد أخبرني صديقي العقيد طاهر محمد عارف الذي كان ضمن هذه القافلة أن الباخرة التي كانت تحملها بعدما مرت من مضيق باب المندب اجتازت بهم ثغرة جدة متجهة إلى السويس ولما سألوا عن السبب (وكانوا يعرفون أنهم جاءوا إلى الحجاز وسينزلون في جدة) أجابوهم بأنهم سينزلون في السويس وأنهم سوف يرسلون بعد التدريب إلى جبهة غزة ليحاربوا هناك الأتراك باسم الشريف فثاروا وهددوا

بحرق السفينة إذا لم تعد بهم إلى جدة وقالوا للإنكليز إنهم تطوعوا للالتحاق بالجيش العربي لا الجيش الإنكليزي. مما أجبر الإنكليز على إنزالهم في ثغر جدة.

١٣ ـ وفي أواسط محرم ١٣٣٥ التحق القائد عزيز علي المصري بجيش الأمير علي في رابغ وعين رئيساً لأركان الجيش.

١٤ ـ في أواخر شهر أيار عززت قوة الأتراك في المدينة، بعد ما وصلها من الإمدادات ١٢ فوجاً نظامياً وفوج درك سيار وكتيبة هجانة وسرايا رشاش مع الصفوف الأخرى.

١٥ ـ في منتصف حزيران تعرض الجيش التركي للقوة المحاصرة له أي جيشي الأميرين علي وفيصل ولأنهما لم يكن لديهما الأسلحة والعتاد الكافي انسحب جيش فيصل إلى (الجفر) وجيش علي إلى غدير آبار الطفا.

١٦ ـ أرسل الإنكليز مفرزة مصرية من بطارية جبلية و٨ رشاشات إلى جيش الأمير علي في رابغ.

١٧ ـ في ٢١/٢٢ شوال وقعت معركة جنوب غربي المدينة بين الأتراك وجيش فيصل أدت إلى انسحاب الأتراك بعد أن خسروا ٢٥ قتيلاً و٥٠ جريحاً وأسر منهم ضابطان و٦٠ جندياً.

١٨ ـ في أواسط ذي القعدة ١٣٣٥ قام فخري باشا من المدينة بمعظم قواته متوجهاً نحو ينبع لضرب جيش فيصل الذي تراجع أمامه إلى ينبع البحر وهو يشاغله، وفي أوائل ذي الحجة تصادما وتراجع الجيش التركي نحو المدينة بغتة. ثم استأنف الهجوم ثانية في ١٤ ذي الحجة بثلاثة ألوية وكتيبة خيالة وفوجي مدفعية على (بئر عباس) واستردها من العرب واستمر في التقدم ولكن جيش فيصل قام

بهجوم مقابل مما اضطر الأتراك للانسحاب إلى بئر رائق.

١٩ ـ في ٣١ تشرين الأول ١٩١٦ الموافق ٣ محرم ١٣٣٥ قام جيش الأمير فيصل بحركة التفاف ليلاً وتعرض لمواقع المسيلة من الجناحين والجهة فانسحب الترك حتى بئر درويش.

٢٠ ـ في أوائل صفر ١٣٣٥ تمكن الشيخ أحمد البلوي من قادة جيش الأمير فيصل من قطع الخط بين العلا والوجه واستولى على قافلة من ٧٠ جملاً.

٢١ ـ في منتصف ربيع الأول ١٣٣٥ الموافق كانون ثاني ١٩١٧ جلب الإنكليز طائرات إلى رابغ مع فوج وبطارية مدفعية مصرية لوقت الحاجة دون أن يشتركوا في الحركات العسكرية.

٢٢ ـ في أوائل سنة ١٣٣٥ كان جيش الثورة مقسماً كالآتي:

أ ـ الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل ومقره في بئر درويش ووظيفته إشغال الجيش التركي إلى أن تتم تشكيلات الجيش العربي النظامي في رابغ.

ب ـ الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي مقره في رابغ.

ج ـ الجيش الشرقي بقيادة الأمير عبدالله مقره حوالى وادي العيص ووظيفته اشغال العدو من الشرق.

٢٣ ـ في منتصف الأول من العام ١٣٣٥ هاجمت مفرزة من جيش فيصل الأتراك في موقع الخرزة وهزمتهم وغنمت منهم ٦٣ بندقية وضابطاً و١٥ جندياً كأسرى.

٢٤ ـ وتقدمت سرية من جيش الأمير عبدالله إلى العوالي

وغنمت بعض الخيم والبنادق وضابطاً وثمانية جنود أسرى.

٢٥ ـ وفي ١٩ ـ ٢٠ ربيع أول أسرت قبائل الصواعدة من قوة الأمير زيد قافلة تركية بينها ضابط برتبة قائممقام ركن.

٢٦ ـ في ١٩ ربيع الأول ١٣٣٥ باغتت مفرزة من جيش الأمير عبدالله عصابة أشرف بك المشهور وقد كان يريد الذهاب إلى اليمن وكان معه عدة رسائل مهمة ومبلغ ٣٨ ألف دينار ذهباً. وأخذ من في العصابة كأسرى وكان مجموعهم ٣٥ شخصاً.

٢٧ ـ وفي ٢٢ ربيع أول ١٣٣٥ تحرك جيش الأمير علي الجنوبي ووصل موقع غدير أبو عوف وعسكر مقابل الأتراك فانسحبوا من أمامه وعسكروا بين الحزم وأبار علي.

٢٨ ـ في صباح ٢٧ ربيع الأول التحم الجيش الجنوبي مع الجيش التركي بالقرب من بئر الناعم وانهزم الأتراك شر هزيمة وطردوا من مواقعهم ولكن ما عتم أن رجع جيش الأمير علي إلى رابغ بناءً على اقتراح عزيز علي خوفاً من أن تتجمع جميع قطعات الأتراك التي في موقع المدينة وتضربه، وكان هذا الرأي السبب في كل ما حصل من قال وقيل بحق عزيز المصري وسوء قصده وعلاقته مع الأتراك مما أعقب الاستغناء عن خدماته وعودته إلى مصر وتولي نوري السعيد مكانه.

٢٩ ـ وعلى أثر تقدم الجيش الشمالي شمالاً نحو الوجه تقدم الجيشان الجنوبي والشرقي إلى حوالى بئر درويش وبئر عباس وبقيا يحاصران المدينة في تلك الأطراف حتى انتهاء الحرب.

٣٠ - وفي شهر ربيع الأول ١٣٣٥ كانت القوة النظامية في الجيوش الثلاثة قد أصبحت مدفعي جبل وسرية رشاش وفصيل بغالة في جيش الأمير فيصل الشمالي. ومدفعين جبليين فقط في جيش الأمير عبدالله الشرقي. وأما في جيش الأمير علي الذي اختير لتشكيل الجيش النظامي فكان فيه لواء مشاة من فوجين بقيادة المقدم توفيق الجندي وفوج رشاش من ٩ رشاشات بقيادة المقدم عبداللطيف نوري.

٣١ - أرسلت فرنسا منذ أوائل الثورة مفرزة مشكلة من مدفعين وأربعة رشاشات ومفرزة التخريب وبعد ذلك وحين وصول الجيش الشمالي إلى العقبة عززتهم بمدفعين آخرين. وكان القصد من هذه المفرزة كرمز سياسي لاشتراكهم في الحركات وأنها لم تؤد أية فائدة من وجودها بل كانت تتذرع بشتى الوسائل لعدم تقديم أية خدمة أثناء الحركات. وكانت هذه المفرزة بقيادة القائممقام قاضي والرئيس رحمو وهما ضابطان مغربيان والكابتن بيزاني وهو فرنسي ومن ٣٠ - ٤٠ جندياً مغربياً، وفي الحقيقة كانوا جميعهم بقيادة هذا الفرنسي الذي سأتكلم عن تصرفاته فيما بعد. التحقت هذه المفرزة بجيش الأمير علي في رابغ ثم انتقلت إلى العقبة مع جيش الأمير فيصل.

٣٢ - وكان من الأجانب الآخرين الكولونيل الإنكليزي باركر في جيش الأمير علي بصفته ضابط ارتباط ثم خلفه الكولونيل جويز والكابتن لورنس في جيش الأمير فيصل كمعتمد سياسي ثم التحق جويز أيضاً بالجيش الشمالي عندما انتقل إلى الوجه ثم إلى العقبة. وقد شكل الإنكليز مفرزة تخريب بإمرة الكولونيل نيكوب من نحو ٤٠ جندياً مصرياً

لتخريب السكة الحديدية والجسور. وكان في جيش الأمير عبدالله ضابط ارتباط بريطاني اسمه غارلف ولما وصل الجيش الشمالي إلى العقبة انتقل جميع هؤلاء إلى العقبة بمن فيهم المفرزة المصرية حيث بقيت في العقبة لنهاية الحرب دون أن تشترك في القتال حيث عادت إلى مصر عندما وقعت الهدنة.

٣٣ ـ وكان الجيش العربي في تموز ١٩١٧ في أقسامه الثلاثة كما يلي:

أ ـ الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل في الوجه يتحضر للزحف على الشمال.

ب ـ الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي مقره في بئر عباس وخصص لمحاصرة المدينة من الجهة الجنوبية.

ج ـ الجيش الشرقي بقيادة الأمير عبدالله مقره في وادي العيص وخصص لمحاصرة المدينة أيضاً.

وكانت هذه الجيوش ترسل مفارز لتخريب السكة الحديدية ومحطاتها وشن الغارات على مراكز الأتراك لإزعاجهم.

٣٤ ـ ففي ٢١ ربيع الأول ١٣٣٥ أرسل الأمير فيصل إلى والده تقريراً عن خطته التي ينوى اتباعها وبها يبين أنه سيعمل للاستيلاء على الوجه وثم على موقعي ضبا والمويلح اللذين في شمالها وبعدها لا يبقى أمامه سوى العقبة فيستولي عليها وبذلك يتصل بالجيش الإنكليزي، وطلب إلى والده في هذا التقرير مدّه بالمال والذخائر والجمال. وفي أواخر شهر ربيع الأول هاجم الأمير فيصل

بجيشه الوجه الذي كان فيه سرية مشاة فأسروا منها ثمانين جندياً وهرب الباقون إلى العلا بعد أن تركوا ٢٠ جندياً بين قتيل وجريح. وتمركز مقر الجيش الشمالي في الوجه اعتباراً من ٢٥ كانون ثاني ١٩١٧ وبدأ يشن الغارات على سكة الحديد ومحطاتها ويتصل بعشائر الشمال، وفي منتصف شهر شعبان التحق جعفر باشا العسكري بالجيش الشمالي وعين قائداً للجيش النظامي كما عين نوري السعيد رئيساً لأركان حربه. وانتقل من ينبع جميع من كان فيه من جنود وطائرات.

٣٥ ـ في أوائل شهر ربيع الثاني ١٣٣٥ أرسلت مفرزة من الجيش الشمالي فاستولت على موقعي ضبا والمويلح وأسرت ٤٠ جندياً وانهزم بقية الأتراك إلى تبوك.

٣٦ ـ في ١٣ مارس ١٩١٧ هاجمت سرية من الجيش الشمالي بقيادة الشريف ناصر بن علي محطة دار الحمراء فاستولت عليها وأسرت ١٥ جندياً وخربت ٢٥٠٠ متر من الخط ونسفت قطاراً.

٣٧ ـ وفي ١٦ منه هاجمت سرية من الجيش الجنوبي ممر الملي فقتلت ٥٠ هجاناً وعدداً من الفرسان والبغالة وهاجمت مفرزة جهة الفضا ثم زحفت على الحسا بقرب العوالي.

٣٨ ـ وفي أواخر آذار هاجمت سرية من الجيش الشمالي في جنوب العلا الأتراك فدمرت ثلاثة جسور وخربت قسماً من السكة.

٣٩ ـ لما تقدم الجيش الشمالي إلى الوجه والتحق به جعفر العسكري ونوري السعيد وكثرة الضباط الملتحقين بالثورة اعتنى بتوسيع القطعات النظامية في ذلك الجيش لتشكل سرية هجانة بقيادة الرئيس خالد سليمان وفصيل

البغالة أصبح سرية بقيادة مولود مخلص وسرية رشاش بقيادة عبدالله الدليمي وفوج مشاة من ٣٠٠ جندي.

٤٠ ـ وأما الجيش الجنوبي فتوسعت تشكيلاته النظامية أيضاً فأصبح مؤلفاً من ٣ أفواج مشاة وفوج هجانة وسرية تخريب وفوج رشاش من ١٦ رشاشة وبطارية أبوس وبطارية جبلية وفصيل صحراء وفصيل جبلي.

٤١ ـ في أوائل آذار ١٩١٧ تشكلت في الجيش الشمالي مفرزة من سرية البغالة (٣٠٠ بغال ١٠ خيالة) ورشاشتين ومدفعين جبليين وسرية رشاش ومفرزة تخريب وما يقارب من ألف هجان وخيال بدوي بقيادة الشريف شرف بن راجح ابن عم جلالة الملك حسين. هاجمت هذه المفرزة موقع المعظم فاقتحمت مواقع الأتراك فالتجأوا إلى القلعة وتحصنوا بها مما جعل الاستيلاء عليها متعذراً من قبل سرية البغالة، التي قامت بعملية الهجوم لوحدها لعدم معاونة البدو فتراجعت بعد أن خسرت السرية ١٢٥ قتيلاً وجرح قائدها مولود مخلص كما استشهد بعض الضباط.

٤٢ ـ وفي ١٢ آب ١٩١٧ هاجم الجيش الشمالي محطة الزمرد ودامت هذه المعركة ثلاثة أيام.

بعد أن استولى الجيش الشمالي على موقعي ضبا والمويلح عقب استيلائه على الوجه وانتقال مقر الجيش إليه أصبح على مسافة قريبة من العقبة. ومن المواقع التي تسكنها أقوى وأهم عشائر الشمال كعشائر عنزة والحويطات والصخور وغيرهم وبدأ البعض من مشايخ هذه القبائل الاتصال بالأمير فيصل وإرسال الكتب والمراسيل إليه. ومن أهم هؤلاء الذين حضروا إلى الوجه. الشيخ عودة أبو تايه وهو شيخ عشيرة التوايهة لقبيلة

الحويطات، وكان حمد ابن جازي شيخ مشايخ الحويطات وكانت شهرة عودة أبو تايه التي كانت منتشرة في جميع أطراف الجزيرة العربية متأتية من كونه عقيد قومه والعقيد تعني أنه قائد محارب له بيرق يجمع الرجال للغزو والقتال فيتجمع حوله الغزاة من مختلف القبائل بالأعداد التي تتناسب مع شهرته ومواقفه وكان عودة شجاعاً جداً وجريئاً ومقداماً وصاحب فكر ورأي وبالتالي كان موفقاً في جميع غزواته كل التوفيق وكان يصل في غزواته حتى أراضي الجزيرة والعراق واكتسب شهرة عظيمة بحيث أصبحت العشائر في جميع الجزيرة العربية تتحدث عنه. فالمنطقة التي تسكنها أو بالأحرى تتجول فيها عشائر الحويطات هي منطقة معان والكرك وحواليها وفي أراضي الحماد الواقعة في شرقي معان كباير والجفر وبيار العمري.

وصل عودة إلى الوجه في ٩ نيسان ١٩١٧ فاستقبله الأمير فيصل ورحب به أحسن ترحيب. وعرض عودة على الأمير خدماته ووضع بين يديه خبرته ونفوذه وبين له جميع ما يعرفه من أمر الأتراك وقواتهم ومواقعهم ونقاط الضعف فيهم، ورغبة في التقدم نحو الشمال وبين له ما سوف يجده من عون وتسهيل. وكانت رغبة الأمير بالتقدم نحو الشمال والاستيلاء على العقبة والاتصال منها بالجيش الإنكليزي رغبة سابقة وخطة مقررة وسبق أن بين هذه الخطة لوالده في كتابه الذي أرسله بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٣٥ والذي ألمحنا إليه فيما سبق أي قبل أن يستولي على الوجه حيث قال في أحد فقراته بالحرف: (عقب الوجه يبقى علينا في الشمال ضبا والمويلح وهي ضعيفة الآن. ولن يبقى إذ ذاك علينا إلا العقبة ونلتصق بالجيش الإنكليزي هناك). وطبعاً وجدت رغبة وترغيب عودة هوى وغبطة في نفس فيصل. وقد مضى على وجود الجيش الشمالي في الوجه نحو خمسة أشهر لم ينفك خلالها عن إرسال السرايا والمفارز على

مواقع الأتراك في الشمال والشرق والغرب. وتعرف جنده أثناء ذلك على الأراضي والمواقع والطرق واتصل الأمير بعشائر تلك النواحي وبمن أتاه من عشائر الشمال، وأخيراً بمجيء عودة قد أصبح كل شيء مهيأً ويوحي بضرورة المسير والاستيلاء على العقبة. والعقبة فرضة وموقع استراتيجي مهم جداً يحميه من الغرب البحر ومن الشرق المضيق وجباله المانعة. وتقرر حركة هذه المفرزة وخطتها، ولا بد أن عودة والشريف ناصر وشبيب البكري وزكي الدوري اشتركوا في تنظيم خطتها علاوة على القائد جعفر العسكري ورئيس ركنه نوري السعيد ورجا لورنس الأمير فيصل أن يسمح له بمرافقتها ليقوم بعمليات نسف السكة فوافقه وسمح له بذلك، وهكذا تقرر أن تتشكل هذه المفرزة من الشريف ناصر ابن علي قائداً لها وممثلاً للأمير ونسيب البكري ممثلاً سياسياً للأمير لدى الدروز وأهل مدن الشمال ومعه زكي الدوري أما عودة أبو تايه فهو الخبير والعقيد والدليل وقد تعهد بالاستيلاء على العقبة ورافق الشريف ناصر ٣٠ هجاناً من عقيل وكان معه ٢٥ ألف ليرة ومقدار من البنادق والذخيرة والمفرقعات.

تحركت المفرزة من الجفر بتاريخ ٩ أيار ١٩١٧ واجتازت السكة من قرب محطة ديسعد فوصلوا إلى موقع العيساوي من أراضي الحويطات. ومن هنا، انطلق عودة إلى النوري ابن شعلان ومعه ستة آلاف ليرة هدية من فيصل وتبعه الشريف ناصر بمن تبقى معه فوصلوا قرية كاف من فرايا الملح في شرق الأزرق حيث وافاهم إليها عودة مع خيالة نوري الشعلان، ومن كان قد اتصل بهم نسيب البكري من دروز بقيادة حسين الأطرش وبعدها تحرك نسيب البكري نحو الجبل ومعه ٧ آلاف جنيه وهناك اتصل بسلطان الأطرش وغيره وعاد دون نتيجة. وفي مدة بقاء الشريف ناصر وعودة في كاف جندوا نحو ٥٠٠

بدوي وتحركوا بهم نحو باير وبعد أن بقوا في باير أسبوعاً أرسلوا مائة خيال بقيادة زعل ابن اخي عودة نحو الزرقة لخداع الأتراك وتحويل أنظارهم عن وجهتهم الحقيقية فخربوا السكة وعادوا. وفي ٢٨ حزيران غادروا باير نحو الجفر ومنها اجتازوا السكة قرب محطة غدير الحج وأثناء ذلك علموا بمجيء قوة تركية كبيرة إلى موقع أبي اللسن فاتجهوا نحوها وأحاطوا بها من التلال المشرفة واستمر القتال طيلة يوم ٢ تموز وانتهت المعركة بهجوم قام به العربان أسفر عن مقتل ٣٠٠ تركي وأسر ١٦٠ وغادر العرب أبا اللسن في تلك الليلة وعسكروا بعيدين عنها بضعة أميال وأرسلوا دعوات للقبائل المجاورة كما أرسلوا إنذارات بالتسليم للحاميات التركية في مواقع الكويره والخضراء وكثاره وهي المواقع المشرفة على العقبة. وفي ٤ تموز أحاطوا بموقع الكويره وبعد معركة استسلمت الحامية وعددها ١٦٠ ضابطاً وجندياً ثم استولوا على موقع كثاره. فأخلى الأتراك جميع المواقع وتجمعوا في خضراء وهو موقع محصن منيع ولكن تحكيماته كانت موجهة للبحر ولم يكن من المنتظر أن يأتيهم الهجوم من الخلف. وفي عصر يوم ٦ تموز استسلموا ثم انحدر الشريف ناصر إلى العقبة وكانت خالية. وكان مجموع الأسرى ٤٢ ضابطاً و٧٠٠ جندي و٦٠٠ بين قتيل وجريح. وعقب ذلك احتل عودة الكويره وأرسل مخافر أمامية إلى أبي اللسن والمريقة والوجده ودلاغة وسافر لورنس للاتصال مع الجيش البريطاني وطلب المؤن وكتب الشريف ناصر إلى الأمير فيصل يعلمه بالنصر. وفي ١٣ تموز وصلت السفينة البريطانية دوقر مشحونة بالأرزاق والمؤن.

وعلى أثر هذا الانتصار قرر الأمير فيصل الزحف إلى العقبة فوراً فأرسل المقدم رشيد المدفعي مع ٥٠٠ جندي فركبوا المراكب متوجهين إلى العقبة بحراً. وعقب ذلك بدأ الجيش

الشمالي ينتقل بمجموعه إلى العقبة بواسطة السفن البحرية. وعندما وصل المقدم رشيد مع جنوده إلى العقبة تحرك حالاً إلى الكويره التي تقع شرقي العقبة. وباستيلاء الجيش الشمالي على العقبة تأسس الاتصال بين الجيش الشمالي والجيش الإنكليزي ـ وهكذا انتقل الأمير فيصل مع مقره ومقر قيادته والمفرزة المصرية والكولونيل جويز وجميع من كان في الوجه إلى العقبة.

وباستيلاء الجيش الشمالي على العقبة وانتقاله إليها فقد أصبح بعيداً عن قاعدته في مكة وهي مسافة ٧٠٠ ميل، ولأن هذا الجيش أصبح يشكل الجناح الأيمن للجيش البريطاني الذي كان يقاتل في جبهة غزة، ولأجل حسن وسرعة تأمين احتياجاته وتركيز وتوحيد خططه مع الجيش البريطاني رؤي لزوم ربطه بقيادة الجيش البريطاني، وعرض هذا الاقتراح على فيصل والحسين فوافقا عليه وهكذا أصبح الجيش الشمالي مربوطاً بالجنرال اللنبي من وجهة التموين والحركات، مع بقاء ارتباطه الإداري بالملك حسين.

وعقب تمركز الجيش الشمالي في العقبة والكويره بدا يرسل المفارز إلى مختلف المواقع التركية ليخرب السكة الحديدية والمحطات.

وفي هذه البرهة أي عقب الاستيلاء على العقبة صرف القائد جعفر العسكري وزملاؤه الضباط بمعاونة الأمير جهوداً كبيرة في تنظيم الجيش النظامي حتى أصبح خلال أواخر سنة ١٣٣٥هـ يتشكل من الملاك الآتي:

قائد الجيش النظامي الفريق جعفر باشا العسكري.
رئيس الركن العقيد نوري السعيد.
مدير الإدارة واللوازم الزعيم عبدالوهاب الشيخلي.

الفرقة الأولى: القائد العقيد حسين وفقي. ضابط الركن الرئيس اسماعيل نامق.

اللواء الأول: في العقبة القائد الرئيس الأول تحسين علي.
ف[1]: ٣ سرايا مشاة.
ف[2]: ٢ سريتا مشاة وسرية رشاش.

اللواء الثاني: في الكويره قائده الرئيس الأول عبداللطيف نوري.
ف[1]: ٣ سرايا مشاة.
ف[2]: ٢ سريتا مشاة وسرية رشاش من أربعة رشاشات.

الفرقة الثانية: قائدها الزعيم قاسم راجي.
ضابط الركن الملازم ناجي شوكت.

اللواء الرابع: في العقبة آمره المقدم خالد سليمان.
ف[1]: ٣ سرايا مشاة.
ف[2]: ٢ سريتا مشاة.

اللواء الهاشمي: وادي موسى: قائده المقدم مولود مخلص.

سرية خيالة: سرية رشاش ٤ رشاشات.
مدفعية جبلية.

لواء المدفعية: قائده الرئيس جميل المدفعي.
٤ مدافع جبلية هندية.
٤ ـ ٨ مدافع صحراء.

سرية مخابرة: فوج نقلية من ١٥٠٠ جمل.

٣

معارك الثورة في الشمال

أعود الآن لسياق الحديث الذي كنت قد بدأته بعد وصولي إلى العقبة. وقد عثرت على ورقة كتبتها خلال الأيام الأولى من وصولي إلى العقبة حاولت فيها تدوين مشاعري في تلك الأيام. وليس من شك أن محاولة التعبير عن تلك الانطباعات والأحاسيس التي كانت تملأ نفسي في غمرة تلك الأيام التي أعقبت التحاقي بالثورة كانت المشاعر نفسها التي كان يتحسس بها كل شاب من هؤلاء الشباب الذين كانوا يعملون في ميادينها، الأمر الذي سيعطينا فكرة صحيحة عن كل ما كان يواكب أعمالنا من تفكير وسلوك.

لقد تركت الجيش التركي لا عن فكرة أو حماس طارىء بل نتيجة لأفكار وحوادث وأمور ما زالت تتجمع وتتفاعل في نفسي نحو الحكم التركي منذ سنين. لقد رأيت بعيني حالة البؤس والشقاء التي كان يعاني منها أبناء قومي وشاهدت الإعدامات بالعشرات والمئات. وقرأت في أعين أكثر القوم الكراهية لنا والبغضاء فالتحقت في الثورة بعد أن اجتزت المخاطر وتركت والدي الشيخ وأخي بيد القدر، جئت ناقماً متحمساً لاشترك في إنقاذ أبناء أمتي من الظلم والهلاك وبلادي من الذل واستعمار الأتراك، وإذ أرى نفسي وجهاً لوجه أمام ثورة عربية جامحة يسير بها شباب عربي متحمس ويقودها أشرف رجل ترتكز عليه

آمال العرب وهو الشريف حسين، ومن خلال ذلك رأيت العملاق الإنكليزي بعينيه الزرقاوين وأياديه الملساء يقف من وراء هذه الثورة يغذيها بما لا بد لها منه مما لا نملك وليوجهها الوجهة التي يريدها ونحن نسمع منذ الصغر عن الإنكليز ما لايطمئن وأنهم كمرض السل إذا دخلوا جسماً لا يبرحونه. لقد سئمنا ظلم الأتراك واستعبادهم ونبغي الخلاص منهم بالرغم مما كان يربطنا بهم من روابط ولكن نفوسنا لا تقبل هذا الخلاص أن يكون على يدي أجنبي لا تربطنا به أية رابطة، ولكننا نعود لنقنع أنفسنا بأننا نحن الذين نقوم بتحرير أنفسنا ولسنا بمبدلين مستعمراً بآخر وأن الإنكليز ليسوا سوى حلفاء نتبادل معهم المصالح، نساعدهم بما يفيدنا ويفيدهم ويساعدوننا بما نحتاج إليه وإننا نثق بالشريف حسين كل الثقة فهو لا يمكن أن يبيعنا للإنكليز لا بد أنه أحكم الأمر ومكن الخطط. ولكن كل ذلك ما كان ليزيل الخوف والهواجس من نفوسنا فهذه الأفكار المتضاربة المتشابكة لا تنفك عن دورانها في رؤوسنا فيتكون من جرائها عقدة نفسية كانت تلازم كل واحد منا على اختلاف السن والتفكير وتتجسم هذه العقدة وتثور عندما يرى أحدنا أحد الإنكليز أو أحد الفرنسيين حتى أحد المصريين أو المغاربة بصفتهم تبعاً لهم. وكانت عواطفنا عندئذ تثور وتتغلب على العقل، بل حتى على المجاملات فلا تجد لها من منفذ سوى الهزء ونظرات الاستصغار والتحدي لذلك الأجنبي مهما كان شأنه أو مقامه، وكان هؤلاء الإنكليز يعرفون كل هذا ويتفهمونه ويتحملون ذلك بصبر غريب وببرودتهم المعروفة حتى كأنه كان لديهم أوامر يعملون بها. وكل منهم كان يسعى بكل جهده أن لا يظهر وجوده على قدر إمكانه وإذا ظهر فيسعى بأن لا يكون في موقف مرموق وأنه مستعد لتحمل الاستصغار إذا ما تعرض لذلك.

هكذا كان موقفنا من الإنكليز وموقفهم منا عدا واحد منهم وهو

لورنس فقد كان مثلهم في السلوك والتحمل إنما كانت له طريقة أخرى سنأتي على بيانها في مناسبتها.

في أحد هذه الأيام سمعنا قصف مدفعية مستمر كان آتياً من جهات غزة وكان يسمع من عندنا كهدير الرعد وقد علمنا أن الإنكليز يتعرضون لمواقع غزة.

لقد أمضيت الأيام الأول في العقبة في مقر الجيش وكان فيه مطعم وخيمة كبيرة لتناول الطعام والجلوس وكان ممن تعرفت عليهم في المقر المقدم شاكر الشيخلي رئيس الشعبة الحربية وهو عراقي وكاتبه الأول أمين صعب وكاتبه الثاني سعيد عمون وهما لبنانيان ورئيس شعبة اللوازم المقدم عبدالوهاب وهو عراقي. والسيد عبدالفتاح الباقي من طرابلس. وتعرفت أيضاً على الدكتور محجوب ثابت والدكتور معلوف والسيد إميل الخوري وجميعهم من لبنان. وكان كثير من الضباط والمدنيين يأتون إلى المقر فأتعرف بهم، وممن تعرفت عليهم من الضباط عبداللّه الدليمي وراسم سردست ومن المدنيين تعرفت على فائز العظم وبدري العظم ونزيه العظم وتوفيق الحلبي ورضا الصبان والأمير طاهر الجزائري وجميعهم سوريون وكذلك على إميل يزبك والشيخ فريد الخازن وهما لبنانيان. وفي أحد الأيام تعرفت على رمضان شلاش وهو في الأصل ابن احد المشايخ من البدو من جهات دير الزور درس في عهد السلطان عبدالحميد في المدرسة الحربية مع أبناء الشيوخ (وهذا من ترتيبات عبدالحميد لتأمين ولاء شيوخ العشائر)، وتخرج برتبة رئيس. دعاني إلى شرب الشاي في خيمته عصراً وكانت خيمته بقرب المقر وحينما وصلتها شاهدت شلاش جالساً في الصدر على سجادة حولها متكآت من أشدة الهجن (الشداد هو ما يوضع على ظهر الهجين كالسرج للخيل) فاستقبلني ورحب بي وكان عنده عدد من الضباط والمدنيين وكان مجلسه وخيمته الكبيرة

أشبه بخيم الأمراء وكان بجانب خيمته خيم أخرى للخدم وهناك عبد يقدم القهوة. وتنوع الحديث إلى أن تمركز حول قيادة الجيش وتغلب العراقيين على المراكز الكبيرة والقيادات واستئثارهم وتعيين السوريين في المراكز الصغيرة إلى غير ذلك. لقد انتابتني الدهشة فأنا إلى ذلك التاريخ لم أسمع ولم يخطر بفكري أن هناك فرقاً بين عربي وآخر أو قطر عربي وآخر وكنا في المدارس وبعدها في الجيش التركي نعرف الأشخاص بانتمائهم إلى بلدتهم لا إلى قطرهم مثلاً يقال فلان حلب أو فلان بغداد أو فلان شام أو حمص وعندما التحقت بالثورة لم يخطر بفكري أبداً أنها ثورة إقليمية أو أنها تخص قسماً من العرب أو هناك فرق بين أي قطر وآخر حتى ان المغرب العربي في شمال افريقيا لم يكن له في تفكيرنا فرق عن غيره من الأقطار الأخرى سوى أنه مغتصب من قبل الأجانب فيجب علينا إنقاذه وإنني متأكد أن كل واحد من شباب العرب كان يفكر كذلك. ولذلك كان هذا الحديث بمثابة مفاجأة وصدمة بالنسبة لي فوجمت وارتبكت. ولا بد لي أن أذكر أنني إلى هذا الوقت لم أكن مارست الاختلاط بمثل هذه المجتمعات أو مثل هذه الأحاديث وقد كنت لا أزال في التاسعة عشرة من عمري ومنذ ثلاث سنوات ونصف وأنا جندي قضيت هذه المدة في المدرسة والجبهة لم أعاشر الناس ولا أعرف أي شيء عن أخلاقهم ومشاكلهم في الحياة، ولم أكن سوى شاب متشبع بروح الجندية في قلبي وجسمي وتفور في دمي الروح القومية العربية التي تشربتها نفسي منذ الصغر من المرحوم والدي، ولم أكن أعرف كيفية التصرف في مثل هذه الاجتماعات وخلال مثل هذه الأحاديث التي لا تتلاءم مع أفكاري وشعوري فانكمدت نفسي وأنا أسمع هذا الحديث وارتبكت فلاحظ صاحب المحل ذلك مني فسألني ما بك. فقلت له إنني تألمت من هذا الحديث لأنها أول مرة أسمع فيها أن هناك فرقاً بين العرب وأن هناك سورياً

وعراقياً وحجازياً وغيره. لا بد أن يكون هناك أخطاء شأن كل عمل ولكن يجب أن لا تعزى للأقطار بل للأشخاص ثم أيوجد ضابط سوري أكبر برتبه وقدمه من جعفر العسكري ولم يسلموه القيادة. أنا لا أعرف هل يوجد؟ أجابوا لا. ولكنهم ادعوا أن هناك من السوريين من لم يعط لهم المراكز التي تتناسب مع رتبهم. وعلمت فيما بعد أن رمضان شلال كان يدعي أنه أمير ومن جهة ثانية كان يعتبر أنه ضابط لا يقل قدماً ومقاماً عن جعفر العسكري (بينما هو بدوي أكثر مما هو عسكري كما سنتحدث عنه فيما بعد) وعلمت أيضاً أن حامل لواء هذه الفكرة هو المقدم علي خلقي من أربد وكان نشيطاً في حركاته ولسانه وجريئاً في القول وقد اشتهر بذلك في كل ما كان يعمل به من وظائف حتى بعد الحرب، وقد اضطر الأمير إلى إرساله إلى مكة ومعه الرئيس محيي الدين البيروتي للسبب نفسه. لقد كان لجوابي على الصورة التي ذكرتها وقع مفاجيء أيضاً فتلطفوا بالحديث ولما قمت نويت أن لا أعود لمثل هذه المجتمعات. وبعد تناول العشاء جاء نوري السعيد إلى خيمة الجلوس وكنت وحدي في أحد أطرافها وسألني أين كنت عصر اليوم قلت له معزوم على الشاي عند رمضان الشلال فسألني عن الحديث الذي جرى فترددت بالجواب ولكنه أصر فلاحظت أن الحديث قد وصله فحدثته عما قيل فقال: وأنت أجبت بكيت وكيت وذكر ما قلته نفسه. ثم قال: إنني أشكرك على أفكارك هذه وقد كبرت بنظري. إنك كما قلت هذه الأحاديث التي قيلت ليست حقيقية والقائلون بها قليلون مخدوعون وليس لهم أهمية ولكنني بعد أن علمت بروحيتك الطيبة أردت أن أزيدك علماً أن أساس هذه الدعاية هي من عمل الإنكليز لإلقاء بذور الفتنة والتباعد والتفرقة بين العرب سوريين وعراقيين. إنهم لا يريدون وحدة هذين القطرين اللذين يعمل أبناؤهما في سبيل استقلالهما بيد واحدة فإنهم يحسبون للمستقبل حسابه من

الآن ويهيئوننا للفرقة قبل أن نصل لبلادنا. وصرت أقاوم هذه الدعاية منذ ذلك اليوم حتى أنني صرت أصادق العراقيين أكثر من مصادقتي للسوريين لتلافي الفراغ حتى أصبح لا يتجرأ سوري بالتكلم بموضوع هذه التفرقة أمامي لأنني كنت مستعداً للخصام وحتى للعراك في سبيل ذلك إلى أن أصبح ذلك معروفاً فيتحاشون أمثال هذه الأحاديث أمامي.

وقبل أن تفوتني مناسبة العقبة أحب أن أسجل أنني شاهدت فيها مخيم المتطوعين من الأرمن وهم نحو تسعين رجلاً بدأوا بالتدريب العسكري ليشتركوا في الحركات مع الجيش وكان هؤلاء من بقايا الأرمن الذين نجوا من المذابح وأبعدوا إلى أطراف معان ووادي موسى وأرسلهم الجيش العربي إلى العقبة مع عائلاتهم فسفرت النساء والأطفال إلى السويس بعناية الجمعية الأرمنية وبقي رجالهم للإشتراك مع العرب في حرب الأتراك إنما بعد مدة قليلة جاءت هيئة من جمعيتهم في مصر وسحبتهم حيث ذهبوا للتطوع في جيش الشرق الإنكليزي ليشتركوا معه في قتال الأتراك.

■ في قيادة سرية الرشاش

إن العقبة بالأصل قرية صغيرة فيها شبه قلعة. وبعد أن وصلها الأمير بدأت تتوسع وتكثر مرافقها وأصبحت تعج بالناس على مختلف أنواعهم، فهناك حوانيت أقامها التجار الحجازيون «وكانتين» أسسه الإنكليز ومقر الأمير وما يلحقه من مخيمات الأشراف والمعية والهجانة وغيرهم ومعسكرات الجنود من مختلف الصنوف ومطار صغير وغيره. وكنت أقضي أكثر أوقاتي في المقر وفي المساء كنت أتجول في المعسكرات وعلى شاطىء البحر وحدي أتفرج على هذا المحيط الجديد الذي بدأت اعيش فيه. وفي حقيقة الأمر لم يكن لي عمل أقوم به في

وظيفتي كمرافق لرئيس الأركان فكنت أقضي النهار في خيمة المطعم أستمع لثرثرة الملازم خضر الأسود الذي كان مرافقاً لجعفر العسكري وأحاديث سعيد عمون اللطيفة وهو ابن اسكندر عمون من الجالية اللبنانية في مصر، وممن يعملون في الحقل الوطني، ارسل ابنه سعيد ليرمز إلى اشتراكه وتأييده للثورة. وكان في المقر شخص آخر هو إميل الخوري وهو رجل ممتاز بشخصيته وعلمه وحديثه وتفكيره ووطنيته وقد استحوذ هذا الرجل على إعجاب واحترام وثقة الجميع من بداية التحاقه بالثورة.

إنه من موارنة لبنان المعروفين بحبهم لفرنسا، ولكن إميل التحق بالثورة العربية ليساهم فيها كعربي وليبرهن كزميله الموراني سعيد عمون بأن القومية عند العرب ليست وقفاً على الإسلام.

لقد مرّ على وجودي في العقبة وفي وظيفتي الإسمية نحو أسبوع وأنا الذي لم أتعود مثل هذه الحياة (أكل ونوم ونزهة وطق حنك) لقد كنت متعوداً أن اشتغل في اليوم ما لا يقل عن خمس عشرة ساعة ولم آتِ لميدان الثورة التي كنت أحلم بها وأبني لها «العلالي» والقصور لأجد نفسي رجلاً عاطلاً ليس لديه ما يفعل.

دعاني قائد المدفعية راسم سردست في أحد الأمسيات وهو ضابط من دمشق وكان عنده الأمير طاهر الجزائري ولطفي العسلي وعبدالله الدليمي وتوفيق الحلبي وبدري العظم وغيرهم وكانوا يشربون الويسكي وكنت إلى ذلك الوقت لا أعرف الويسكي ولا سمعت عنه وطبعاً لم أشربه. وأثناء الحديث والتنادر قال أحدهم: إنه حضر أمس للمقر للتفرج علي عندما سمع أن هناك ضابطاً سورياً وسيماً التحق بالثورة وعين مرافقاً إلى أن قال: إنه عندما رآني قال حرام على هذا أن يموت في الحرب. ولما عدت لخيمتي بعد انتهاء السهرة لم يسعفني النوم

وبقيت قلقاً حتى الصباح. إذاً أنا كدمية يأتون ليتفرجوا علي وأنني حسب ذلك لا أليق بالحرب بل حرام أن أموت لأنني لست أهلاً للحرب ولا للموت في سبيل وطني يعني أنني لست رجلاً مثل هؤلاء الرجال فأنا هنا مجرد دمية. أليس الحق معهم ولماذا ألومهم، ماذا يعرفون عني سوى أنني شاب لا يكاد ينبت الشعر في وجهه له صورة تجلب النظر ولا يدل مظهره على أي شيء آخر. ما يدريهم أنني قضيت نحو السنة في أعظم المعارك التي جرت في الشرق، معارك غزة وأنني نجحت بعملي. إنهم لا يعرفون عني شيئاً ولا عما يجول في نفسي من أفكار وآمال ووطنية. بزغت الشمس وأنا لا أزال في فراشي أهذي بهذه الأفكار المحمومة دون أن يغمض لي جفن. نهضت وارتديت ملابسي وكنت أثناء ذلك أكلم نفسي: إذاً أنا دمية يأتون ليتفرجوا علي. وبعد الفطور جلست لوحدي متجهم الوجه عابسه متألماً لا تزال تلك الأفكار متسلطة على ذهني لا تترك لي مجال التحدث إلى أحد. اقترب مني إميل الخوري ولم يكن في الخيمة سوانا وسألني بلطف ومودة مالك هكذا متجهماً منتفخ الأوداج وكأنك لم تنم ليلة أمس، فشعرت وكأن نفسي تدفعني لأن أفضي بما في نفسي لهذا الرجل الذي تنبعث من ثنايا وجهه علائم الجد والعطف والصدق، وبعد تردد قصير شرعت بحديثي وبينت له ما جرى أمس وشرحت له كل ما يجول بنفسي وعواطفي وكان يصغي إلي باهتمام وعطف وحنان؛ الأمر الذي شجعني لبثه كل ما في نفسي. ولما انتهيت من حديثي افتكر قليلاً ثم سألني والآن ماذا أنت فاعل. أجبته أنني سوف أطلب نقلي إلى القطعات المحاربة قال: وإذا أبوا، قلت: أصر، قال: وإذا أصروا بالرفض، قلت: أصر حتى أنقل. قال: هذا خير ما تفعل وإنك كبرت في نظري. وبعد دقائق من هذا الحديث دخلت على نوري السعيد وطلبت نقلي وقلت له إنني ضابط رشاش أجيد المعرفة بالرشاش وان القطعات بحاجة ماسة لضباط

رشاش بينما هنا ليس لي عمل ولا فائدة من وجودي. وكانت النتيجة الرفض. واستمر هذا الأخذ والرد يومين فراجعت جعفر باشا وقلت له: إنني لم آتِ للثورة من أجل أن أكون مرافقاً فإذا لم توافقوا فأرسلوني إلى الأسر. وتوسط بذلك إميل الخوري والدكتور ثابت وفي النتيجة وافقوا على نقلي وعينت قائداً لسرية رشاش لواء الهاشمي. وسرية الرشاش هذه في العقبة وقريبة جداً من مقر القيادة. رافقني نوري السعيد إلى السرية ولما وصلنا طلب إلى أحد الجنود أن يحضر آمرهم فحضر وكان يرتدي ملابس نصف عسكرية لا تشبه ملابس الضباط ولا ملابس الجنود ولا ملابس مدنيين وعلمت فيما بعد أن اسمه صالح آغا ورتبته نائب ضابط طلب إليه رئيس الأركان أن يجمع جنوده فجمعهم وقد كانوا نحو عشرين شخصاً فوقفوا بحالة اصطفاف فقال لهم نوري السعيد: هذا الملازم صبحي العمري وهو ضابط رشاش وقد عين لقيادة سريتكم فيجب عليكم جميعاً إطاعته وحياهم وانصرف ورافقته إلى خارج المعسكر وقبل أن يذهب قال لي: يظهر أن هذه السرية مهملة آمل منك أن تنظمها وأنا سأساعدك بكل ما تطلب على قدر الإمكان. عدت إلى السرية وبدأت أتجول بين الخيم والبغال. معسكر السرية واقع تحت أشجار النخيل وتكاد تكون على شاطىء البحر لا تبتعد عنه أكثر من ثلاثين خطوة. فهمت من نائب الضابط أن في السرية أربعة رشاشات فيكرس إنكليزية وهذا النوع من الرشاش كان في ذلك الوقت أحسن أنواع الرشاشات الثقيلة في جميع الجيوش. وكان في السرية نحو الثلاثين عنصراً ورغم أنهم كانوا يسمون سرية الرشاش البغالة أي راكبة، فإن جميع ما لديهم من بغال ١٧ وجمل واحد للنقل وكان من جملة الجنود ثمانية مصريين بقوا من أصل جنود هذه الرشاشات الذين أتوا معهم في بداية تسليمهم لجيش الثورة، وأما باقي الجنود فعراقيون ومن الموصل بمن

فيهم كبيرهم نائب الضابط وعلمت أن مولـود مخلص وقد كـان قـائداً للـواء الهاشمي أخـذ أكثـر بغـال السريـة بحيث أكمـل نواقص سرية البغالة التي ذهبت لوادي موسى، ولكنني لم أفهم لماذا ترك سرية الرشـاش ولم يصطحبها معـه لوادي مـوسى إلا إذا كان لسبب نواقص حيـواناتهـا. كانت البغـال السبعة عشر من الجنس الاستـرالي الضخم وهي في العـادة تستعمـل لجـر المـدافع التي أكبـر من المدافـع الجبليـة وتسمى هـذه البغـال بالاصطلاح العسكـري (جر خفيف) أي عكس الحقيقـة. وهي بالنسبة لكبر حجمها تحتاج لمقدار أكبر من العلف وكانت مهملة وحـوافرهـا طويلـة لم تقلم أبداً منـذ استلمها الجيش كمـا أن شعرها طـويل في قـذالها وأجسـامها تـوحي أنها لم تعـرف لا الحس ولا الغسيـل منذ جـاءت وشاهـدت القراد معششـاً بين أفخـاذها وتحت الأذنـاب وكـان الـروث يغطي جميـع سـاحـة معسكر السرية خصوصاً مربط البغال لقـد كان أشبـه بتل من الروث. ولما فحصت الرشاشات وجدت أنهـا غير نظيفـة والقطع الاحتياطية غير مرتبة وباقي التجهيزات في فوضى رهيبة. وبقيت حتى المساء اسأل واستفسر حتى علمت كل ما أريد. فهمت أن جميع هؤلاء الجنود عدا سبعة من المصريـين لا يعرفـون شيئاً عن الرشاش، وأحد المصريين هو جندي بيطـري ولكنه بـالرغم من وجـود أدوات تنعيـل فـإنـه لم ينعـل منـذ أشهـر لعـدم وجود حدوات ومسـامير وأنـه ليس هناك لا تمـارين ولا دروس وان الجنـود يقضون أوقـاتهم باللعب والحكي والمقـامـرة. وإن نائب الضابط هـذا من زلم مولـود مخلص ليس له عمـل سوى الوجاهـة وعنده خيمـة ثانيـة فيها ٤ جنـود ليكونـوا له خـدماً وندماء. هذه المعلومات أخذتها من جندي مصري.

عدت مساء إلى المقر وبت في خيمتي لأنني لم أجد لي خيمة، وفي اليـوم التالي استحصلت عـلى أمر من القـائد العـام إلى مديـر

اللـوازم بتأمـين احتياجـات السريـة فـرحب بي وقـال عنـدنـا تجهيـزات كثيرة أتتنـا بالبـاخرة ولا نعلم فحـواها كمـا لا نعلم مطالباتك فشكرته ورجوتـه أن يمهلني يومـين أو ثلاثـة لأدرس النواقص على أن يعطيني الآن خيماً فسلمني ثلاث خيم واحدة مثلثة لأجلي واثنتـين مخروطيتـين. طلبت إلى نائب الضـابط أن يأمر بتنظيف المعسكر من روث الحيوانات بأن يجمعـوه ويلقوه في البحـر ولكنني لاحظت عدم ميلهم للقيـام بـذلـك ولاحظت أن الجنود يقضون أكثر أوقات يومهم بتهيئة الطعام لأن كل جندي كان يستلم أرزاقه ناشفة ويقوم لوحـده أو مع عـدد من رفاقـه بالطهي وكذلك الخبز. وأما علف البغال فكان فوضى في التـوزيع أو الوقت وكان قسم منها دون رأسيات أو مربط خلفي وبعضها دون مخـلات فيضعون علفهم عـلى الأرض. وفي اليـوم الثـاني نقص عدد البغال اثنين وقيل لي إنهمـا شردا ولا بد أن إحـدى القطعات استولت عليهما وذهبوا للتفتيش عليهمـا دون جدوى. وفي اليوم الذي تلاه وجدت أن البغـال زادت واحداً فـأصبحوا ثمانية عشر وأخبرني أحد العـرفاء أنـه ذهب ليلاً مـع جنديـين وسرقوا عوضهما من احدى القطعات. فتأكد لدي أنـه يستحيل علي أن أتمكن مـن تنظيم هذه السرية وهي تحت سيطرة هذا النائب الضابط الآغا (وكلمة آغا تعني الأمية) وقـد مضى عليهم أشهر وهم على هذا الطراز من الحياة نصف البدوية.

في صباح أحد الأيام جاء لخيمتي جندي مراسلـة وبيده كتـاب تعميم إلى جميع الضباط يقول فيه إنـه مطلوب ضـابط متطوع فدائي ليعهد إليه القيام بعمل خطير في داخلية سوريا فمن أراد التطوع فليبين ذلك على هـذا الكتاب مـع بيان سـاعة التبليـغ. خطر لي حالاً أن هـذا العمل عـلى أغلب الاحتمال سيكـون قتل جمال باشا. فكتبت تطوعي وذهب الجندي وفي اليوم الثاني عاد المراسل ليبلغنا بكتاب آخر يلغي ذلك الطلب. ولما استخبرت عن

ذلك من المقر علمت أن ظني كان في محله وأنهم بدلوا رأيهم في اليوم الثاني لأسباب لم أعرفها ثم علمت أن المتطوعين من الضباط كانوا نحو عشرة وبصورة مبدئية وقع اختيارهم علي لسبب كوني شامياً وأعرف هذا البلد الذي تقرر أن يكون اغتيال جمال فيها. انني أتصور الآن كم كان هذا التصرف منهم سخيفاً عندما أعلنوه على هذه الصورة وبتلك الطريقة.

وكان في جانب معسكرنا معسكر لسريتي هجانة جلهم من الفلسطينيين وقد تعرفت على قائدهم وقد نسيت اسمه وأظن أنه دمشقي أخبرته بحاجتي إلى جنود ورجوته أن يساعدني فقبل الرجل بكل لطف على أن استحصل لذلك على أمر من المقر وجئت له بالأمر وساعدني بل عاونني بكل اخلاص بانتقاء ٦٠ جندياً أخذتهم إلى السرية وجئت لهم بخيم وقسمتهم إلى أربعة أقسام أي لكل رشاشة خمسة عشر جندياً وأبقيت في كل رشاشة اثنين من المصريين وقسمت البغال بين الرشاشات بالتساوي وفرزت خمسة عشر جندياً من الجنود المواصلة فنقلتهم إلى الهجانة. وباشرنا بتنظيف المعسكر وخلال ساعات قليلة أصبح نظيفاً وطلبت إلى كل رشاشة أن تبني لبغالها معالف من طين وأخذت جندي البيطرة المصري إلى مستودع اللوازم ليفتش بين أكوام الصناديق عن نعال ومسامير فوجد منها الشيء الكثير كما وجد صندوقاً في داخله آلتين لقص شعر الحيوانات، وهكذا عاد وباشرنا بقص الشعر والتنعيل وعملت من حدوة صغيرة شبه دائرة جعلت منها وسماً أكوي به كل بغل كي تكون علامة فارقة ولم يمض أسبوع حتى لم يبق من الجنود القدامى سوى المصريين وهم يتقنون استعمال الرشاش.

وبدأنا في التمارين وتعمدت أن أسير بها تدريجياً إن كان في الوقت أو الكيفية. وبدأ الجنود يشعرون بلذة الضبط والانتظام

وعينت أحدهم ليكون عريفاً لأمور الإعاشة يعاونه جندي وعينت من كل رشاشة واحداً مجموعهم ٤ واثنان منهم للطبخ واثنان لعمل الخبز وعينت عليهم واحداً مسؤولاً عنهم ووضعت معياراً لتقسيم العلف. فأصبح كل حيوان يأكل استحقاقه بصورة كاملة وخصصت وقتاً لتنظيف الحيوانات بعد أن نظفوا من كل ما كان يعلق بهم من قراد وشعر. وبتنظيم أمر الحراسات الليلية لم يعد يشرد أو يسرق شيء من البغال بل بدأ عددهم يزداد وكلما جاءنا بغل وسم وزين بحيث يصبح من الصعب التعرف عليه. وخلال عشرة أيام أصبح السبعة عشر بغلاً خمسة وثلاثين. وفي أحد الأيام كنا ساهرين عند قائد المدفعية راسم سردست ففتحت سيرة البغال وأخبرتهم بأنه عندي بغال كبيرة مما تستعمل لجر المدافع وكلفتهم بتبديلها بما عندهم من بغال الحمل الصغيرة واتفقنا على أن أعطيهم بغلين من عندي بثلاثة من بغالهم الصغيرة وفي اليوم التالي سلمتهم عشرين بغلاً كبيراً واستلمت منهم ثلاثين بغلاً صغيراً. ولكن من عادة الحيوانات إذا فلتت فإنها تعود إلى مربطها الأول وهكذا كلما عاد منهم بغل مما سلمناه كنا نعود ونسلمه مرة ثانية مقابل كل بغلين بثلاثة من عندهم ولم يمض على مباشرتي في السرية خمسة عشر يوماً إلا وكان موجود السرية من البغال نحو ستين بغلاً أي أن السرية أصبحت فعلاً سرية رشاش راكبة. وكنا مستمرين على التمارين في كل يوم وقد أصبح لكل شخص من منسوبي السرية بغل مسؤول عنه وقد دونت أوصافهم في دفتر خاص بحيث سجل كل بغل باسم صاحبه وبذلك أصبح الجنود وضباط الصف يعتنون بحيواناتهم ويحافظون عليها. وبعد نحو عشرين يوماً أخبرت القيادة بأن السرية ستقوم بتمارين الرمي في التلال التي في شرق المعسكر ورجوتها تعميم ذلك كي لا يحصل تشويش في المعسكر، وهكذا شرعنا بتمارين الرمي على أهداف وضعناها من أخشاب الصناديق وأوراق اللف التي

أخذناها من العينة. وكان ينقصنا سروج للركوب حيث لم يكن موجوداً عندنا منها أكثر من عشرين فذهبت إلى مستودع العينة ومعي عدة عرفاء للتفتيش بين الصناديق حتى عثرنا على ضالتنا واستحصلنا على خمسة وأربعين سرجاً مع بطانيات وشفوف ورأسيات ولجم وجميع ما يلزم وأثناء ذلك عثرنا على بالات فيها خيم سفرية من التي يحملها الجنود كما عثرنا على مشمعات أرضية تعطى أيضاً واحدة لكل جندي ولوازم مطبخ من قدور وخلافه كما عثرنا على صندوق صغير فيه قطع تبديل لرشاشات فيكرس ضائعاً بين هذه الأكوام من الصناديق لا يدري به أحد وهكذا أكملت التجهيزات للسرية بصورة ما كنت أحلم بها. وأعلنت لجميع السرية بأن مسألة ضباط الصف والرتب ورواتبهم ستوزع وتقرر حسب المقدرة التي ستعرف نتيجة الفحص الذي سيجري بعد انتهاء تمارين الرمي. لأنه بعد نقل الجنود القدامى لم يبق في السرية ممن يحملون رتباً سوى أربعة عرفاء من المصريين وهكذا بدا السعي والاجتهاد. وفي أحد الأيام بينما كنا نقوم بتمارين الرمي إذ مر الأمير فيصل وخلفه عدد من الخيالة فترجل ليتفرج على رمي الأهداف فسر لذلك غاية السرور وبعد أن شكرني وانصرف وفي المساء جاء أحد خدمه بخمسة خرفان هدية من الأمير للسرية وفي اليوم الثاني نشرت كلمة شكر في أمر يومي للقيادة.

وبعد أيام أخرى جاء جعفر باشا وفتش السرية في وقت التمارين الصباحية وقبل أن ينصرف شكرنا وشجعنا فكان لكل ذلك تأثير حسن على معنويات الجنود وبدأوا يفتخرون بسريتهم وبعد أن تفهمت درجة استعداد كل فرد من الجنود أعدت تنظيم السرية بصورة نهائية حيث جعلت لكل رشاشة ثمانية جنود أحدهم آمر وعريف ولكل رعيل من رشاشتين بأمرة ضابط ورعيل عتاد بأمرة عريف يتشكل من حضيرة عتاد بأمرة

نائب عريف مع ماكنتي إمـلاء وحضيرة لـلأحمال وعينت رئيس عرفاء لعموم السرية للإدارة والضبط يعاونـه عريف لـلإعاشـة وجنـدي كاتب وأربعـة طباخـين وخبازين بـأمرة نـائب عـريف وثلاثة خـدم للضباط ويعـرفون بصفتهم مـراسلين أيضـاً، كما أرسلت جنديين للمستشفى السيار للتمرن على الإسعاف الأولي وعينت الجندي المصري البيطار وأرفقته بجندي وجعلتـه برتبـة نائب عريف وعينت جندياً للمستودع مسؤولاً عن حفظ الذخائر والمهمـات ووزعت الخيم السفريـة عـلى الجنـود ودربتهم عـلى نصبهـا وتفكيكها وأعطيت لكـل ضابط ست قطـع منهـا بحيث تكفي لتقوم مقام خيمة لشخص واحد وسلمت جميـع ما لـدينا من الخيم الكبـيرة إلى مستودع العينـة. وهكذا وفي هـذه المـدة القصـيرة أصبحت السرية مـدربة عـلى قـدر الإمكـان ومهيئـة للحـركة ولكنني صرفت خـلال هذه المـدة مجهوداً كبيـراً جـداً وكنت أشتغل طيلة النهار وقسماً من الليـل، وبعد مـدة وصلت إلى العقبة باخرة تحمل فوجاً من المتطـوعة فيـه ضباط وجنـود سموه فوج الإسماعيلية لأنه كان قبل مجيئه يتجمع ويتدرب في بلدة الإسماعيلية وأغلب ضباطه كانوا من العراقيين.

تعين لسريتنا منهم ضابط برتبة ملازم ثانٍ كان نـائب ضابط في الجيش التـركي اسمه بهـاء الدين نـوري وهو ضـابط رشاش فعينته آمراً للرعيل الأول كما عينت نائب الضابط آمراً للـرعيل الثاني.

وقد أصبح فيما بعد في الجيش العراقي مديراً لمدرسـة الأركان فمعاوناً لرئيس أركان الجيش وأخيراً عندمـا اتحد العـراق مع الأردن كان سفيراً في الأردن.

الحركة إلى الشمال والاستيلاء على محطة جرف الدراويش

في أوائل شهر كانون ثاني سنة ١٩١٧ أمرت أن أرسل رشاشتين بأمرة ضابط إلى الكويره فأرسلت رعيل الملازم الثاني بهاء الدين نوري وإثر ذلك بعدة أيام أمرت بأن أتحرك مع باقي سريتي إلى الكويره فتحركنا وفي اليوم الثاني وصلنا ومنها تحركنا إلى موقع البئر الواقع إلى شرق الكويره وهنا اجتمعنا برعيلنا الأول وأصبح مفهوماً لدينا أننا أصبحنا مع مفرزة تشكلت للقيام بمهاجمة الأتراك في محل لم نكن نعرفه بعد وهذه المفرزة مكونة من فوج مشاة وسرية بغالة من ٨٧ بغالاً وسريتين ٤ رشاشات ومدفعين جبليين ومفرزة صحة بأمرة الدكتور حسني وعدد من هجانة عقيل، وكانت هذه المفرزة بقيادة الشريف ناصر بن علي ويقود الجند النظامي رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد. يرافقها مفرزتا تخريب بأمرة توفيق الحلبي ولطفي العسلي.

بتنا في مرحلتنا الثانية في موقع النقب ومنه تحركنا فقطعنا السكة الحديدية إلى الشرق حتى وصلنا إلى موقع الجفر وفي هذا الموقع بئر ماء وبناء من طين يشبه القلعة وهو عائد إلى عودة أبو تايه. فأضافنا عودة بذبيحة جمل محشو بالأرز وهذه أول مرة آكل فيها لحم جمل وكذلك أرسل ذبائح لباقي الجنود. وبقينا في الجفر نحو خمسة عشر يوماً فهمنا أثناء ذلك أننا سنهاجم محطة جرف الدراويش وكنا ننتظر انضمام عرب بني صخر برئاسة الشيخ مفلج. وأثناء وجودنا في الجفر مر بنا السيد فائز الغصين وبرفقته الدكتور حسن شرف قاصدين الأزرق.

كان بين الحويطات وبين بني صخر خلاف وتارات ولكن الأمير

فيصـل سبق أن صالحهم وأزالهـا مثلما فعـل ذلك بـين جميع العشائر الأخرى.

وأخيراً أقبلت فرسان وهجانة بني صخر ومعهم الشريف حسين الشقراني وفائز العظم وهم يحدون ويطلقـون العيارات النـارية في الهواء وخرجت عشائر الحويطات لاستقبـالهم، وهكذا كملت الحملة وبعد ثلاثة أيام تحركت المفرزة للهجوم على محطة جرف الـدراويش واختاروا الهجـوم عليها لقـربها من الطفيلـة ولأنه يوجد بقربها جسر حجري كبير يصعب إصلاحه بسهولة إذا ما جرى تخريبه. وكانت الخطـة أن تنسف السكة الحـديديـة من شمـال المحطة وجنـوبها من قبـل مفرزتي التخـريب ويعهد إلى عشائر بني صخر بالهجوم من شمال المحطـة وإلى الحويطـات بالهجوم من جنـوبها وأن يتقـدم الجند النظـامي من الهضاب الشرقية المشرفة عليها بحيث ترمى المحطة بالمدافع والرشاش.

وقبل فجر يوم ١٢ كانـون الثاني ١٩١٨ تحـرك كل فـريق نحو الهدف المعين له وتشكلت المقدمة من ١٥ خيالاً ورشاشتين و١٥ هجاناً يمانياً بقيادة النقيب إسماعيل نامق. (الذي أصبح فيمـا بعد رئيساً لأركان الجيش العراقي بـرتبة فـريق) وكانت بـاقي القوة تتقدم خلف المقدمة، ومع بزوغ الفجر بدأت المقدمة بفتح نيرانها وأعقبتها المدفعية وانفجار المفرقعات عـلى خط السكة ثم اشتركت باقي القوة وكان لدى الأتراك مدفع جبلي عطلته قنبلة من مدفعيتنا، انهزم الأتراك من الهضاب التي كانوا فيها نحـو المحطة فاستولينا على المدفـع وبسرعة أصلـح وبدأ يقصف بـه المحطة وهاجمت العشـائر كـل من منطقتها المحطـة وتسابقـوا للوصول إليها واستسلم الأتراك. وكانت خسائرهم ثمانين قتيلاً ومائتي أسير منهم سبعة ضباط أحـدهم الملازم أمـين الكيلاني من حماه. عندمـا بدأنـا الهجوم كـان يقف في المحطة قطـاران مملوآن بالأرزاق والمهمات المرسلة إلى المدينة فكان أول ما افتكر

به البدو هو نهب هذين القطارين وقد تمكن بعض جنود سريتي من الحصول على أربعة بغال وحصان قبل أن يستولي عليها البدو ووقفت أتفرج على عملية النهب التي يقوم بها البدو، أنه حقاً لمنظر طريف.

وكان في القطار أكياس ملأى بلحوم الباصطرمة والسجق فجاء أحد البدو وبيده شيء منها يسألني عنها فأجبته بأنها لحم خنزير، فعاد يجري وهو يصيح لرفقائه أن يرموها وينادي لحم خنزير لحم خنزير وفي لمح البصر رموا جميع ما كان لديهم منه كي لا يضيعوا الوقت ولم أكن أنتظر ذلك عندما قلتها للبدوي بل كان قصدي المزاح فعندها أمرت جنودي أن يحملوا جميع البغال التي استولوا عليها بأكياس السجق والباصطرمة وكذلك أخذ باقي الجنود الشيء الكثير منها فأهدينا اصدقاءنا وبقي منها لدينا الشيء الكثير. وانفرط عقد البدو تقريباً حيث ذهب كل منهم بما غنم لإيصاله إلى أهله إلا القليل. وبعد أن نسفت مفارز التخريب الجسرين والقاطرات ومباني المحطة انسحبنا عائدين شرقاً وبتنا ليلتنا في موقع غدران أبو طليحة وفي الصباح استأنفنا المسير وعسكرنا في وادي الفرس. وهنا تقرر عودة نوري السعيد ومعه الفوج والمدافع عدا المدفع الذي غنمناه من جرف الدراويش ومفارز التخريب والأسرى ومحافظوهم كما تقرر أن يتوجه باقي المفرزة مع الشريف ناصر لاحتلال الطفيلة وقد أوكل قيادة الجنود إلى راسم سردست. هذه أول معركة أشترك فيها في الثورة وأول عملية أرافق فيها الشريف ناصر بن علي الذي كان يطلب إلحاقي في كل مفرزة كان يعين لقيادتها.

٤

الاستيلاء على الطفيلة

كان الشريف ناصر مع من معه من رجاله والعشائر معسكراً أيضاً في وادي الفرس وقد وصل المعسكر ذياب العوران شيخ مشايخ الطفيلة صاحب النفوذ والسلطة فيها وما يحيط بها من قرى. وتقع الطفيلة في واد تحيط به جبال وهضاب عالية من الشرق والشمال والجنوب وأما من الغرب فتلاصقه أحراش واسعة ذات أشجار باثقة صعبة السلوك إلا لمن يعرفها وقد علمت أن فيها حيوان النمر حتى إنني فيما بعد اشتريت بعض جلود مما كان يبيعه صائدوها من الفلاحين. وتقع الطفيلة في منتصف الطريق تقريباً بين الكرك ووادي موسى وفي بلدة الطفيلة الكثير من الينابيع ويقولون إنها ٣٦٠ ينبوعاً بعدد أيام السنة، إنما لا يستفيدون من الأحراش إلا بصنع الفحم الذي يبيعونه في الكرك ومعان. وعلى العموم، فهم كسالى يقضون أوقاتهم مجتمعين على أطراف القرية يشغلون وقتهم الضائع بشتى ألعاب التسلية.

إن انقطاعهم عن المعمورة في تلك الأرض صعبة المسالك مع الفقر والتعود على الاكتفاء بالقليل وإحاطة البدو بهم من كل الأطراف جعلهم قوماً شرسين شجعاناً لا يبالون بالعدو أكثر أم قل خصوصاً وقد ساقت الدولة عليهم قبل الحرب العامة قوة

كبيرة بقصد إخضاعهم وتجنيدهم وكانت عدة طوابير فكسروها وشتتوها مما اضطر الدولة للسكوت عنهم. وفي ليلة ١٣ ـ ١٤ كانون الثاني عبرنا السكة غرباً قاصدين الطفيلة وبتنا تلك الليلة في موقع النونية وفي الساعة السابعة من صباح ١٥ منه توجهنا نحو الطفيلة وكان يتقدم المفرزة الشريف ناصر ومعه ذياب العوران وعلى مسافة ألف متر تقريباً من شرق البلدة وقفنا وأخذنا المواضع المناسبة انتظاراً لما ستؤدي إليه المفاوضات مع الحامية التركية المرابطة فيها، والتي تمركزت في السراي والهضاب القريبة منها. وكان أهل الطفيلة يريدون الدفاع عنها إلى جانب الأتراك كرهاً منهم وخوفاً من أن ينهبهم البدو، ولكن شيخهم ذياب العوران حال دون ذلك وأفهمهم أنه أصبح في جانب الشريف.

وطال أمر المفاوضة مع الحامية لأن قيادتنا لا ترغب أن تفتح نارها على الأتراك وهم في داخل البلد خوفاً على من فيها من الأهالي. وأخيراً قرر القائد التركي الاستسلام ولكن للقوة العسكرية النظامية لا للبدو وكان عددهم ٨٦ ضابطاً وجندياً قائدهم عربي برتبة نقيب اسمه زكي الدوعي من دمشق. وأراد أهل القرية أن ينهبوا بغال الحامية فقتلوا منهم ثلاثة. فأسرعنا بإرسال ضابط مع بعض الجنود فاستسلموا لهم وهكذا دخلنا الطفيلة دون قتال في يوم ١٥ كانون الثاني سنة ١٩١٨.

وفي مساء ذلك اليوم وصل الطفيلة الشريف مستور ومعه شيخ الحويطات محمد بن جازي مع المقاتلين من عشيرته والملازم محمد علي العجلوني. وقبل ذلك بيوم كان الشريف عبد المعين قد استولى على قلعة الشوبك بعد أن خرب الخط الحديدي الفرعي الذي بين محطة عنيزة وعين نجل، والشوبك قلعة تاريخية حصينة جداً في جنوب الطفيلة وتقريباً في منتصف الطريق إلى وادي موسى، وفي ١٦ كانون الثاني ١٩١٨ أي في

اليوم التالي لدخول الطفيلة وصل إليها الأمير زيد وبرفقته القائد العام جعفر العسكري مع سرية مشاة مغاربة بقيادة المقدم عبدالله الدليمي. وعين النقيب إسماعيل نامق قائممقاماً للطفيلة وباشر بإدارة شؤونها وقد بدأ بتشكيل سرية من المتطوعة سميت السرية الملية بقيادة الملازم سليمان الجنابي. وكذلك شكل دركاً وشرطة ومركزاً للإعاشة. وأثناء ذلك وقعت أمطار غزيرة وبرد شديد تسبب هذا البرد بموت الكثير من بغال السرية البغالة وكان السبب الرئيسي هو مبيتها في الخلاء وعدم الاعتناء بها خلال هذا البرد من حيث النظافة والعلف أما سريتي فلم تفقد أي بغل لأنني استأجرت اسطبلات لمبيتها وكان يرافق مفرزتنا كما مر ذكره لطفي العسلي وتوفيق الحلبي وهما على رأس مفرزتي تخريب ونزلا في بناء جنوب المدينة كان في الأصل مدرسة. وأرسل الأمير زيد الشريف مستور ومعه الضابط محمد علي العجلوني إلى السفوح الجنوبية من وادي الحسا ومعه قسم من عشائر الحويطات ليشكل هناك مخفراً أمامياً للطفيلة.

في صباح أحد الأيام وقد انقطعت الأمطار وانقشعت الغيوم وبدت لنا الشمس بنورها الدافىء بعد تلك الأيام القارسة والتي قضيناها في غرف الفلاحين التي استأجرناها لإيواء الجنود استفدنا من هذا الطقس فأخرجنا الحيوانات إلى العراء والشمس ولنقوم بتنظيفها كما أخرجنا الرشاشات لتنظيفها أيضاً في الساحات الواقعة جنوب البلدة، بينما كنت أتجول بين الجنود أثناء انشغالهم بتنظيف الرشاشات إذ شاهدت بالقرب منا رجلاً بالملابس الحجازية وقد مد عباءته على الأرض ونزع القسم الأعلى من ملابسه وكوفيته وكان مشغولاً في تنقية ثيابه من القمل. إن هذا المنظر غير غريب علينا ولكن الغرابة كون هذا الرجل الذي أتكلم عنه كان من الواضح أنه ليس عربياً.

فجسمه أبيض ناصع وعيناه زرقاوان ووجهه حليق اللحية والشارب قلت في نفسي هذا يجب أن يكون لورنس الذي نسمع عنه أنه يحاول التشبه بالبدو. كنت قد ذكرت في حديثي الماضي عن شعورنا نحن العرب العاملين في ميدان الثورة نحو وضعنا مع الإنكليز والعقدة النفسية التي تكونت عندنا نحوهم وإن في قرارة نفوسنا مجموعة من الأفكار المتضاربة بين كراهية الأتراك والحماس القومي والخوف من تبديل الحكم التركي الذي كان لا يزال في جذوره الكثير من روابطنا معهم باستعمار أجنبي لا تربطنا به أية رابطة. إن هذه العقدة النفسية كانت تتضخم وتثور كلما رأينا إنكليزياً أو إفرنسياً ويدفعنا شعورنا هذا بتأثير مركب النقص إلى الهزء منهم من حيث لا نقصد فأوحى لي منظر هذا الإنكليزي وكأنه يتعمد أن يرينا نفسه وكأنه أحدنا يشاركنا الحرب والمتاعب وحتى أنه يشاركنا التعرض للقمل وتحمله.

وإني متأكد أن لورنس لخبرته بالعرب خلال وجوده معهم قبل الحرب في الحفريات الأثرية ثم أثناء الثورة، فإنه يعرف حق المعرفة أنهم أذكى من أن تخدعهم المظاهر الكاذبة ولكنه يقصد قبل ذلك أن يخدع قومه الإنكليز فيظهر أمامهم بمظهر البطل المغامر الأسطوري الذي عرف العرب حتى صار واحداً منهم وفهمهم حتى قادهم وسيرهم في مصلحة بريطانيا، ومع الأسف قبل العرب هذه الخدعة بسكوتهم وعدم مبالاتهم وقبلها الإنكليز كحقيقة بالنسبة للنتائج التي وصلوا إليها عن هذا الطريق. اقتربت منه وقلت له مرحباً. فأجابني بكلمة هلا وهو يتصنع اللهجة البدوية ولكن لهجته كانت ركيكة جداً وظاهرة بوضوح. قلت له: هل أنت لورنس قال: إيوه وهز برأسه قلت: هل عندك قمل كثير. قال: وأنت أليس عندك قمل. قلت: اللّه لا يخلينا منه. قال: ليش. قلت له: ألا تدري أن البدو يقولون ذلك

لأنهم يعتقدون أن الرجل عندما يموت يغادر القمل جسمه حالاً ولذلك فهم يعتقدون أن الأموات هم الذين يخلون من القمل وضحكنا. سألته أين كنت تنام في هذا البرد والمطر فأشار إلى إحدى الغرف في بناء المدرسة التي كانت قريبة منا والتي كان يشغل غرفتها الثانية لطفي العسلي وتوفيق الحلبي. وفي أثناء ذلك اقترب منا أحد البدو فقال لي لورنس: هذا من ربعي. سألته كم واحداً معك قال: خمسة والعشرة البقاون ذهبوا لأهلهم ولم يعودوا بعد. قلت له: أنت مالك وهذه المتاعب فنحن نعمل لحرية بلادنا أما أنت فلماذا تعذب نفسك معنا. قال: أحب أن أتعاون معكم وأساعدكم. قلت له: لماذا هذا الحب والغرام. وكان قد حضر أثناء ذلك بعض الضباط فضحكنا جميعنا وكان لورنس يضحك ويهز برأسه يمنة ويسرى وهو يقول: لا.لا. وأثناء ذلك كان قد نهض ولبس ثوبه وسألني وهو لا يزال يبتسم: شو اسمك. قلت له: صبحي. قال: أنت يلي جئت من جيش غزة والتحقت من الهيشة قلت: نعم. قال: المعلومات التي أعطيتها إلى جويز كانت مهمة. وبعد ذلك كنت أشاهده في كل يوم أثناء التمارين في تلك الساحة فيتقدم منا لنتحدث معه. فهمت منه ومن البدو الذين كانوا معه أن عددهم لا يتجاوز الخمسة عشر وهم من عشائر متنوعة منهم من عقيل الحجاز ومنهم من الحويطات كل واحد من فخذ ومنهم من الرولة ومنهم من الصخور. إن جمعه لهم على هذه الصورة تدل على فهم وحسن إدراك لقد كانت الخوة (الخوي) أي الدفاع عن رفيق الطريق في ذلك الوقت من الأمور المهمة بين عشائر البدو لا يجوز الخروج عليها وعدم دفاع الخوي عن خويه يجلب العار ويجر إلى اختلافات ودماء. فالتعدي على الخوي يعتبر أعظم من التعدي على الشخص نفسه بل هو مما يمس بشرف وكرامة جميع القبيلة، فوجود لورنس أثناء تنقلاته مع هذه المجموعة المختلطة من جميع عشائر البدو الرئيسية في

المنطقة تجعل منه خوياً مصوناً أميناً يدافع عنه في أية منطقة كانت، من الحجاز حتى مشارف الشام، والأمر الثاني وهو مهم أيضاً، فإن المتجول في الصحراء أو ما جاورها لا بد له من دليل يعرف الطريق ومن دونه لا يمكنه التنقل من مكان لآخر، فهذه المجموعة كلها أدلاء كل منهم في ديرته. ولذلك، إن هذه العملية البسيطة كانت موفقة وبارعة. وفي حقيقة وواقع عمل لورنس أنه لا يحتاج إلى مقاتلين إنما حاجته إلى أدلاء واخوان وهذا العدد بهذه التشكيلة هو ما يحتاج إليه لا غير.

وكان تحت متناول لورنس المال الكثير ولذلك خصص لهؤلاء رواتب كبيرة ٦ جنيهات لكل منهم وهو يعادل راتب ثلاثة جنود نظامين وانتخبهم ممن يملكون هجناً قوية وجهزهم كما جهز نوقهم باللوازم القيمة غالية الثمن من شداد وخرج وغيره مما ليس مثله عند أكابر الشيوخ وكذلك ألبسهم الملابس البدوية الثمينة من عبي وزبونات وأثواب ودوامر جوخ وكفافي وعقل ومن الأسلحة ببندقية قصيرة (قلنطة) ومسدس وشبرية مفضضة وهذا أكثر مما يحلم به أي شاب من أبناء مشايخ البدو. ولا ننسى أن لورنس لم يكن يرتدي الملابس البدوية كما يتوهم أكثر من سمع أو كتب عنه بل كان يرتدي ملابس الحضر الحجازيين وهي تختلف جداً عن ملابس البدو. فملابس البدوي العادي مثلاً هي: ثوب مرودن (له أردان) وهو عبارة عن ثوب قطني مسدود من الأمام له أكمام عريضة وطويلة بشكل مخروطي يزداد عرضها من جهة الساعد ثم تستطيل حتى تصبح بطول متر خارج الذراع والثوب يصنع من القماش الأبيض القطني (منضة) ويرتدي فوق هذا الثوب زبوناً (نوع من القنباز) مفتوحاً من الأمام يصنع عادة من قماش الديما المقلم أو الجوخ لدى الأغنياء ويتحزم عليه بكمر أو قشاط جلد يعلق فيه خنجر يسمى شبرية معمولة من الفضة أو المعدن،

وإذا كان لديه مسدس فإنه يعلقه في حزامه في الجانب الأيسر ويلبس عادة فوق الزبون «دامر» وهو يشبه الصدرية الفضفاضة بأكمام عريضة مفتوحاً من الأمام كالسترة ولربما لبس تحت الدامر صدرية ضيقة بأزرار من خيوط وهذه الصدرية والدامر معمولان إما من الجوخ أو مما يشبه الجوخ، ويعلق على أكتافه أو يتمنطق بسيور من جلد مثبت عليها أمشاط العتاد (الفشك) للبندقية.

ويرتدي البدوي على رأسه كوفية على الأغلب بيضاء ويمكن أن تكون بألوان أخرى. وبعضهم تعارف على لبس نوع من ألوان الكوفيات المنقشة والمخططة كالتي يستعملها الجيش الأردني منها ما هو أحمر أو أزرق ولربما ارتدى البدوي حطتين فوق بعضهما. ويضع البدوي (جميع البدو) فوق حطته عقالاً أسود مبروماً معمولاً من شعر الماعز وبهذا لا يختلف أي بدوي عن الآخر. وأخيراً العباءة وهي معروفة الشكل والنوع. وينتعل البدوي في رجله نعلاً من جلد البعير يشبه ما نسميه بالصندل وفيهم من لا ينتعل شيئاً أو أنه يضع نعله على راحلته أو يعلقه على كتفه إذا كان راجلاً أو كان في أرض لا تؤذيه حجارتها وأما إذا كان في البادية فإنه يفضل الحفاء لأنه أكثر راحة له.

أما حضر الحجاز فإنهم يرتدون أولاً ملابس تحتانية (قميص وسروال) قطنية ذات أطراف تصل حتى الكاحل ويرتدون فوقها ثوب قطن أبيض مسدوداً من الأمام وله فتحة من الرقبة حتى أعلى البطن ذات أزرار وبنيقة (قبة) وأكمام تصل حتى المعصم حيث تزرر بزر أو اثنين ويرتدون فوق الثوب زبوناً من الجوخ مفتوحاً من الأمام وعند اللبس تنطبق كفته اليمنى على اليسرى بحيث تثبتا مع بعضهما بربطات من القماش نفسه من الداخل والخارج.

ولهذا الزبون بأطراف الرقبة قبة (بنيقة) بعرض اصبعين أو ثلاثة كما له اعتباراً من الرقبة حتى أسفل الصدر أزرار من

لون القماش ولكنها عادة لا تزرر ويوجد فرق كبير بين هذا الزبون وزبون البدوي إن كان بنوع القماش أو وجود قبة وأزرار وبشكل الردن أو بعرضه وانطباقه على الجسم. والحجازي الحضري لا يرتدي فوق الزبون دامراً ويلبس في قدميه جوارب وحذاء أما في حالة ركوب الهجين فإنه يستغني عن الجوارب ويستعمل النعل فيضعه في الخرج الذي تحته عندما يكون راكباً ويحتذيه عند النزول. والشيء الواضح جداً في ملابس حضر الحجاز العقال ذو المستطيلات المعمولة من القصب والحرير أو الحرير فقط فإنهم يضعون هذا العقال فوق كوفيتين على الأغلب واحدة فوق الأخرى فالأولى معمولة من قطن ناعم محبوكة الأطراف بطريقة جميلة والثانية ملونة من الحرير أو الصوف الناعم. ويضعون في وسطهم حزاماً من جلد معلق فيه وعلى وسط بطونهم خنجر ذهبي معقوف. وهذا الخنجر المعقوف لا يختص به الأشراف أو الحجازيون بل هو مستعمل عند أكثر المناطق الحضرية في جنوب الجزيرة العربية وعلى الأخص في اليمن، فإنك لا تكاد ترى يمانياً دون هذا الخنجر حتى لو كان متسولاً فإنه يتسول وخنجره في حزامه. فتمنطق الأشراف بهذا الخنجر المعقوف المصنوع من الذهب الخالص جعل بدو بلادنا وحضرهم وحتى الأجانب من الإنكليز وغير الإنكليز يظنونه شعار الأشراف يختصون به لا يرتديه سواهم أو من ينتمي إليهم، والآن نعود لنقول إن لورنس كان يرتدي ملابس حضر الحجاز وليس ملابس البدو كما هو واضح في الصور المنشورة له وكان ارتداؤه لهذه الملابس يدل على حيطة وحذر. فلو أنه ارتدى ملابس البدو، لكان عرضة للخطر ولما كان في إمكانه أن يتجاوز معسكر الأمير، أما ملابسه هذه كوثيقة الحماية ويبدو أنه كان يتحدث أمام البدو وغير البدو عن خنجره وملابسه وراحلته على أنها كلها من هدايا الأمير ليؤكد أنه من منتسبي الأمير وأخصائه.

٥

معركة الطفيلة الأولى

في أواخر كانون الثاني سنة ١٩١٨ أي بعد استيلائنا على الطفيلة بعشرة أيام كان وضعنا في الطفيلة والقوات التي فيها على الوجه التالي: كان الأمير زيد مع حاشيته وحوالى ٣٠ من متطوعة عقيل، معسكرين في جنوب المدينة بجوار مزار يقال له (جابر الأنصار) وحوالى ستين جندي مشاة يعسكرون بجوار البلدة بأمرة الضابط السيد عبد الله. نحو ١٢ جندياً بغالاً من بقايا سرية البغالة مع مدفع مصري بقيادة حسين المدفعي جاء مع السرية المذكورة من وادي موسى برفقة جعفر العسكري وسرية متطوعة من ٦٠ جندياً من الفلاحين والأرمن الذين تطوعوا في الطفيلة بأمرة الضابط سليمان الجنابي، المدفع الجبلي الذي غنمناه من جرف الدراويش ومفرزة التخريب بقيادة توفيق الحلبي ولطفي العسلي وسرية الرشاش الراكبة التي هي بقيادتي من ٤ رشاشات فيكرس. مجموعة من متطوعة قبائل عقيل مع الشريف مستور، هذه هي القوة النظامية في الطفيلة يوم ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٨. أما العشائر فلم يكن بقرب الطفيلة منهم سوى حويطات تلك النواحي ويرأسهم حمد بن جازي (لأن عودة أبو تايه كان قد عاد إلى مضاربه في الجفر) أما باقي العشائر فقد تفرقوا بعد موقعة جرف الدراويش، ولما استولينا

على الطفيلة لم يكن قد بقي منهم أحد سوى الحويطات وكان ذلك طبيعياً لصعوبة بقاء هذا الجمع بمثل ذلك الطقس البارد الممطر دون خيم. فذهب كل منهم إلى عشيرته وجميعها قريبة من الطفيلة، وموزعة بأطرافها. وظننا في بداية الأمر أن تفرق البدو سيضر بمجرى المعركة ولكن تبين فيما بعد أنه سبب العكس فالتحاقهم بالمعركة أثناء احتدامها من جميع الأطراف أوقع الارتباك بالعدو. وكان من أهم أسباب النصر.

في صباح يوم ٢٤ كانون الثاني بينما كنت مع باقي الضباط عند قائد المفرزة راسم سردست تسلم علي عبدالله الدليمي قائد المفرزة الجديدة الذي أتى حديثاً لاستلامها من راسم، وصلنا أمر مستعجل من جعفر باشا يطلبهما بسرعة فذهبا حالاً وفي الوقت نفسه فهمنا أن طلبهما يتعلق بزحف يقوم به الأتراك بقوات كبيرة ويظهر أن هذا الخبر قد شاع وزاع في البلد وبين الجنود فخرج الأهالي رجالاً ونساءً وأطفالاً خارج بيوتهم جماعات جماعات يتحدثون عن زحف قوات الأتراك والجميع يبالغون بعددها جتى جعلوها مثل النمل. وبعد قليل عاد الاثنان ليصدرا الأمر بالتهيؤ والاجتماع في الساحة التي بقرب المدرسة. سألتهما من منكما القائد فضحكا وكل منهما أشار إلى الآخر، ولكن فهم أن القائد قد أصبح عبدالله الدليمي وأن راسم سيشترك في المعركة لمساعدته. وتجمعنا في الساحة وأصبحنا مستعدين للعمل وكانت الشائعات والأخبار تأتي متلاحقة وفيها الشيء الكثير من المبالغة عن قوة العدو وعلمنا أن الأمير أرسل الرسل لتجميع العشائر التي في تلك الأطراف وليدبوا الصوت (ودب الصوت يعني أن يصرخوا بأعلى أصواتهم يحثون الرجال للذهاب للقتال ودب الصوت هذا يكرره كل من يسمعه من رجال ونساء ليسمعه الآخرون وبذلك تجد هذا الصوت ينتقل من مخيم لمخيم ومن فريق لآخر ومن جماعة

لأخرى بأسرع ما يتصوره الإنسان، وبالتأكيد لو أن بين هؤلاء البدو شبكة من التلفونات لما أوصلت إليهم خبر النجدة بأسرع ما يوصل إليهم بهذه الطريقة. ولا تظننَّ أن وصول خبر الفزيع (أو الفزعة) على هذه الصورة يجعل رجال كل جماعة أو فصيل أو قبيلة يتجمعون ويسيرون نحو المكان المقصود جماعة بل كل واحد ممن يسمع الصوت يتناول سلاحه ويأخذ أولاً شيئاً مما تعطيه له أمه أو زوجته من الزاد ويتوجه فوراً، وإذا كان المكان غير بعيد، فإن بعض النساء تتعقب الرجال بالماء. وحوالى الظهر تلقينا أمراً باحتلال التلول التي في شرق جنوب البلدة وتوزعت القطعات التي ذكرتها في خط دفاعي متجه للشمال باتجاه العدو المنتظر مجيئه من طريق الكرك والدفاع في المكان الذي كنا فيه غير مجدٍ لتسلط الجبال عليه. وهكذا بتنا في المواضع متهيئين للقتال حتى الصباح وكانت الأخبار تأتينا بصورة متواصلة تنبئنا عن تقدم العدو. وآخر أخبار الصباح تفيد أنه قد اجتاز منحدرات وادي الحسا الجنوبية وهو متجه نحونا وأن الشريف مستور وخيالته تقوم بحرب الإعاقة وبأن عربان الحويطات بدأت تصل إلى أطراف خط مسير العدو. وقبل الظهيرة مر بنا الأمير زيد وبرفقته جعفر باشا العسكري وراسم سردست وبدأ جعفر باشا يوجه إلينا كلمات التشجيع والاستخفاف بالعدو ويطلق نكاته وضحكاته المعروفة. ثم توجهوا مع من معهم من الخيالة والهجانة من عقيل وغيرهم يرافقهم ذياب العوران. وبعد ذلك جمعنا عبدالله الدليمي وبلغنا أنه تقرر أن يذهب قسم منا لمقابلة العدو والقسم الآخر سيبقى هنا في هذا المحل للدفاع إذا اقتضى التراجع فالذين سيبقون هم المشاة (نحو ١٢٠ جندياً) والمدفع المصري ورشاشتان وأما المتقدمون فهم: المدفع التركي ورشاشتان والبغالة على أن يرافق المدفع حضيرة مشاة من عشرة جنود وأن قائد الموقع للدفاع سيكون الرئيس نامق. وعقب هذه الأوامر التحق عبدالله الدليمي بالأمير ومعهم

الاثنا عشر بغالاً. وأنا بدوري أمرت الملازم بهاء الدين نوري أن يبقى مع فصيله في الموضع وأخذت الفصيل الثاني الذي كان بأمرة نائب الضابط أحمد وتوجهت على الطريق ومن خلفي المدفع التركي. وهذا المدفع من طراز (منتللي) وهو طراز قديم يرجع إلى أوائل القرن الماضي يعمل بطريقة حشو قنبلته من الفم بحيث يوضع أولاً كيس البارود ثم الطلقة (الكرة الحديدية) ثم يجري إطلاقه بطريقة وضع بارود بخرق يتصل من الخلف بكيس البارود وهكذا ينطلق وكلما خرجت منه إطلاقة اندفع من جراء الصدمة إلى الخلف وفي أكثر الأحيان ينقلب فيعاد تثبيته مرة أخرى.

هذا هو المدفع الذي نحن زاهون به لمقابلة الجيش التركي الزاحف، مع ذلك فقد كنا نملك سلاحاً أقوى وأمضى وأفتك مما كان في حوزة عدونا وهو عزمنا وقوة إيماننا بالنصر. في حوالى العصر اجتزنا منحدرات مشارف الطفيلة ووصلنا إلى أرض مسطحة نسبياً وهو الموقع المسمى بالنوخه وهو واقع في أرض متعرجة على الطريق العام وهناك شاهدنا الأمير زيد ومعه من ذكرناهم مضافاً إليهم حمد بن جازي ولورنس وقد تفرقت جماعاتهم مستترة خلف بعض المرتفعات يوجهون نواضيرهم نحو العدو الذي كان يشغل مواضع على طرفي الطريق وعلى بعد ٣٠٠٠ متر من موقع (نوخه) الذي نحن فيه. وأثناء الطريق مرت بنا امرأة تسوق حماراً يحمل جثتين ملفوفتين بعباءتين تسوق الحمار وهي تئن بصوت مختنق ولما سألنا النساء الأخريات قلن: إنهما جثتا زوجها وأخيها قتلتهما قنبلة مدفع تركي.. وكان الموقف هادئاً تقريباً من كلا الطرفين. لا إطلاقات مدافع ولا رمي بنادق، لأن المسافة بيننا كانت بعيدة، وكنا نسمع أصوات بنادق تأتي من بعيد من اتجاهات مختلفة. وبعد نحو نصف ساعة وصل المدفع وبعد قليل حضر

جعفر باشا وراسم وعبدالله الدليمي للمحل الذي نحن فيه وطلب آمر المدفع وقال لنا الدليمي: إنهم لاحظوا أن العدو توقف عن التقدم، ويظهر أن البدو والفلاحين قد ضايقوه من جميع أطرافه وهم في تكاثر وأنهم قرروا أن يذهب راسم مع الخيالة يرافقهم حمد بن جازي لضرب العدو من خلف جناحه الأيسر وعلى المدفع أن يأخذ موضعاً (وبين له راسم محل الموضع) ويتهيأ للرمي وأن الرشاشتين تأخذان موضعاً مناسباً في غرب الطريق وهذا ما فعلناه. وهكذا تحرك راسم مع ابن جازي والخيالة الاثني عشر واختفوا عن الأنظار بين منحدرات التلال التي في شرقي الطريق ومنعرجاتها. أما أنا فأدخلت الرشاشتين في موضع مناسب في غرب الطريق كما وضعت الحيوانات في محل مستور وجلست أترصد بناضوري مواضع العدو.

كانت مواضع العدو على سلسلة هضاب تمتد على جهتي الطريق شرقاً وغرباً. والغريب أن العدو الذي لا بد أنه شاهد تجمعنا في المكان الذي نحن فيه لم يرمنا بمدافعه التي كنا نسمع رميها طيلة ذلك النهار. شاهدت أثناء ترصدي تجمعاً من الفلاحين على تل يبعد بنحو ٥٠٠ متر عن جناح العدو الأيمن وكان عددهم يزداد وكنا نسمع حداءهم وصراخهم.

قلت لنفسي لو قدر لهؤلاء من يشجعهم على التقدم على جناح العدو الأيمن لفعلوا العجب. ثم استمرت هذه الفكرة تتوسع كلما سمعت أصواتهم وكثر جمعهم. وخطر لي أن أطلب إلى جعفر باشا أن يسمح لي بالذهاب إليهم لأشجعهم وأساعدهم بالرشاشات ولكن جعفر كان بجانب الأمير زيد وكنت لا أعرفه ولا هو يعرفني فخفت أن يهزأوا بي. وكلما مر الوقت كنت ازداد قناعة بنجاح فكرتي حتى أصبحت أعتقد أنها ستكون حتماً سبباً للنصر وبدأت أفكر بطريقة مناسبة لتطبيقها. وأخيراً

لم أجد لها طريقة سوى أن أقوم بهذا العمل دون استحصال على أمر لأنه إذا رفض القائد الموافقة وهذا هو المنتظر فيصبح القيام بها غير جائز أما إذا قمت به بدون أمر فإنه سيعتبر تشبث شخصي على مسؤوليتي وهذا جائز بالعرف العسكري ويستوجب التقدير إذا نجح أو اللوم والعقوبة إذا فشل كما كان سيتعرض له حامد فخري نفسه لو بقي حياً أو كما وقع لي فعلاً من التقدير عقب المعركة مباشرةً. قررت أولاً أن أقوم على مسؤوليتي وبحركة سريعة جداً لا أدع خلالها وقتاً لاعتراض القائد فاجتاز الأرض المنحدرة التي أمامي متوجهاً نحو الوادي الذي يفصل بيننا وبين العدو على أن أجتاز هذه الأرض المكشوفة بسرعة فائقة قبل أن يتمكن العدو من الانتباه وتوجيه نيران مدافعه ورشاشاته علينا وقبل أن يتمكن قائدنا من إيصال أمره بعودتنا بحيث نجتاز هذه المنطقة ونصل إلى الزاوية الميتة التي تحجبنا عن نظر كلا الطرفين. وبعدها أقرر خطة الوصول إلى التل الذي عليه الفلاحون بعد أن أتعرف هناك على طبيعة الأرض. جمعت آمر الرعيل وأمراء الرشاشتين (في كل رشاشة ثمانية جنود) وعليهما عريف فيكون المجموع ١٧. أمرت نائب الضابط أن يبقى مع الحيوانات وأن تترك الرشاشات المناصب الكبيرة وتكتفي بالمناصب الصغيرة (والمنصب هو الركيزة). وبعد أن بينت لهم خطة التقدم وبإشارة اندفعنا بغتة نحو الوادي وبعد فترة فتحت علينا جميع رشاشات العدو نيرانها وكانت على ما يظهر كثيرة وبقينا نجري تحت هذه الأفواه النارية الماحقة دون توقف وكان كل واحد منا متأكداً أن كل ثانية يضيعها للوصول إلى الزاوية الميتة التي أمامنا تعرضه للموت المحتم لأن العدو أيضاً بوغت بهذا التقدم المفاجىء. وبطبيعة الحال إن رشاشاته لم تكن مهيأة لرمي هذه الساحة التي قمنا باجتيازها فجأة وبسرعة فإنهم يحتاجون إلى دقائق كي يخمنوا المسافة ويركزوا النيران،

ولم يكن أمامنا نحن من طريقة لتجنب هذه النيران سوى سرعة الحركة وقتل الوقت الذي هم بحاجة إليه لتركيز الرمي، وهذا ما حصل بحيث ما كادوا يخمنون المسافة ويركزوا نيرانهم علينا حتى صرنا في الزاوية الميتة من منحدر الهضاب. وهناك ارتمينا على الأرض يكاد كل واحد منا أن يختنق من الأعياء وضربات القلب. حكى لي الدليمي قائد المفرزة في اليوم التالي أن الأمير والقائد جعفر ومن معهم اعتبروها حركة جنونية وأنهم قرروا معاقبتي. وبعد أن ردت إلينا أنفاسنا استأنفنا التقدم في الوادي بأمان حتى أسفل سفح الجبل الذي يشغله العدو وهو خط (حد الدقيق) ومن محلنا كنا نشاهد التل الذي فوقه الفلاحون وقد أصبح على يسارنا تماماً وعلى بعد نحو ٥٠٠ متر. وهنا بدأت افتكر بالطريقة التي توصلنا إليهم هذا بعد أن أمرت الرشاشتين بأخذ موضع باتجاه العدو الذي أصبح لا يرانا ولا نحن نراه. وفي هذه الأثناء شاهدت ثلاثة أشخاص مقبلين علينا من بطن الوادي الذي نحن فيه. فلما وصلوا سألتهم من أين أتيتم قالوا من الطفيلة وأنهم متوجهون نحو الجمع الذين على التل وفهمت منهم أن هؤلاء الفلاحين هم أهل قرية عيما وكان اثنان من عيما ويريدان الالتحاق بهم والثالث جندي يماني ترك سريته بقرب الطفيلة وجاء ليقاتل. أخبرونا أنهم سمعوا أن عساكر كثيرة جاءت من وادي موسى تقوية لنا وربما أنها قد وصلت الطفيلة سألوني أنتم ماذا ستفعلون وبلمح البصر حضرتني فكرة جديدة اعتقدت أنها أحسن طريقة توصلني لغايتي. فقلت لهم إننا سرية رشاش ننتظر هنا وصول عساكر المشاة وسيصلون بعد قليل. وعند وصولهم سنقوم بمهاجمة العدو ثم قلت لهم: خبروا أهل عيما الذين على التل أن لا يقوموا بالتقدم أكثر من ذلك لحين نشرع به نحن فعندها نكون نحن أشغلناهم بالرشاشات من الأمام وبذلك نؤمن لهم التقدم دون خطر فسروا بذلك ثم قلت لهم

خبروا جماعتكم ذلك وأعلموني بموافقتهم على توحيد هذه الحركة بأن تلوحوا لنا بكفية بيضاء. وأنا سوف لا أتحرك أو أفتح النار إلا إذا رأيت هذه الإشارة منكم وستعرفون أنني بدأت بالحركة من سماعكم أصوات الرشاشات والبنادق. وتوجه هؤلاء الثلاثة بسرعة ونشاط ونحن نتعقبهم بأنظارنا إلى أن وصلوا واجتمع عليهم قسم ممن كان على التل ثم شاهدنا عدة كفافي بيضاء يلوحون بها فلوحنا لهم نحن أيضاً بكفية تعني بأننا شاهدنا إشارتهم، إن لكل رشاشة ثلاثة جنود يستعملونها أثناء الرمي وباقي الخمسة يحملون صناديق العتاد والماء ومع كل منهم بندقية فكان لدينا إذاً ١٦ بندقية وكان مع كل رشاشة طقاقتان وهي «فرارة» معمولة من خشب ذات أسنان إذا لوحنا بها فإنها تخرج صوتاً أشبه بصوت الرشاش تستعمل للتعمية ولإيهام العدو عند اللزوم بكثرة الرشاشات. وزعت الجنود والرشاشات والطقاطيق على مسافة خمسين متراً وأمرتهم بكيفية تعاقب الرمي وتشغيل الطقاطيق ورمي البنادق للإيهام بكثرة الرشاشات والبنادق وبدأنا بالرمي نحو استقامة العدو دون أن نراه ولا يرانا. وشاهدت بتلك اللحظة أهل عيما وقد بدأوا بالتقدم وارتفعت أصواتهم أكثر من الأول وبدأنا نحن أيضاً بالتقدم البطيء والرمي المتصل متسلقين الجبل وبدأنا نسمع مدفعنا وهو يرمي بعض الطلقات وكذلك مدفعية العدو وهي ترمي موقع نوخه الذي فيه المدفع. وغاب الفلاحون المتقدمون عن نظري ولكنني كنت أسمع أصواتهم فتشعرني بتقدمهم وبمقدار المسافة التي وصلوا إليها والتي كانت تقصر بسرعة زاد تقدمنا وقد كنا على بعد نحو ثلاثين متراً من القمة عندما حصلت ضوضاء في أقصى يمين جناح العدو فالاشتباكات القريبة لا تخفى علينا ولقد فهمت منها أن الفلاحين وصلوا إلى العدو وهو بحالة هزيمة لأن أصوات الطلقات انقطعت تقريباً وسمعت صوت العريف

عبدالقادر ينادينا ويشير لنا من على القمة بهـزيمة العـدو، وقد انـدفع هـذا العريف من اليمـين واعتلى القمـة قبل أن نصلهـا نحن. وصلنا القمة ورأينـا الفلاحـين يتراكضـون خلف الجنود والضبـاط وهؤلاء يستغيثون ويطلبـون الأمان. وقـد شـاهـدت بقربي ضابطـاً ضخماً قصيـراً يحاول الجـري وهو خـائف ولم أشعر إلا وأنا أركض نحـوه وأمسكه من رقبتـه فصاح (أمـان أوغلم) دخيلك يا ابني قلت لـه لا تخف فرجـاني أن أسمح لـه بالجلوس لأخذ نفس فتركته لأحد الجنـود. لم يكن أمامي شيء أفعله، فالرمي غير ممكن لأن الفلاحين قـد اختلطوا بـالعسـاكـر ولم يبق أيـة مقاومـة وبدأ الفـلاحون يـأتـون بمـا وجـدوه من الرشاشات فيضعونها أمامي طالبين مني قيد أسمائهم ليأخذوا عنهـا مكافـأة، وأما البنـادق فإنهم يحتفظـون بها وقـد اهملوا الجنود فكانوا يأخذون بنادقهم ويرسلونهم إلينا وجميعهم كانوا متعجلين لا يريد أحدهم أن يضيـع لحظة من الوقت ليتمكن من الاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم.

وخلال ساعة غاب عنا الفلاحون ولم نعد نرى أحداً لا منهم ولا من الأتـراك إلا بعض أصوات البنـادق التي كـانت تـأتي من بعيد. وبدأت الشمس بالمغيب وبقينا وحـدنا ننتظـر الأمر وقـد أصبح أمامنا كومة كبيرة من الرشاشات وأدواتها ونحو ثمانـين أسيـراً بين ضـابط وجندي وكنـا في حالـة نكاد نطـير فيها من الفرح. وعقد جنودنا حلقـة وراحوا يغنـون ويرقصـون. وأقبلت علينا البغال وبرفقتهم المراسل الذي أرسلته ومعه قصاصة من القائد العام وفيها شكر حار وأمر بعودتنـا إلى الطفيلة فحملنـا الـرشاشـات وأدواتها التي غنمنـاها عـلى بغال ركـوب الجنود وأركبت ذلـك الضابط الكهـل الذي تكلمت عنـه على أحـد بغال الركوب لأنه كان تعباً ومنهاراً وهو برتبة مقدم واسمه كنعان بك وهو قائد اللواء الأيمن. وسـألني أثناء الطـريق إن كان قـادتنا

من الإنكليز، فأخبرته بالحقيقة، وهي أن جميع قادتنا من العرب وكانوا في الجيش التركي سابقاً. فأبدى عجبه لأن الدعايات التي روجوها بين صفوف الجيش تؤكد عكس ذلك. وهكذا سرنا وأمامنا الأسرى يسيرون برتل مزدوج بعد أن أفهمتهم أن لا يحاول أحد منهم الهرب لأن البدو يقتلونه وليس له من مفر وآمن مكان له هذا الذي هو فيه أما إذا كان أحدكم لا يصدق فليتفضل ويخرج من الصف ويذهب أينما شاء فقالوا: لا. لا. نحن ممنونين منكم وكان المقدم يسير بجانبي، ولما وصلنا إلى المنحدر الذي اجتزناه تحت نيرانهم سألني كنعان بك الستم سبعة عشر شخصاً قلت له نعم عداي أنا قال: واللّه كنا نعدكم وأنتم تجتازون هذه المنطقة ونتعجب منكم وكنت أسأل نفسي عما كنتم تريدون عمله وأنتم ١٨ مع رشاشتين. قلت له: كنا نريد ما رأيت فقال هذه الجملة التي لا أزال أذكرها ما ترجمتها بالحرف ومعناها بالعربي: (واللّه يا بني إذا كنتم جميعكم تعملون بهذه الروح فإنكم ولا شك ستستقلون وتطردوننا من بلادكم). حكى أحد الضباط الذين عادوا من الأسر بعد الحرب أن كنعان بك هذا انقلب بعد وصوله إلى معتقل القاهرة إلى عدو لدود للعرب رغم المعاملة الحسنة التي عاملناه بها. ولما وصلنا إلى نوخه لم نجد فيها أحداً فاستأنفنا المسير حيث وصلنا الطفيلة قبل منتصف الليل. وقابلني جندي كان ينتظرنا في مدخل المدينة وبلغني أن القائد يطلب حضوري ومشى معي لدار ذياب العوران فلما دخلت وجدت هناك الأمير زيد وجعفر باشا وعبداللّه الدليمي وراسم سردست وذياب العوران ومعهم لورنس فاستقبلوني بالترحيب وبالعناق وأجلسوني يستفهمون مني الوضع ولماذا قمت بتلك الحركة فأفهمتهم المسألة كما رويتها. قال لي جعفر باشا أثناء الحديث: أتدري لماذا كنت أمانع في نقلك من المقر إلى القطعات المحاربة حينما التحقت. لأنني كنت أراك طفلاً لا تصلح

لخوض المعارك شفقة مني عليك ولكنك برهنت على أنك غير ذلك. فأجبته: «يا باشا ليش المسألة لحية وشوارب فالهر أيضاً له شوارب» فضحكوا جميعهم، فصاح جعفر وهو يتظاهر أنه يريد أن يضربني قائلاً: «يا ملعون يلعن...» وكان لجعفر باشا رحمه اللّه لحية وقد صدرت مني هذه العبارة عفواً ودون انتباه وكانت نكتة ولكنني استحييت جداً وصرت أعتذر له. وجعفر مشهور بنكتته وبحبه للمزاح وبخفة دمه وتواضعه مع بساطة وسلامة قلب. ثم أبلغوني بترفيعي إلى رتبة ملازم أول ومنحي إكرامية ألف جنيه ذهباً فشكرتهم على الترفيع ورفضت الألف جنيه وبعد الإصرار قبلتها باسمي واسم الجنود. فوزعت من هذا المبلغ ستماية جنيه، منها اربعماية على الرعيل الذي كان معي ومائتين على الرعيل الآخر والأربعمائة الأخرى جعلتها ذخراً في صندوق السرية الذي شكلت له هيئة برئاسة رئيس العرفاء ليصرف منها على حاجات الجنود وترفيههم، وقد كان لهذا العمل أثر بالغ في تقوية القوة الأدبية في الجنود وشدة ارتباطهم بالسرية وازدياد شوقهم للعمل كما أن هذه الوقعة الموفقة جعلتهم يفتخرون بسريتهم ويعملون لزيادة رفع شأنها. كما أن هذه الموقعة عرفتني إلى باقي القادة والضباط والأشراف وزادت في اعتباري بحيث أصبحوا يعيرون اهتمامهم لجميع مطالبات سريتي. وكانت السرية من حيث الإدارة مستقلة تنظم جداول الرواتب بمعرفتها فتسلم لنا الرواتب حسب تدوينها أي لم يكن هناك من يحاسبني على عدد الجنود وضباط الصف ورواتبهم حسبما يطلبه ملاك معين فنظمت المراتب وأعطيت الرتب حسبما يلزم وكنت أرفع الجنود ضمن صلاحياتي وأقبل المتطوعين ممن نأخذه من أسرى العرب فأضيفهم إلى ملاك السرية. وقد رتبت بفكري ملاكاً جديداً غير مألوف. فالرشاشة في العادة تتشكل من ثمانية جنود خمسة يستعملونها أثناء القتال وثلاثة لحيوانات الحمل. فصرت أوسع

هـذه الأعداد إلى أن أصبـح موجـود كل رشـاشة ٢٠ جنـديـاً وضـابط صف ثمانيـة للرشـاشة واثنـا عشر حملـة بنـادق أي حضـيرة رشـاش وحضـيرة بنـادق وفي الأصـل تعتبـر سريـة الـرشاش قـوة نار لا يمكنهـا أن تكون قـوة حـركـة تتمكن من الاستيلاء على موقع مـا فهذه من أعمـال المشاة حملـة البنادق وهذا التنظيم الذي ابتدعته جعـل من السرية قـوة نار وحـركة وبذلك أصبح في إمكاني الـدخول في المعـركة والقيـام بالهجـوم والإسناد معاً. وقد نجح هذا الترتيب معي أي نجاح.

في الصبـاح جمعنا كـل ما كـان عندنـا من الـرشـاشـات التي غنمناها في الساحة التي قرب المدرسة وبدأنا بتنسيقها وترتيبها اقترب مني لورنس أثنـاء ذلك وصـار يحدثني عن انطبـاعاتـه عندما شاهد تقدمنا ونحن مسرعون نحو الـوادي وقال: إنـه ما كان ينتظر أن يصـل منا أحـد سالمـاً ثم طلب إلي أن يأخـذ لي صورة بين تلك الرشاشات وكان عددها قد بلغ الـ ٢٨ رشاشاً، فتشكل منها ومن أدواتها كومة كبيرة ولمـا وافقته ذهب للغـرفة وأتى بماكينة تصوير وأخذ لي صورة لوحدي وأنـا في وسط هذه الكومة من الرشاشات ثم وقف بجانبي. وأعطى الماكينة لخادمه فأخذ لنا نحن الاثنان صورة أخرى. وبعـد مدة أراني لـورنس مجلـة إنكليزيـة وفيها تلـك الصورة التي كـان فيهـا بجـانبي. واعتذر عن عدم إمكـانه إعطـاءها لي بسبب عـدم وجود غـيرها لديه إنما وعدني بأن يأتيني بواحدة ولكنه لم يف بوعده. إنني لم أقـرأ مـا كتب تحت تلـك الصـورة لعـدم معـرفتي بـاللغـة الإنكليزية في ذلك الوقت ولكن بعد أن مرت السنـون وقرأت مـا كتبه لورنس عن مـوقعة الطفيلـة وما كتب عنهـا وعن أنه كـان بطلها وقائـدها وعن مكـافأتـه بأكبـر وسام عسكـري إنكليزي وبرتبة كولونيل أقول عند ذلك خطرت لذهني تلـك الصـورة ومـا كان يمكن أن يكون كتبه لورنس لتلك المجلة عن أنـه هو الـذي

غنم هذه الرشاشات وأن الشخص الذي بجانبه تابعه. وثاني يوم المعركة سبق للنقيب إسماعيل نامق أن جلس في دائرته ليتسلم من الفلاحين والبدو ما يأتون به من أسرى ورشاشات وكان يدفع ثلاثة جنيهات عن كل ضابط وجنيه عن كل جندي وثلاثة جنيهات عن كل رشاشة وجنيه عن كل رشاشة صغيرة. وتشكلت مفرزة من الضباط محمد علي العجلوني وأشرف أحمد وسجان الجناسي لإيصال الأسرى والرشاشات إلى المقر العام في القوره.

إن من كتبوا عن معركة الطفيلة (على قلتهم) قد اختلفوا في تعداد قوة العرب وقوة الأتراك وهؤلاء الكتاب جميعهم ممن لم يشاهدوا هذه الموقعة. ففي الفقرات السابقة بينت قوة الجيش العربي والمحاربين وأن ما بينته هو الحقيقة التي لا تقبل الشك أما ما يتعلق بقوة الأتراك فنحن مع الأسف لم نتثبت في حينها من الوجود الحقيقي عبر سؤال الأسرى وكان ذلك سهلاً، ولكن مع الأسف أن قيادة جيشنا لم تعتن بتدوين تاريخ الحرب، وهذا هو السبب في الاختلاف الذي حصل في تدوين مقدار قوات العدو في أكثر الوقائع. وتسهيلاً وتطميناً لمن يريد تدوين الوقائع من المؤرخين وتقديراً لكوني سأكون في نظرهم ممن دوّن مشاهدات الوقائع وعاشها، سأصرف جهدي أن أفرق فيما أدونه بين الرؤية والسمع والاستنتاج كي لا يكون القارىء حائراً بين الحماس وحكم العاطفة والسمع غير المبني على التمحيص وبين الوقائع الموضوعية. إن المصادر التركية تقول أن قوة حامد فخري كانت ٦٠٠ جندي و٢١ ضابطاً عاد منهم إلى الكرك ٤٢٠ وأسر منهم ١٥٩ والأستاذ سليمان موسى يقول في كتابه (لورنس والعرب): إن قوة الأتراك كانت ٩٠٠ مقاتل ومدفعين هاوتزر و٢٧ رشاشة استولى العرب على جميع الرشاشات والمدافع وأخذوا ٢٥٠ أسيراً منهم ٢٥ ضابطاً

وعدد القتلى كان ما لا يقل عن ٤٠٠ قتيل وأن من عاد منهم إلى الكرك لا يزيد على ٥٠ جندياً.

لقد اجتمعت في دمشق في المدة الأخيرة بالزعيم جميل البرهاني وهو ضابط متقاعد من الجيش السوري، وإنني أعرفه منذ سنة ١٩١٩ وكان برتبة ملازم في سريتي عندما كنت في بعلبك في العهد الفيصلي، وعلمت منه أنه كان من منتسبي فرقة حامد فخري وكان في سرية رشاش الفوج ٣ المنسوب إلى اللواء ١٥٠ الذي اشترك في معركة الطفيلة، ودونت عن لسانه المعلومات التالية:

كان العقيد حامد فخري ضابطاً خيالاً وقائداً للفرقة ١٦ التي ألحقت بالجيش الألماني الذي كان يحارب في رومانيا، وأن حامد فخري نال شهرة عظيمة عندما دخلت فرقته العاصمة الرومانية ولقبه الأتراك بفاتح بكرش. ونقل بعد ذلك إلى قيادة الفرقة ٤٨ التي أرسلت إلى سوريا وعهد إليها بحماية منطقة الخط الحديدي من عمان حتى محطة الفريفره. والألوية الثلاثة المنتسبين لهذه الفرقة هم اللواء ١٥٠ بقيادة فائق بك واللواء ١٥١ بقيادة كنعان بك واللواء ١٥٢ بقيادة يرتو بك. لم تشترك الفرقة بأجمعها في المعركة بل تركت قسماً من قطعاتها في مناطق مسؤولياتها. وهو يقدر عدد المشتركين من قطعات المشاة بألف وخمسماية يضاف إليهم سرية الخيالة وبطارية المدفعية وسرية الهندسة وسرية النقلية والمخابرة وفصيل الخبازين وسرية المقر. كما ألحق بهم قوة من مرتبات درك الكرك بأمرة اللازم محمد الحموي وعدد من متطوعة عشائر الكرك ومعهم مشاق المجالي، فيصبح المجموع بما لا يقل عن ألفي جندي. أنه لا يعرف عدد القتلى ولكنه علم أن عدد الذين نجوا كانوا قليلين جداً. وقال انه تداول على الأسماع أن جمال باشا الصغير الذي كان وقتها قائد الفيلق الذي تنتسب إليه هذه

الفرقة. صرح أن حامد فخري لو لم يقتل في معركة الطفيلة لكان أعدمه لأنه قام بهذه الحركة دون أمر وبالرغم من أنه أمره بعدم مغادرة الكرك.

وفي سنة ١٩٢٤ تعرفت في بغداد على العقيد المتقاعد توفيق يرتو وعلمت منه أنه كان قائداً للواء ١٥٢ وأنه تمكن من النجاة والوصول إلى الكرك مع ١٧ شخصاً فقط ولكنني مع الأسف لم استفسر منه عن تفاصيل هذه المعركة.

إذاً بموجب هذه التقديرات أن مجموع قوة الأتراك التي اشتركت بمعركة الطفيلة لا تقل عن ألفين منهم ١٥٠٠ من المشاة والباقون من القطعات الملحقة التي ذكرناها. اسر منهم ٢٥٠ وإذا فرضنا أن الذين تمكنوا من الوصول إلى الكرك والفريفره ٤٢٠ كما ادعاء الأتراك فيكون مجموع القتلى لا يقل عن ١٣٣٠.

وعندما جلس قائممام الطفيلة النقيب إسماعيل نامق ليدفع إكراميات الفلاحين كان بجانبه كنعان بك. أما مدفعا الهاوتزر اللذان تركهما الأتراك فقد بقيا في مكانهما مخربين وغير صالحين للاستعمال. أما مجموع الرشاشات التي جمعت وسلمت إلي فكان عددها ٢٨ رشاشة ماكسيم كبيرة و١٤ رشيشاً.

أما فيما يتعلق بسير المعركة، فلقد شرحت فيما سبق صفحاتها من بدايتها إلى نهايتها، فيتبين من ذلك أنه لم يكن هناك بالنسبة لنا خطة مقررة. لقد كان الأتراك هم المهاجمون يستهدفون الاستيلاء على الطفيلة، ولم تكن قيادتنا تنتظر هذا التعرض، وكانت قوات البدو متفرقة عند أهاليهم.

ومن خلال دهشة المفاجأة وضخامة الأخبار التي وردت عن قوات العدو تقرر إخلاء الطفيلة وأخليناها فعلاً وسحبنا منها

جميع ما لنا فيها من تجهيزات ومهمات وتقرر أن نشغل الهضاب التي في الجنوب الشرقي من البلدة وأشغلناها وكان معلوماً أن هذه الهضاب لا يمكن أن تكون مواضع دفاع مستكن في اتجاه عدو يتقدم إلى الطفيلة من الجبال الشمالية والمشرفة عليها، ولذلك كانت مواضع مؤقتة بقصد التعويق وانكشاف الموقف. فالأحداث والوقائع والظروف العديدة هي التي سيرت الأمور وخطت الخطة وقامت في الوقت نفسه بتحويرها وتبديلها تلقائياً دون أن يكون لأحد حق الادعاء أنه نظمها أو خططها.

يؤخذ على الشريف مستور مثلاً أنه كان عليه أن يشغل الطنوف الشمالية من وادي الحسا وأنه لو فعل ذلك لما تمكن العدو من اجتياز الوادي بتلك السرعة ولكانت حركته تأخرت ليوم أو ليومين ولكان البدو تجمعوا خلال هذه المدة ولكانوا قابلوا العدو مجتمعين ولما وصلوا إلى ميدان المعركة متفرقين من كل ناحية وكل وادٍ وكل شعب، فلو حصل ذلك لتغير وجه المعركة. إن غلطة الشريف مستور كانت في صالح العرب على أية حال لأن وصول البدو والفلاحين متفرقين على هذه الصورة ومجيء بعضهم من خلف العدو من داخل الوادي الذي كانوا يقضون موسم الشتاء بداخله جعل الجيش داخل حلقة كاملة الانطباق لا يمكن الشعور بها إلا من خلال ما كان ينهمر عليهم من طلقات تنسكب من كل جانب الأمر الذي أخل بنظام سيرهم فأعاق تقدمهم وشوش كل ما في تفكير قائدهم من أهداف وخطط.

هذا الوضع الذي أملته ظروف الواقع هو الذي جعل جعفر العسكري يقرر تقدمنا للاشتراك بحركة التعويق وتقوية معنوية الفلاحين. وانشغال الأتراك بالمتسللين من جميع الجهات وتأخر مدفعيتهم بسبب الأراضي الوعرة هو الذي أوحى لقائدهم

التردد ثم قرار قضاء تلك الليلة في خط تلول كوكا ـ حد الدقيق.

وهذا التردد وعدم التقدم هـو الذي أوحى إلى جعفـر أن يأمـر راسم وحمد بن جازي أن يذهبا لضرب العدو من خلف جناحه، الأمر الذي جعل القائد التركي يفقد اتزانه ويشعر أنـه أصبح مطوقاً. وإن مشاهدتي لمجموعة الفلاحين في أعلى التل الذي على جناح العدو الأيمن هو الذي أوحى إلي بالتقدم لتشجيعهم عـلى الهجوم على ذلك الجناح دون أن أتلقى أمـراً بذلـك وأن لقائـي بأولئك الرجال الثـلاثة في بطن الـوادي هو الـذي أوحى لي تلك الفكـرة والخطة التي رتبتهـا لهم والتي نجحت وسببت هـجـوم أهل عيما وانهيار الجبهة.

ووجود البدو والفلاحين متفرقين هنا وهناك دون نظام أو ترتيب هــو الــذي سبب عــدم تمكن الأتــراك من لم شعثهم وتنظيم انسحــابهم الأمــر الــذي سبب فنــاء قــواتهم ومقتـل قـائـدهم وخســارة جميــع أسلحتهم ومهمــاتهم، وقــد علمت من أحــد الضباط الأسرى أن حامد فخري عندما قــرر التوقف والمبيت في خط كوكا ـ حد الدقيق، جمع جميع الضباط ليبلغهم هذا القرار ويشحــذ همتهم وإن تقدم الفـلاحين من الجنـاح الأيمن كـان أثناء هذا الاجتماع وأن الهجوم الذي قمنا به على ذلـك الجناح صــادف أثناء عـودة الضبـاط إلى قطعـاتهم. فمنهم من وصـل ومنهم من كان لا يزال في الطريق.

والأمر المباشر الذي سبب الهزيمة هو أن ضابط الفصيل الـذي كان في أقصى الجناح الأيمن عندما وجد أنه أصبح تحت تأثـير نار جانبيه تأتيه من الفلاحين الذين أصبحـوا قريبـين جداً من جنـاحه الأيمن حـاول تبديـل جبهة فصيلـه ليجابههم وعنـدما نهض جنـوده لإجراء هـذا التبديـل كان الفـلاحـون حينئـذ لا يبعدون عنهم أكثر من خمسين متراً وكنا نحن نتقدم من أسفل القمـة التي كانـوا عليها لا نبعـد عنهم أكثر من أربعـين متراً،

فكانوا لا يروننا ولكنهم شاعرين بتقدمنا ويسمعون رمي رشاشاتنا. ولما نهض جنود الأتراك لتبديل جبهتهم ظن الفلاحون بأنهم ينهزمون فتشجعوا وصاروا ينخون بعضهم بقولهم: إنهزموا عليهم عليهم وثم هجموا يتراكضون نحوهم فوقعت الهزيمة فعلاً وسرت على طول الخط من اليمين إلى اليسار وخرج الأمر من يد الضباط الذين كان بعضهم لا يزال في طريقه إلى قطعته، وبذلك انفرط أمر الجبهة وبمقتل قائدهم انفرط عقد القوة بأجمعها. ومما سمعته من أحد الضباط الأسرى وكان من ضباط مقر الفرقة أن حامد فخري عندما شاهد هذا الوضع قال هذه الجملة المترجمة بالحرف: (هؤلاء العرب جعلوا قوانين الحرب عاليها سافلها).

يتضح لنا مما ذكرناه أنه لم تكن هناك خطة حربية ولا تصميم مسبق فصفحات المعركة هي التي أوحت لكل شخص بما يجب عمله. فجاءت الظروف والأحوال جميعها مؤاتية للعرب فحققت لهم هذا الانتصار المبين الذي قرر إلى مدى بعيد مستقبل الوضع العربي والتركي في الأرض السورية بأجمعها.

أما فيما يتعلق بلورنس وقد قرأت فيما بعد كتبه عن الدور الذي لعبه في هذه الموقعة وعن أنه نظم خططها ورتب أمورها وقاد صفحاتها وكان أثناء القتال يكر ويفر ويصدر الأوامر إلخ. فكل ذلك كذب واختلاق من أساسه وليس له أي مقدار ولو قليل من الصحة. لقد كان لورنس متفرجاً من بداية المعركة إلى نهايتها، ولم يكن بإمكانه أن يكون خلاف ذلك ولو أنه تدخل بأي أمر أو حاول ذلك ولو بأتفه الأعمال لوجد صداً وإهانة. ولهذا السبب، فإن لورنس وأي إنكليزي آخر لا يجرؤ على الظهور بأي مظهر يستشف منه المداخلة وهم يعلمون ذلك حق العلم فيتجنبونه كل التجنب. أما لورنس الذي يعرف ذلك أكثر من الآخرين فإنه إتبع قاعدة عدم الظهور أكثر من غيره ولكنه

يختلف عنهم بأنه كان ضابط مخابرات مطلوب منه تقارير عن جميع الأمور والوقائع، وهذا ما يجعله يهرع إلى كل مكان يشتم منه رائحة معركة فيقف تماماً كما فعل في موقعة الطفيلة موقف المتفرج ليعود بعد أن ينتهي كل شيء ليكتب إلى رؤسائه أنه حضر الوقعة وفعل كيت وكيت ولينسب لنفسه كل شيء من خطط وفكر وقيادة وليس هناك من يكذبه أو يصحح ما يكتب، وليس من شك أنه كانت هناك جرائد ومجلات إنكليزية يكتب إليها ما يريد وما يشاء على الطريقة نفسها وبأسلوب ألف ليلة الأسطوري الذي يستسيغه الغربيون، وخذ لذلك مثلاً أن الصورة التي أخذها لي وهو بجانبي وأراني إياها ما يدرينا عما كتب في مقاله لتلك المجلة أليس بالأسلوب نفسه الذي كتبه فيما بعد عن موقعة الطفيلة في كتابه أعمدة الحكمة عن أنه هو الذي قاد المعركة واشترك في صفحاتها كراً وفراً وأنه هو الذي غنم هذه الكومة من الرشاشات الظاهرة في الصورة وأن هذا الضابط الذي يظهر في الصورة في جانبه هو أحد ضباطه.

إن أهم الوقائع التي أثرت في وضع الجيش الشمالي وسببت توفيقه وقعت في هذه المنطقة. فالطفيلة كانت أول بلد يستولي عليها الجيش الشمالي ويتركز فيها والموقعة التي شرحناها كانت أول معركة يتقابل فيها الجيش العربي الزاحف على مدن الشمال مع الجيش التركي الذي يريد القضاء عليه، وبنتيجة هذه المعركة قرر كل من الجانبين قراره النهائي حول الثورة العربية. فالأتراك قطعوا أملهم في القضاء عليها والعرب قويت معنوياتهم وزاد أملهم وإصرارهم على التقدم للشمال واستكمال تحرير بلادهم.

■ الأرمن في الطفيلة

إن القتل والتهجير الذي أوقعه الأتراك بالأرمن هو معلوم ومشهور ولكننا في سياق حديثنا هذا لا بد لنا من أن نذكر أننا

عندما استولينا على الطفيلة وجدنا فيها عدداً من الأرمن كانوا آخر الموجات التي أوصلها القدر بسلام إلى هذه الجهات النائية. إنني لا أتذكر عددهم بصورة صحيحة ولكنهم ليسوا بقليلين، منهم الشباب والشيوخ والنساء والأطفال وإن وصول شباب منهم سالمين كان أعجوبة من الأعاجيب لأن الأتراك كانوا يقتلون الرجال حتى الأطفال منهم وخصوصاً الشباب. وكانوا هناك في حالة بؤس وضنك في بلدة فقيرة ليس فيها مجال كبير للعمل ولكنهم كما هو معلوم رجال جد وعمل فكانوا يؤمنون قوتهم بقدر ويشكرون اللّه على خلاصهم من المذابح التي كانت تنصب لهم في كل مكان. فلما استولينا على الطفيلة وجد هؤلاء الأرمن متنفساً لهم وفتح أمامهم باب الرزق فكانوا يقدمون بعض الخدمات للعسكر مقابل أجر وكان الضباط والجنود يعطفون عليهم ويساعدونهم وقد جاءني منهم بعض الشباب يطلب أن يتطوع فاستأذنت بذلك القائد فأذن لي فطوعت منهم البعض وتطوع قسم آخر في السرية الملية. وبعد معركة الطفيلة زاد عدد المتطوعين عندي فشكلت منهم فصيلاً كاملاً من نحو ثلاثين شاباً وأعطيتهم بنادق وعتاداً مما غنمناه من الأتراك ونظمت لهم أيضاً رشاشتين من الغنائم فأصبحوا قوة مقاتلة لا بأس بها وعينت عليهم ضباط صف لتدريبهم وإدارتهم وأدخلت أسماءهم في جداول الراتب يأخذ الواحد منهم راتباً كسائر الجنود. وكان الواحد منهم يتحرق للقتال لما في قلب كل منهم من الحقد والضغينة على الترك، وخطر لي بعد تطويعهم وتدريبهم ان أستعملهم كمفرزة مستقلة ترسل للقتال والعودة لوحدها تحت إمرة ضابط أو عريف أي أنها تقوم بعمل العصابات، فلما فاتحتهم بذلك استحسنوا وتحمسوا للفكرة جداً ولكن الأحداث المتلاحقة وإخلاءنا الطفيلة حال دون ذلك.

وقد حصلت إثر معركة الطفيلة على نحو ٢٥ بغلاً من الغنائم

التي حصلنا عليها وأخذت لها ما يلزم من سروج وعدد مما تبقى من سروج سرية البغالة التي نفق أكثرية بغالها، وبهذه الصورة أكملت احتياجاتي من بغال الركوب وزاد لجميع القوة الإضافية التي شكلتها كما رتبت من الرشاشات التي غنمناها ومن أدواتها رشاشتين جعلت منهما فصيلاً ثالثاً فأصبحت السرية تتشكل من ستة رشاشات أربعة منها فيكرس إنكليزية واثنتان مكسيم المانية.

وخلال هذه المدة أي في أواخر شهر كانون الثاني وصلتنا الأخبار أن الشريف عبدالله بن حمزة الفعر قد هاجم الشونة التي في غور المزرعة في غربي الكرك على شاطىء البحر الميت وهو مركز للجيش التركي فيه بعض القوارب والبحارة ينقلون بواسطتها الأرزاق والمهمات بين أريحا والمراكز الأخرى. وكان الشريف عبدالله يتعاون مع عشيرة الترابين في وادي عربة وهم إحدى قبائل منطقة بئر السبع. وبعد أن هاجم الشريف عبدالله الأتراك في الشونة واستولى على مراكبهم وأغرقها أخذ منهم ستين أسيراً أرسلهم إلى العقبة ثم قام بالاتصال بالأمير زيد في الطفيلة وأخبره بما حصل.

وفي هذه الآونة وصل إلى الطفيلة عن طريق الغور عمر المؤيد وهو من دمشق ومن عائلة العظم ومن أبناء عم فايز وبدري وأحمد العاملين في الثورة، وهكذا أصبح عدد المشتركين من آل العظم في الثورة أربعة بسبب الأثر السيىء الذي تركه إعدام عميد هذه العائلة شفيق المؤيد. وجاء مع عمر المؤيد الإنكليزي كركبرايت وهو الذي أصبح بعد الحرب وبعد تأسيس إمارة الأردن المعتمد البريطاني فيها.

موقعة المدورة

بينما كانت معركة الطفيلة تدور رحاها كانت في جنوب معان

معركة أخرى تجري بين مفرزة من الجيش الشمالي والأتراك في محطة المدورة. لقد تشكلت هذه المفرزة على نسق جديد بالنسبة للمفارز التي شكلت في السابق. وذلك بإشراك السيارات المصفحة في إسناد الهجوم ودعمه واعتماد الهجوم على العشائر في الدرجة الأولى وذلك بإسنادهم بالمصفحات والمدفعية. وعلى ذلك تشكلت هذه المفرزة من سرية مشاة نظامية وفصيل مدفعي (مدفعان) وعدد من السيارات المصفحة البريطانية يواكبها سيارات تحمل مدافع جبلية، وكانت قوات البدو مؤلفة من بعض الحويطات بإمرة الشريف هاشم وعشيرة العمران بإمرة الشريف هزاع وعشيرة بني عطية بإمرة الشريف محمد علي البديوي، وكان الأمير فيصل يشرف بنفسه على هذه المفرزة يرافقه رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد. أما هذه المحطة فقد اعتنى الأتراك بتحصينها فخصصوا لحمايتها فوج مشاة ومدفعين وسرية رشاش (٤ رشاشات). لقد بدأ الهجوم في فجر يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩١٨ بقصف مواضع الأتراك وبالاستيلاء على إحدى الدبابات المتقدمة فقتل منها خمسة واستسلم الخمسة عشر جندياً الباقون. وعاونت الطائرات البريطانية المهاجمين وبالرغم من ذلك لم تتمكن هذه القوة من إسكات مدفعية العدو ولا رشاشاته ولا الاستيلاء على المحطة والسبب بسيط كان يجب أن يقدر من قبل. فمن المعروف أنه لا المصفحات ولا المدافع ولا الرشاش يمكنها الاستيلاء على أي موضع، فالذين يستولون على المواضع أو يدافعون عنه هم الخيالة حاملو السيوف والرماح (في ذلك الوقت) والمشاة حاملو البنادق وأما سواهم من الصفوف الأخرى فما هم سوى صفوف معاونة تحمي المشاة وتدعمهم للوصول إلى أهدافهم.

لقد كان مع هذه المفرزة مائة جندي مشاة لحماية المدفعية والمصفحات والرشاشات وليس للهجوم. أما البدو فليس

بإمكانهم مهاجمة مواضع دفاع محصنة بخنادق وأسلاك شائكة وألغام مسنودة برشاشات ومدافع في أرض منبسطة ومنطقة صغيرة. إن القيام بالاستيلاء على مثل هذه المواقع يحتاج إلى تدريب وتنظيم وضبط وهذا من شأن جيش نظامي وليس من ضمن إمكانات غيره من المقاتلين. أما التوفيق الذي حصل لمثل هؤلاء المقاتلين من بدو وغيرهم فإنه جرى في محلات سهلة الاختفاء والتقدم والالتفاف والقتال على جبهة خلفية أو من جميع الأطراف. وهكذا لم تتمكن العشائر من القيام بالهجوم ففشلت المهمة وعادت المفرزة.

٦

معركة الطفيلة الثانية

بالنسبة لقلة عدد القوات النظامية في المفارز التي تعمل خارج مناطق الجيش الأصلية، فإن واجبات المخافر الأمامية والاستطلاع والترصد كان يقوم بها البدو وتنظم من قبل الشريف الذي مع تلك المفرزة بالمذاكرة مع قائدها العسكري، وإذا كان لتلك المخافر الأمامية أهمية خاصة فإنه يرسل إليها أحد الأشراف مع عدد من جنود عقيل كما كان عندما حيث أرسل الشريف مستور إلى سيل الحسا. وإرسال مثل هذه القوات الأمامية مع أحد الأشراف زيادة في الأمن والاطمئنان. وبهذه المناسبة أقول إنه كان في معية فيصل عدد كبير من الأشراف الذين كان يعهد إليهم بقيادة أية حركة يقوم بها البدو لأنهم كانوا يعتبرون ممثلين لفيصل بل للملك حسين وكانت التخصيصات والمكافآت والأرزاق توزع بواسطتهم ومشايخ البدو يحترمونهم وينقادون إليهم بل من الأصول والعادة المتبعة أن يقبلوا أيديهم، وكان لدى كل شريف منهم بعض العبيد والخدم وعدد من متطوعة العشائر الحجازية عقيل ومطير وهديل وبيشه إلخ. وكان هؤلاء بمثابة جنود دائمين في معية ذلك الشريف ويلحق به الأمير عادة عدداً آخر إضافياً إذا اقتضت المهمة ذلك. إن هذا الأسلوب قد نجح نجاحاً باهراً في تنظيم أعمال البدو والاستفادة منهم وجعلهم

تحت ضبط لم يكن بالإمكان الوصول إليه بغير هذا الأسلوب.

فبعد موقعة الطفيلة الأولى وبعد تلك الفاجعة الأليمة التي نزلت بالأتراك من جراء فناء فرقة حامد فخري كان لا بد للأتراك من عودة ومحاولة لاسترجاع الطفيلة وإصلاح بعض ما أثر في هيبتهم وكبح جماح العرب الذين أصبحوا في جوار الكرك ولم يبق أمامهم بعد هذا النصر إلا التقدم إليها واحتلالها؛ والكرك مركز مهم فهو يشرف من جهة الشرق على سكة الحديد التي هي في مناطق أهم وأقوى العشائر كالحويطات وبني صخر وعشائر الكرك نفسها. فإذا ما أصبحت هذه المنطقة تحت متناول أو نفوذ العرب فيستحيل بقاء الأتراك فيها ولا بعمان بالنظر لكثافة العشائر العربية القوية التي تكثر فيها، ثم هناك خطر تخريب نفق السكة الذي قرب عمان والذي يسبب تخريبه قطع الخط الحديدي الحجازي نهائياً بين دمشق والمدينة. كل هذه الأمور كانت واضحة وقريبة إلى العقل والمنطق وليس من تدبير للحيلولة دون ذلك إلى استعادة الطفيلة. وعلى ذلك شكلت القيادة التركية العليا وكانت في يد الجنرال الألماني فون سادرس قوة مختلطة من ألمان وأتراك ونمساويين سمتها قوة التأديب بقيادة القائد الألماني ماير. على أن يرافقها قائد تلك المنطقة محمد جمال باشا بالذات (جمال الثالث) وتتشكل هذه القوة من ثلاثة ألوية مشاة وسرية بغالة وثمانية مدافع صحراء وجبلية وسرية رشاش وبعض المفارز الألمانية والنمساوية، وهذه القوة ليست من مرتبات القوات القائمة على محافظة الخط الحجازي التي بإمرة محمد جمال باشا بل سحبت من جبهة نابلس. لقد اتبعت هذه القوة أسلوباً جديداً غير الأسلوب الذي اتبعه حامد فخري أو الأسلوب الذي اتبعوه في مهاجمة وادي موسى والوهيده وغيرها. لقد اتخذ هذا الأسلوب الجديد من الدروس الماضية التي تلقوها في معاركهم مع العرب خصوصاً

في معركة الطفيلة الأخيرة وكانت أسس أسلوبهم الجديد هي:

أ ـ الأمن من الجهات الأربع بنسبة واحدة واعتبار الخطر موجوداً في كل جبهة من الجبهات بالمقدار نفسه.

ب ـ إن التحرز وتأمين السلامة في مثل هذه الأراضي الجبلية الوعرة التي يسكنها أعداء تستوجب البطء في السير والبطء يستلزم تقصير المراحل. فقصر المرحلة مع الأمن خير من العجلة مع الخطر. ولذلك جعلوا مراحلها قصيرة جداً.

ج ـ إن النهار كشاف يتسع فيه مجال الرؤيا ويقل فيه مجال التخفي والتسلل، بعكس ذلك ظلام الليل ولذلك اقتصرت حركة الجيش على النهار فقط.

د ـ لقد اعتني بتقوية الحراسات الليلية بحيث جعلت متقاربة وفي جميع الجبهات بالقوة نفسها. وجيء بسلاح جديد غير معروف عند العرب إلى ذلك التاريخ وهو النور الكشاف (بروجكتور) فكان هذا النور يعمل طيلة الليل، بتمشيط الأرض في جميع الجبهات وكان البدو الذين يحاولون التسلل يظنون أن هذا النور قد شاهدهم شخصياً كلما مر فوقهم أو في جوارهم فينسحبون مذعورين.

وقد كانوا موفقين باتباع هذه الخطة ونجحت معهم شأنها شأن كل خطة جديدة يباغت فيها العدو دون أن يكون مستعداً لها وفن التعبئة يعطي أعظم الأهمية لعنصر المباغتة في تأمين الظفر ومن أهم أنواع المباغتات هي المباغتة التي تجري بخطة جديدة وأسلوب جديد غير منتظر من قبل العدو. وقد كانت هذه الحركة بموجب خطة جديدة وأسلوب جديد لم نكن ننتظره لا نحن العسكر ولا البدو. لقد استمرت هذه المعركة تسعة أيام لأن

الاصطدام بدأ في يوم ٢٥ شباط ودخل الأتراك الطفيلة يوم ٦ آذار ١٩١٨ ولو كان لدينا قائد محنك مطلع على الفن العسكري مجرب وواسع الفكر لكان بإمكانه أن يتفهم هذه الخطة الجديدة خلال اليومين الأولين من قيامها ولكان في إمكانه أن يزيل تأثيرها ويعود لأخذ عنصر المبادأة من الأتراك، وذلك بتوجيه أكثر القوة التي لديه إلى ضرب قوة الأتراك الضعيفة المتقدمة من محطة الحسا بحيث كانت تتقدم في أرض غير ملائمة لها وبعد ضربها النفوذ من هناك إلى خلف القوة المتقدمة إلى الطفيلة وقطع خط رجعتها عن محطة الجرف فيجبرها على الانسحاب.

لقد جلبت القوة التركية التي عهد إليها استرجاع الطفيلة من جبهة نابلس إلى عمان ومنها بالقطار حيث أنزل قسم منها في محطة الحسا والقسم الأكبر في محطة جرف الدراويش ومحطة الحسا واقعة في مواجهة مدخل وادي الحسا الشرقي. وعلى يسار الداخل في وادي الحسا طريق يتجه إلى موقع التونيه الذي يلتقي بالطريق الآتي من الجرف إلى الطفيلة. وهناك بعد مسافة قصيرة من مدخل الوادي الطريق السلطاني الذي يتجه نحو الطفيلة دون أن يمر على التونيه وهو الطريق الذي سارت عليه قوة حامد فخري. فقوة الأتراك سارت في قسمها الأكبر من محطة جرف الدراويش متعقبة طريق الجرف ـ التونية ـ الطفيلة وتقدمت على يمينها قوة صغيرة راكبة لتدرأ الخطر عن ميمنتها وهذه الميمنة عقبت طريق محطة الحسا ـ التونية. لقد كان للعرب رصد في جميع الجبهة من سيل الحسا حتى جرف الدراويش. وقد بدأ الصدام مع مفرزة من خيالة الاستطلاع الألمانية في غرب محطة الحسا وقد انسحب الألمان بعد أن قتل منهم نحو ٢٥ جندياً وغنم البدو أكثر خيلهم وأسلحتهم وبدأت العشائر والفلاحون يتلاحقون من كل جانب وحضر في مقدمتهم

حمد ابن جازي مع خيالته. وتقدم الجند النظامي باتجاه جرف الدراويش حيث بدأ الجيش التركي بالتقدم ولكنه ما عتم أن توقف فيها وتمركزنا نحن في التلال المشرفة على المحطة لمنع الأتراك من التقدم. ولكننا كنا بعيدين وكانت المحطة خارج مسافة رمي الرشاش والقوة النظامية المقاتلة كانت سريتي فقط ومعنا نحو ٣٠ جندياً من المشاة للمحافظة و٣٠ آخرين لمحافظة المدفعيين وكان لدي ثلاثون متطوعاً من الأرمن التابعين لسريتي. وبعد الغروب بدأت أنوار البروجكتورات تمشط الأرض وتمر من خلال مواضعنا ومن خلال البدو والفلاحين المتفرقين هنا وهناك. ولكنني كنت متعوداً على هذه الأنوار منذ كنت في قتال الحروب الموضعية في جبهة غزة وكنت أعرف أنه ليس لها كبير أثر على من يتقدم بحرص وشجاعة. وبقصد تشجيع الجنود وغيرهم شكلت جماعة من عشرة من الأرمن وخمسة من الجنود وعلى رأسهم عريف وأرسلتهم نحو المحطة للتقرب منها وإجراء بعض التعجيزات.

لقد قامت هذه الدورية بواجبها خير قيام وجعلت الجيش التركي يشتغل بالرمي حتى الصباح حيث عادت ومعها بغل غنمته وكان قد شرد من اصطبله وجاء نحوهم.

وفي صباح اليوم التالي باشر الأتراك بالتقدم وكانت مدفعيتهم متمركزة في المحطة وتحمي تقدم القوة دون أن تبدل مواضعها وتتقدم. وانسحبنا نحن إلى التونيه. وبدأت الجبهة تضيق بالنسبة للجهتين فاجتمع في جبهة التونية القوة الأصلية المتقدمة من الجرف والرتل المتقدم من محطة الحسا. إن قوتنا النظامية كانت عبارة عن قوتنا السابقة وهي مدفع جبلي مصري ومدفع جبل قديم وسرية الرشاش (سريتي) والسرية الملية ٦٠ جندياً بقيادة سلمان الجنابي وسرية من ٦٠ جندياً بقيادة السيد عبداللّه وهذه السرية الأخيرة بقيت في المواضع التي

قرب المدينة. وكانت السرية الملية تتعاون معي فننتقل وإياها من موضع لآخر، وأما المدفعان وهما بإمرة حسين المدفعي فقد كانا عديمي التأثير بالنسبة لمجال رميهما القصير وطرازهما القديم تجاه مدافع الأتراك الحديثة ذات مجال الرمي الطويل. ولم يكن في إمكان هؤلاء الستين جندياً نصف النظاميين أن يقوموا بعمل شيء أو منع تقدم لوائي مشاة نظاميين بكامل عددهم، وأما رشاشاتي فكانت معرضة لنار مدفعية متمركزة لها مجال رمي طويل وعشرات من الرشاشات علاوة على أننا لم نكن لنعرف ماذا يدور في الجبهة، حتى لأذكر أنني لم أتلق أي أمر حول ما يجب عمله. فالمعركة كانت تدور بين قوتين غير متكافئتين أبداً لا بالعدد ولا بالتنظيم ولا بالقيادة وهذا بنظري أهم الكل. ولكننا كنا متفوقين على الأتراك والألمان بالشجاعة والثقة حتى أننا لم نكن نهتم بأمر انسحابنا ولم يكن ليؤثر على معنوياتنا بل كنا متأكدين من الظفر في النتيجة إن لم يكن في هذه المعركة ففي المعركة التي تليها. لقد استولى الأتراك على التونيه وباتوا فيها (واستشهد في هذه المعركة شيخان من مشايخ الحجايا وهما جلال بن هويمل وجلال أبو جفين وهما من أشجع من رأيت من البدو). وبعد يوم استولى الأتراك على خربة الحرير وفي اليوم التالي جرت بيننا وبينهم معركة في جبل المصلي وكان ثقل المعركة على سريتنا وبقينا ندافع حتى العصر وأخيراً انسحبنا بعد أن قتل من سريتي عريف رشاشة وكان رحمه اللّه من أشجع منسوبي السرية واستشهد معه ستة من أفراد الرشاشة وتمكن اثنان منهم من الخلاص بعد أن أنقذوا رشاشاتهم بأن حفروا لها حفرة وطمروها بالتراب ووضعوا عليها أحجاراً وإشارات. وكانت هذه الرشاشة على الجناح الأيمن لوحدها وقد هاجمتها سرية ألمانية كاملة.

وثم تقدم الأتراك نحو خربة العبور واستمرينا معهم بمعركة

غير متكافئة وكان زخم البدو والفلاحين قد ضعف وتفرق قسم من متطوعي سرية سلمان الجنابي بعد أن قتل وجرح بعضهم ولم يبق معه منهم إلا نحو عشرين جندياً. ومن الأصول أن الرشاش يجب أن يكون إلى جانبه مشاة للمحافظة عليه شأن المدفعية وكانت السرية الملية هذه قد وزعت للمحافظة بين سريتي والمدفعين اللذين بإمرة حسين المدفعي. ولكنني في الحقيقة لم أكن بحاجة إليها لقد كان عندي نحو أربعين جندياً من سريتي من حملة البنادق ونحو ثلاثين رجلاً أرمنياً الذين تحدثت عنهم وقد أعانوني جيداً خصوصاً في نقل المجاريح ودفن الشهداء بصورة مستعجلة وإشغال أجنحة مواضع الرشاش. وجرت في خربة العيص القريبة من الطفيلة والتي تلي خربة العبور معركة استمرت يوماً كاملاً من الصباح حتى المساء وكنا نستهدف منها إعطاء الوقت الكافي لانسحاب من تبقى في الطفيلة من الأهالي والأرمن للنزوح عنها وكان الأرمن يقاتلون باستبسال وقد أرسلت اثنين منهم أثناء المعركة ليأتياني بالخبر اليقين عن سير تخلية البلدة والمهمات والعفش العائد للسرية وعادا مساءً ليخبراني بأن كل شيء على ما يرام وبأن فصيل النقلية والعفش بانتظار أوامرنا في خارج البلدة وكنت أتوخى تطمين الأرمن على ذويهم. وتراجعنا نحو الطفيلة وعلى الطريق المؤدي إلى الرشادية وجدنا نقليتنا تتنظر وكان هناك أيضاً جميع من كان في الطفيلة من أرمن، شيوخاً ونساءً وأطفالاً كل منهم يحمل شيئاً من الأشياء الضرورية والنساء تحمل أطفالها وهن جزعات خائفات وبعض الأطفال يبكون وكان منظراً مؤلماً يفتت حبات القلوب وكان معلوماً لدى الجميع أن أي واحد من الأرمن إذا تخلف في البلدة سيقتل حتماً. أمرت الجنود أن يساعدوا هؤلاء النساء والأطفال ويركبوا على رواحلهم من لم يكن قادراً على السير.

ودخل الأتراك إلى الطفيلة في ٦ آذار بعد انسحابنا إلى قرية الرشادية الواقعة على طريق الشوبك ـ وادي موسى وفي اليوم التالي لحق الجيش التركي بنا إلى الرشادية فانسحبنا نحو الشوبك ولكن الأتراك لم يلبثوا أن أخلوا الرشادية وتمركزوا في الطفيلة وفي يوم ١٦ آذار وبغتة أخلوا الطفيلة وعادوا إلى عمان.

واعتباراً من الرشادية استمر الأرمن في طريقهم إلى العقبة حيث سافروا إلى مصر. وقد تركت لهم ما كان معهم من البنادق على أن يسلموها إلى مقر الجيش في الكويره بعد أن زودناهم بكتاب من قائد المفرزة بهذا الخصوص.

وفي ١٨ منه عاد الشريف ناصر إلى الطفيلة مع الجنود النظاميين كما بقي الأمير زيد معسكراً بجوار الشوبك. كان مجموع المفقودين من سريتي في هذه المعركة خمسة عشر شهيداً وعشرة مجاريح وثلاثة قتلى وخمسة جرحى من الأرمن. وفي اليوم التالي من عودتنا إلى الطفيلة استأذنت آمر المفرزة واصطحبت جميع السرية وذهبت إلى المكان الذي استشهد فيه جنودنا فأخرجنا الرشاشة من المحل الذي كانت مخبأة فيه وأخرجنا الشهداء من الحفر التي كانوا فيها حيث دفنهم بعض البدو وحفرنا لهم قبوراً ودفناهم بجانب بعضهم وعملنا لكل قبر شكلاً وعلامة من أحجار ثم أقمنا بأطراف القبور دائرة من الأحجار الكبيرة الموجودة بكثرة في ذلك المكان الواقع بالقرب من أعلى الجبل وأصبح هناك شبه رجم ثم ألقيت كلمة تعزية على الجنود وكانت مراسم مؤثرة جداً وكان لها أكبر أثر في الجنود بالنسبة لهذا الاهتمام الذي لم يكن له سابقة. وقد بقي البدو في تلك الأطراف يتحدثون عن شجاعة ذلك العريف وقد لفت عملنا هذا نظر أولئك البدو وسموا ذلك المكان (خربة الشاويش). وقد عدت مرتين بعد ذلك إلى الموقع خلال ذهابي

وإيابي إلى وادي الحسا وكنت أزور هذه القبور وأعلم أن البدو استمروا على تسميته رجم الشاويش. وفي سنة ١٩٢٤ عندما كنت قائداً لمنطقة الكرك، ذهبت إلى الطفيلة في رحلة تفتيشية، وعلمت أن الناس ما يزالون يذكرون رجم الشاويش، فذهبت لزيارة شهداء الرجم وذرفت عليهم دمعة ذكرى ورحمة. ولا بأس أن أذكر للقارئ بهذه المناسبة أنه إذا مر في مثل هذه المناطق التي يكثر فيها البدو، فإنه كثيراً ما يشاهد على طريقه أكواماً من الحجارة مما يلفت النظر وأنها موضوعة وليست طبيعية فإذا سأل رفيقاً من تلك الديرة عنها، فإنه لا بد أن يخبره بقصة تلك الكوم من الحجارة التي تسمى رجماً، فلكل رجم قصة اعتاد البدو أن يخلدوها بأن يكوموا في محل تلك القصة حجارة وكلما مر واحد منهم زادها أحجاراً حتى تصبح رجماً تتحدث عنه الناس مثلاً، هذا رجم العاشق وقصته بأن فلان أو أحدهم من عشيرة كذا أحب فلانة ولكنها كانت ذات بعل فهرب معها ولحقوا به وقتلوهما في هذا المحل ودفنا به وهذا الرجم يدل على مدفنهما. وهذا الرجم اسمه رجم الشيطان وقد كان يرابط هنا شيطان يقتل كل من يمر به حتى فاجأه بأحد الأيام فلاناً من عشيرة كذا ووجده نائماً فقتله ودفنه في هذا المكان. وهذا رجم العاشقة التي أبى أهلها أن يزوجوها بمن تحب فانتحرت ودفنت في هذا المكان، إلخ...

لقد كان ظفر معركة الطفيلة الأولى التي يسميها أهل الطفيلة (وقعت حد الدقيق) بالنسبة للخسائر التي مني بها الأتراك في الرجال والسلاح والمهمات أكبر ظفر حصل عليه الجيش الشمالي بل جيش الثورة بأجمعه منذ قيامها، وهو يأتي بأهميته من الوجهة السوقية والمعنوية مباشرة بعد أهمية الاستيلاء على العقبة. وبالنسبة للأتراك فلقد كانت أكثر من أن تعتبر خسارة فلقد كانت من الوجهة الحربية نكبة سببتها أخطاء فنية وأدبية

من بدايتها حتى منتهاها فانتجت تلك الخسارة بل فناء القوة بأجمعها وبمقدمتها قائد حاز على شهرة عظيمة.

وكان من نتائج هذه الكسرة التي مني بها الأتراك حصول عدة أمور معنوية ومادية كلها ليست في صالح الأتراك. لقد قوت معنويات العرب من بدو وفلاحين وجند فذاقوا طعم الظفر ومكاسبه خصوصاً بالنسبة للحضر والبدو الذين يتطلعون بشوق إلى الاستزادة منه. كانت المعركة رأس الحربة الممتدة من الكويره نحو الشمال المارة من جانب خاصرة الأتراك اليمنى فتقرب المسافة خطوة أخرى نحو الشمال والاقتراب من الكرك التي هي حصن حربي خطير ومنطقة يسكنها أقوام من العرب نصف الحضر المسلحين الشجعان الذين لا تزال تغلي في قلوبهم ثارات نحو الأتراك منذ حملتهم عليها وتنكيلهم بها في سنة ١٩١٨. وقد أدت هذه النكبة بالأتراك إلى أن يقوموا بسوق قوة أخرى لتصحيح موقفهم أو على الأقل للحيلولة دون تدهور الموقف أكثر من ذلك، بينما كانوا في وضع حرج في جبهة نابلس وليس لديهم من قوة يسوقونها لهذا الغرض إلا ما يسحبونه من هذه الجبهة وهذا ما اضطروا إليه. وقد اضطرت القيادة التركية للاعتراف أنها تقاتل جيشاً نظامياً يعاونه شعب شجاع يقاتل في أراضيه ودياره بشعور قومي وبقلوب جرّحها الأتراك ومعادية لهم، وهذا يتطلب منها السير في الخطط وتنظيمها حسب هذا الموقف وليس حسب العواطف والأوهام والاستصغار، وعلى ذلك عينت لقيادة الحملة هذه قائداً ألمانياً ينظر للأمر بنظرة عسكرية فقط فكانت خطته محكمة وموفقة.
أما الجيش العربي فلم يحكم خطة الدفاع ودفع ذلك الهجوم. وفي نظري كان السبب الأول ضعف القيادة العسكرية (كما سبق وذكرت) لم يكن للقيادة خطة ولا قابلية تفهم وضع العدو وأهدافه والقيام بما يحبطها لقد تركت الأمور تجري كيفما كان

بحيث كانت كل جماعة من العرب، جنودهم وبدوهم وحضرهم، تتصرف حسب ما تراه آنياً. لا أقصد مما أكتب أن انتقد أو أقلل من شأن هذا القائد ولو كنت أنا في حينها لما تمكنت أن أفعل خيراً منه لأنني أنا أيضاً كنت لا أملك من المعلومات والمقدرة والتجارب أكثر مما يملك، ولكنني أدون الآن الحقائق كما هي وقصدي أن أسجل هنا أنه لو كان على رأس قوتنا قائد قدير لما تمكن الأتراك من استرجاع الطفيلة وإجلائنا عنها لأن كل العوامل كانت في جانبنا ومؤاتية لنا. ولو أن جعفر العسكري كان حاضراً هذه المعركة كما كان في معركتنا مع حامد فخري لربما تغير الأمر لصالحنا. واضطر الأتراك لإخلاء الطفيلة بعد أن نهبوها وبعد أن بقوا فيها حتى تاريخ ١٨ مارس ١٩١٨ لأنهم كانوا بأشد الحاجة لهذه القوة التي سحبوها من جبهة نابلس وقد شعروا أن الإنكليز كانوا بحالة تحفز للقيام بهجوم على محل ما من جبهتهم، كما أن القيادة قدرت أن العرب لا بد أنهم سيقومون بمهاجمتهم في تلك المنطقة المنقطعة عن كل اتصال مأمون بينهم وبين قاعدتهم على السكة الحديدية وأن هذه المنطقة التي هم فيها منطقة عدوة ومحاطة بالأعداء من جميع أطرافها، فإنها والحالة هذه خطرة وليس من بقائهم فيها أية فائدة وأنهم معرضون للمحاصرة والإبادة في أية لحظة. فهذه هي الأسباب التي جعلتهم يخلون المدينة ويعودون إلى الخط الحديدي بعد أن حققوا الغاية التي جاءوا من أجلها وهي إعادة هيبتهم وكسر شوكة العرب وإيقاف تقدمهم نحو الكرك. ولأجل أن يوهموا العرب أنهم لم ينسحبوا عن ضعف أو خوف استمروا بعد انسحابهم بإرسال دورياتهم نحو الطفيلة.

■ الانسحاب إلى عين نجل

تلقيت أمراً بالتحاقي بالفرقة الثانية التي كانت مرابطة في عين

نجل. وفي حوالى ٢٠ مارس ١٩١٨ تحركت من الطفيلة حيث وصلت عين نجل في اليوم نفسه وبعد أن قدمت نفسي لآمر الفرقة نصبت معسكر السرية في الهضبة التي شرقي العين وعين نجل هذه ماء يجري في وادٍ صغير يقع بين قلعة الشوبك والهيشة التي كنت فيها مع الجيش التركي وفررت منها إلى الجيش العربي. وتبعد عين نجل عن موقع الهيشة بستة كيلومترات وهي على ١٥ كيلومتراً من غرب محطة عنيزه وعلى الخط الحديدي الفرعي المتفرع منها نحو أحراش الهيشة. وأثناء وجودنا في نجل أكملنا بعض النواقص من عتاد وتجهيزات وعاد أثناءها مجاريحنا من المستشفى كما نقل أثناء ذلك الملازم بهاء الدين نوري كآمر سرية لإحدى سرايا رشاش الفرقة الأولى. وأرسل إلى الفرقة ٢٠٠ حمار أبيض من مصر ليستخدموا في النقل، ولكنني أبيت أن آخذ منها لوجود ما يكفيني من بغال النقل. وأهم ما كان ينقصنا خلال هذه الحركات نعال الحيوانات وخصوصاً في مثل هذه الأراضي الصخرية التي تعجز الحيوانات عن المسير فيها إذا ما زال نعلها. فأثناء وجودنا في الطفيلة وجدت شخصاً أرمنياً نعالاً تمكن أن يصنع نعالاً من «فناطيس» الماء «ومشينا» الحال ولكن بعد وصولنا إلى عين نجل بدأنا نشعر بالحاجة إليها. وبعد مركز التموين (العقبة) كان يزيد الأمر صعوبة. وكتبت حول ذلك كثيراً دون فائدة وأخيراً قدمت هذا الكتاب شعراً إلى القيادة العامة بواسطة قيادة الفرقة وذلك من قبيل النكتة المستطرفة ولكنها نجحت وحصلت على أربعة صناديق من النعال. إنني أدون هذه الأبيات التي أرسلتها إلى القائد العام جعفر العسكري مع جوابه عنها. إن هذا التقرير الفريد من نوعه اشتهر في حينها وصار الضباط يتداولونه على سبيل التندر. إنني لا أدعي معرفتي بالشعر كما لا أدعي أن هذه الأبيات كانت صحيحة النظم.

قائدنا يا جعفر يا أسد يوم النزال
يا قائداً ما مثله في الشجاعة والخصال
أما رأيت أننا أشبالك يوم القتال
أما رأيت فعالنا يا سيدي يوم النضال
يوم الطفيلة شاهد عما أتينا من فعال
أما ملأنا أرضها كل السهول والجبال؟
فجعلنا من أجسادهم ملء السهول والجبال
يوم الكريهة أننا نحقق كل الأمال
نصولها صول الأسود فنرتقي أعلى المجال
ففي الوغى أسد الشرى وفي النعيم حسن الفعال
أسمعت صوت رشاشاتنا؟ ملأ السهول والجبال؟
تمطر موتاً للعدى ولقومنا حسن المآل
برشاشنا وقلوبنا أذقناهم شر الوبال
والفضل في ايصالنا لعدونا هو للبغال
بمسيرها بين الحجارة فوق الحصا والرمال
عرجاء ساكتة صبور تئن من تحت الحمال
الابل سفن للصحارى وبغالنا سفن الجبال
عدم النعال في البغال يضرنا يوم القتال
فالمرجو منكم سيدي تدبير نعل للبغال
فإذا تنعلت البغال نكون أحلى من غزال
يا قائد في جيش أمة نهضت لتحقيق الأمال
لا تخيب ظننا بما نرتجيه من النعال

وجاءنا بعد مدة قريبة أربعة صناديق نعال مع الأبيات الآتية التي علمت من جعفر باشا فيما بعد بأنها كانت من نظمه:

تقرير صبحي قد وصل فله الشكر عما قال
لقد شهدناه في يوم الحرب أثناء القتال
نشهد بأنه بطل ورجل لا كالرجال
يستحق منا كل خير ومطلوبه من النعال
صناديق أربعة أرسلت بالتمام والكمال
نعلوا بها بغالكم كي تغدوا أحلى من غزال

محاولة الاستيلاء على محطة عنيزة

وفي أوائل نيسان ١٩١٨ طلبني المقدم رشيد علي وبلغني أنه ستقوم مفرزة بقيادته مشكّلة من سريتي مشاة وسرية رشاش (سريتي) وفصيل مدفعية للاستيلاء على محطة عنيزة، وإننا سوف نقوم عصر ذلك اليوم بالاستطلاع. فاستعدينا للحركة ونحو العصر تحركنا مع آمر المفرزة وآمر المدفعية وأنا وبعض المراسلين على أن تبدأ حركة المفرزة في الساعة الخامسة أي قبل الغروب. وكانت الأوامر تقضي بعدم أخذ أي شيء من «العفش» أو المهمات سوى العتاد وصناديق الماء التي كانت محملة على نحو مائة حمار من تلك الحمير التي استلمتها القطعات منذ عدة أيام. وكانت هذه الحمير في الحقيقة لا تصلح لحمل هذه الأثقال فحمل صندوق عتاد أو «فنطاسين» ماء كان أكثر من طاقتها وصندوق واحد لا يمكن تحميله لانعدام الموازنة مما سبب الكثير من المتاعب للجنود المرافقين لها.

إن محطة عنيزه تقع بين محطتي جرف الدراويش من الشمال والجردونة من الجنوب وهي في أرض مستوية ومكشوفة لا يتخللها عارض سوى تل عنيزه الذي يقع على نحو ٥٠٠ متر إلى شرق المحطة. وهذا التل يقف في هذه الأرض المنبسطة يشرف على جميع ما حوله. لقد حكم الأتراك هذا التل فحفروا فيه الخنادق نحو جميع الأطراف وكذلك نظموا بينها خطوطاً مستورة للمواصلات بينه وبين المحطة وعززوه بالأسلاك الشائكة ووضعوا في أعلاه مدفع صحراء طويل المدى يرمي جميع أطرافه لمسافات طويلة ومدفعين جبليين وكذلك زرعوا أمام الأسلاك الشائكة الألغام، وقد أصبح بذلك موقع دفاع يصعب الاستيلاء عليه، وفعلاً ان الجيش العربي استولى على جميع ما في شمال وجنوب هذه المحطة من مواقع ومحطات وبقيت هذه المحطة سليمة تتحدى كل من يقترب منها، وبما أن

الجيش العربي كان يتوخي في هجماته الابتعاد عن إعطاء التفات دون ضرورة فإنه لم يجرب ولا مرة أن يهاجم هذه المحطة وبقيت سالمة من الاستيلاء حتى النهاية.

كانت الخطة التي قررها القائد ترتكز في أساسها على الاستيلاء على هذا التل بطريق المباغتة وتقضي هذه الخطة أن نتقدم إلى خلف هضبة صغيرة تبعد بنحو ثمانمائة متر للشمال الغربي من التل وهناك تشغل المدفعية الموضع كما يترك الخط الثاني من العتاد مع «فناطيس» الماء ومفرزة الصحة (ومعها الطبيب خيري القباني) ثم تتقدم سرية من اليمين باتجاه تل عنيزة وسرية من اليسار باتجاه المحطة كما تتقدم سرية الرشاش خلفهما يسند كل سرية رعيل والرعيل الثالث يسير في الفرجة بين السريتين كاحتياط على أن يأخذوا المواضع المناسبة لإسناد الهجوم قبل القيام به. ووقتت الساعات وتقررت ساعة الحركة من نقطة الانطلاق التي نحن فيها كما تعينت لحظة المباشرة بالتقدم للهجوم، وهكذا أحكمت الخطة وباشرت السرايا بالتقدم ووصلنا إلى المكان الذي سنقوم به بالهجوم دون أن يشعر بنا العدو وأصبحنا نعتقد أن الخطة نجحت ولم يبق من مانع يحول دون الاستيلاء على المحطة والتل.

بقي من الوقت لمباشرة الهجوم عشر دقائق وإذ أحد الحمير التي كانت تحمل العتاد على مسافة مائتي متر من خلف السرايا ينهق فتشق نهقته ذلك السكون الرهيب الذي كان يخيم على عموم المنطقة فيرد عليه جميع ما كان في المفرزة من حمير فلا يكاد يسكت عشرون منها حتى يعلو نهيق خمسين، وهكذا قضي على ذلك السكون واختلطت ضوضاء الجنود التي كانت تحاول إسكاتها مع ضحكات الجميع لهذا الموقف الغريب والذي لم يكن يخطر في بال أحد.

وانتبه الأتراك وسمعنا صوت البوق وهو يدعوهم إلى السلاح

فضاعت المباغتة وأصبح من المستحيل القيام بالهجوم فأمرنا بالانسحاب، وما كدنا نبتعد قليلاً إلا وقد انبثق الفجر ونحن لا نزال ضمن المسافة المهلكة بالنسبة لمدافع العدو ففتحت نيرانها علينا. وأسرعنا المسير ونحن لا نملك أنفسنا من الضحك.

وهكذا عدنا من قلعة عنيزة وقد أنقذها منا حمار. أمامي الآن مسودة مقال كتبته للمجلة العسكرية للجيش العراقي عن هذه الموقعة في ١٠ مارس ١٩٢٦ تحت عنوان (منقذ القلعة) وقد ختم المقال بهذه الجملة (فهذه هي قصة الحمار الذي أنقذ القلعة فأنصحك يا زميلي الضابط أن لا ترافق الحمار ولا إلى السماء).

٠٧

تذمر بين
ضباط الجيش الشمالي

خلال وجودنا في عين نجل وقعت حادثة المضبطة التي تقدم بها الضباط إلى الأمير فيصل بواسطة مولود مخلص وإنني أصور فيما يلي تلك الحادثة اعتماداً على ما كتبه لي المقدم إسماعيل نامق (رئيس أركان الجيش العراقي فيما بعد) الذي كان حينها في أبا اللسن آمراً للواء الهاشمي، ومن الملازم الأول طاهر محمد عارف (الزعيم في الجيش العراقي فيما بعد) والذي كان حينذاك أحد أمراء سرايا المشاة في مفرزة فصوعة. كان هناك شعور عام بين الضباط أن حركات الجيش الشمالي كانت تسير موازية لحركات الجيش البريطاني في فلسطين وتعمل حسب مصلحته وتوجيهاته وأن الضباط الإنكليز الذين في الجيش الشمالي وهم جويز ولورنس ويونغ هم الذين يسيرون الجيش الشمالي ويرتبون أعماله وأن الغاية الظاهرة من الخطوط الكبرى لجميع الحركات التي يقوم بها الجيش تتوخى اشغال أكبر عدد ممكن من قوات الجيش التركي للتخفيف عن الجيش البريطاني وأن مصلحة الإنكليز هذه تقضي أن يبقى الجيش العربي هكذا يشغل الأتراك دون أن يتقدم شمالاً ويكون له مجهود وحق في تخليص المدن السورية. كما أن الأرزاق والتجهيزات والمهمات لم تكن كافية وكان هناك تقتير خصوصاً في طلقات المدافع كما

أن الأسلحة الموجودة كانت متعددة الأنواع إنكليزية وفرنسية وألمانية الأمر الذي لا يجوز أن يكون في جيش نظامي لسبب ما يحصل من جرائه من ارتباك خلال الحركات وعملية إكمال العتاد. والأهم من كل ذلك الأخبار التي تسربت إلى الجيش الشمالي عن البيانات التي نشرت من قبل رجال الثورة الروسية، والتي فضحت اتفاق الحلفاء بمعاهدات سرية على تقسيم الأراضي العربية بينهم حيث ستكون بموجبها العراق وفلسطين من حصة الإنكليز وسوريا من حصة فرنسا، ثم الأثر الذي تركته المناشير التي ألقاها الأتراك الداعية إلى ترك الثورة والعودة إلى الاتفاق معهم وإعطاء العرب استقلالهم ثم ما تسرب عن حوادث وعد بلفور الذي نشرت عنه جريدة المقطم في عددها الصادر في ٩ تشرين ثاني ١٩١٧.

وقد سبب كل ذلك فتور وتذمر بين الضباط وتنظيمهم مضبطة قام بتوقيعها الكثيرون يطلبون فيها الوقوف على فحوى الاتفاقية التي عملها الشريف حسين مع الإنكليز مع بيان تذمرهم من مداخلة الإنكليز في أمر حركات الجيش. وقدمت هذه المضبطة إلى الأمير فيصل بواسطة قائد الفرقة الأولى مولود مخلص وأثناء ذلك كانت الأوامر قد صدرت بتشكيل مفرزة لمهاجمة محطة فصوعة فاعترض مولود مخلص على هذه الحركة التي تعتبر من إحدى المسائل التي كان يتذمر منها الجيش ورفض القيام بقيادة هذه المفرزة مما جعل الأمير يأمر بتنحيته عن قيادة الفرقة وتوقيفه تمهيداً لإرساله إلى مكة. وقامت القيادة بإفهام الضباط أن الإنكليز الموجودين في الجيش العربي ليسوا سوى ضباط ارتباط وواسطة لتأمين احتياجات الجيش، ولكن كل ذلك لم يزل التوتر والركود بين الضباط. وزاد في حدة هذا الوجود الفشل بل النكبة التي وقعت على مفرزة فصوعة والتي نشرحها كما يلي: عندما رفض مولود مخلص قيادة المفرزة التي

تشكلت للإستيلاء علـى محطة فصـوعة. قـام جعفر العسكـري بالذات بقيادتها وكانت تتشكل من فـوج مشاة بقيـادة الرئيس زكي مع فصيل رشاش وفصيل مدفعية ومفرزة تخريب. صـدر الأمر أن لا تصطحب القطعات خيمها بلا استثناء حتى القائـد جعفر العسكري. وفي أوائل شهر نيسان تحركت المفرزة من أبا اللسن في طقس غـائم بارد، وحينمـا وصلت إلى أحد الـوديـان هبت عاصفة شديدة مع أمطار غزيرة وبـرد شديـد حالت دون تقدمهم وبقوا تلك الليلة على هذه الصـورة دون أي شيء يقيهم هذا البرد والمطر والريح ولم يتمكنوا من الحصـول على وسيلـة تقيهم شر البرد فقضوا ليلتهم عـلى تلك الحـالة حتى الصبـاح وكـانت الجمال المحملـة بـالأرزاق والمـاء والعتـاد في الخلف لا تتمكن من اللحـاق بهم من جـراء الأوحـال التي حـالت دون سيرها، ولما أصبح الصباح، كان الجنود في حالـة لا تمكنهم من الاستمرار بالمسير وبدأ التذمر والتفكير بالعـودة دون أن يصدر أمر بذلك وخطب فيهم جعفر العسكري وحثهم على المسير ولكن عـاد أخيراً وأصـدر أمره بـالعودة. وشرعت المفـرزة بـالعـودة والعاصفة مستمـرة فانحـل النظام وأصبـح كل شخص يسـير لـوحده وبـرك قسم منهم حيث عجزوا عن الاستمـرار بالسـير وقضى البعض نحبه من البرد والإعياء والجوع والعطش وبعـد مرور مدة على هذه الحالة إذا بالأمير فيصـل يستقبل الجمـوع ومعه خدمه وعبيده ومعهم خيـل ورواحل ومفـرزة صحبت معها الدكتور محمود حمودة لـلإسعاف وبقي قسم من هؤلاء يـومين يتحرون عن المتأخرين ممن لم يتمكنوا من الالتحاق برفاقهم.

وبعـد جهد أقنـع الأمير الضبـاط بوجهـة نظره وأعيـد مولـود مخلص إلى قيادة الفرقة وأسدل الستار على هذه الحادثة.

٨

معارك معان

إن بلدة معان قائممقامية تقع على الخط الحجازي وهي تعتبر أقصى مدينة تابعة للحجاز من جهة الشمال وفي بدء الأراضي التابعة لولاية دمشق حتى أن البلدة نفسها تنقسم إلى قسمين منفصلين عن بعضهما بعضاً، أحدهما في الجهة الجنوبية ويسمى معان الحجازية والثاني إلى الجهة الشمالية ويسمى معان الشامية. وتقع معان في موقع منعزل عن المدن تحيط بها من الشرق أراضٍ صحراوية خالية من الماء إلا بعض الآبار، يسكنها البدو وغالبيتهم من الحويطات ومن أطرافها الأخرى أراضٍ خالية أيضاً إلا من البدو وإنما تكثر في بعض أمكنتها المياه الجارية ويتخللها تلول وهضاب وثم جبال كلما تقدمت نحو الغرب. وفي معان نفسها مياه جارية وبساتين فيها بعض الفواكه وتشتهر برمانها على الأخص. ومعان هذه بالنسبة لطبيعة موقعها ووجودها في أرض محاطة بالبدو الرحل وبعدها عن المدن الأخرى. تعتبر أهم أسواق البدو ففيها يبيعون ما لديهم من سمن وجبن وجلود ووبر ومواش، ومنها يشترون حاجاتهم من الأطعمة والقماش. ولذلك، فإن أهلها يعتبرون بصورة عامة نصف حضر ولهم مع العشائر التي بأطرافهم علاقات كثيرة. ومن طبيعة هذا الاحتكاك أن يولد الخصومات بجانب بعض

الصداقات، والبدوي طماع ليس لديه رادع يردعه إذا أمكنه الحصول على ما يملكه الغير وخصوصاً إذا كان غير بدوي لأن للبدو فيما بينهم قوانين عرفية رادعة لا يتمكنون من تجاوزها ولا صاحب الحق يتراجع عن حقه مهما طال عليه الزمن، ولذلك فالبدوي يستهون التجاوز على حق الحضر وهذا ما جعل أهل معان وهم في هذا المحيط الذي يعج بالعشائر البدوية حذرين منهم متأهبين للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم والاعتماد على أنفسم دون حماية الدولة مما جعل بينهم وبين العشائر حالة توتر دائم يتخلله الكثير من المسايرة وبعض التساهل من كلا الجانبين لأسباب تستوجبها مصلحة الطرفين.

إن وجود معان بهذا المركز الذي ذكرناه وكونها تقع في أراض تحيط بها الهضاب والتلول من جميع أطرافها وفيها المياهً الغزيرة وكونها تقع تقريباً في وسط المسافة بين دمشق والمدينة فإنها تعتبر مركزاً حربياً استراتيجياً يفوق جميع النواحي والأمكنة الأخرى أهمية التي على طول الخط الحديدي، ولذلك جعلها الأتراك مركزاً لقوات المحافظة على الخط كما جعلوها مركزاً لقيادة جمال باشا الثالث الذي بإمرته جميع هذه القوات. وحكم الأتراك هذا الموقع المهم بالاتجاهات الأربعة بحيث يمكن حاميته من الدفاع في أي اتجاه يحتمل أن يتقدم منها العدو. وجعلوا الخطوط الأولى الدفاعية من جهة الغرب وهي أكثر الجبهات تعرضاً للهجوم في تلول السمنات الواقعة على بعد خمسة كيلومترات إلى الغرب من معان وفي خلف خط الدفاع الثاني وخلفه بكيلومتر واحد أيضاً يقع الخط الثالث وهو بقرب بساتين وبيوت معان. وهناك خطوط دفاع أخرى أحدها في التلال الممتدة على شرقي المحطة وموقع على تليل قريب من المحطة يقع على شمالها الغربي.

وأخيراً ونزولاً عند الرأي العام المتذمر من جراء اقتصار

هجمات الجيش على حركات التعجيز بمهاجمة المواقع الصغيرة للعدو وعدم التقدم نحو الشمال تقرر مهاجمة معان.

ففي تاريخ ٨ نيسان ١٩١٨ عقد مؤتمر لهذه الغاية حضره الأمير فيصل ونوري السعيد والكولونيل دواني لتقرير الخطة للاستيلاء على معان. وتقرر أن تكون هذه الخطة على ثلاث صفحات كما يأتي:

الصفحة الأولى: تقوم مفرزة بالاستيلاء على محطة غدير الحج في جنوب معان وبعد الاستيلاء عليها يجرى أكثر ما يمكن من تخريبات للخط الحديدي في جنوبها وشمالها وبعد ذلك تعود المفرزة إلى أبا اللسن بعد أن تترك مفرزة صغيرة للترصد من الجهة الجنوبية.

الصفحة الثانية: تقوم الفرقة الثانية المرابطة في عين نجل في اليوم نفسه بمهاجمة محطة أبا الجرذان، وبعد الاستيلاء عليها تقوم بأكثر ما يمكن من تخريبات السكة ثم تترك قسماً من قواتها لترصد الجهة الشمالية ومنع الأتراك من التقدم وتلتحق بأبا الأسل.

الصفحة الثالثة: في ٢٤ نيسان ١٩١٨ تبدأ الفرقة الأولى بمهاجمة السمنات وبعد الاستيلاء عليها تقوم بمهاجمة القوات الأصلية في معان حسب الخطة المقررة.

قوة الجيش الشمالي في فترة هجومه على معان وهي القوات النظامية التي اشتركت في معاركه عدا ما يتبعها من قوات مساعدة كنقليات ومستشفيات وغيره:

ـ فرقتي مشاة «الأولى والثانية» الأولى يقودها مولود مخلص والثانية عبدالمجيد حسون، تتشكل كل فرقة من لوائين وكل لواء من ٢ ـ ٣ أفواج وكل فوج من ٢ ـ ٣ سرايا وكل سرية من نحو مائة جندي.

ـ لواء الهاشمي وهو يتشكل من سرية خيالة بموجود ٧٠ ـ ٨٠ خيالاً وبغالاً وسرية رشاش راكبي بغال (سريتي) وسرية الرشاش هذه مربوطة إسمياً بلواء الهاشمي أما فعلياً فهي مستقلة عن اللواء مربوطة بالقيادة العامة لترسلها مع أية مفرزة نظامية ترسل في مهمة بالنسبة لكونها راكبة.

المدفعية

- مدفع واحد أبوس بقيادة الملازم أحمد البغدادي.
- مدفعان صحراويان ١٨ باوند بقيادة الملازم سامي رؤوف.
- مدفعا غروب سريعان بقيادة الملازم أحمد الشقيطني.
- مدفعا جبل غروب بقيادة الملازم الحج أحمد بكر.
- مدفعان مصريان ٧ سم بقيادة رفعت شوكت.
- مدفعا جبل فرنسيان بقيادة الكابتن بيزاني.
- ٤ مدافع هوجكس ٢,٥.

موقعة غدير الحج

إنني لم أحضر هذه الموقعة بسبب اشتراكي في الوقت نفسه بالهجوم على أبا الجرذان. إنما أكتب هذه الموقعة نقلاً عن ما كتبه لي صديقي الزعيم طاهر محمد عارف الذي كان مشتركاً بهذه الموقعة وكان آمراً لإحدى السريتين اللتين اشتركتا في الهجوم عليها.

تتشكل القوة التي هاجمت محطة غدير الحج من سريتي مشاة الواحدة بقيادة الملازم الأول طاهر محمد عارف والثانية بقيادة الملازم الأول إبراهيم كمال وفصيل رشاش وفصيل مدفعية بقيادة رفعت شوكت ومفرزة تخريب بقيادة الملازم عبدالجبار أبو بهيجة. وكانت المفرزة بقيادة عبدالله الدليمي وبعدئذ التحق بها نوري السعيد يرافقه جميل المدفعي. وكانت مع

المفرزة قوة من البدو من عشيرة الحويطات نحو ٢٠٠ مقاتل بقيادة عودة أبو تايه وحمد ابن جازي وسرية خيالة بقيادة الرئيس إسماعيل نامق والملازم أشرف أحمد.

وتقدم القوة بقصد الاستطلاع قائد المفرزة مع آمري السرايا والمدفعية والرشاش ومعهم مرافق آمر المدفعية الملازم جمال بابان، وبينما كانوا في وادي العكيكة طوقتهم سرية خيالة تركية فقطعوا الأمل من الخلاص. وكنا في ذلك الحين نعتقد أن الأتراك يمثلون ثم يقتلون كل من يقع في أيديهم، ولذلك فإلى ذلك التاريخ لم يقع من الجيش في أيديهم ولا أسير واحد وعلى ذلك قرر جميع هؤلاء الضباط الانتحار قبل الوقوع بالأسر. وفي هذه اللحظة الحرجة جاءت لنجدتهم خيالة الحويطات فهاجموا خيالة الأتراك وهزموهم وبذلك أنقذوا الضباط إنما أصيب حمد ابن جازي بجرح بليغ وأرسل إلى المستشفى.

وفي اليوم التالي أرسل آمر السرية طاهر محمد عارف رئيس عرفائه للاستطلاع ولكنه لم يعد ولم يعثر عليه أحد.

وفي ٢٢ نيسان ١٩١٨ جرى التعرض على مواضع العدو. لقد كانت مواضع الأتراك تنقسم إلى ثلاثة مواضع، موضع في جنوب المحطة وموضع في شمالها وموضع في أطراف المحطة نفسها. هوجمت الناحية الجنوبية من قبل سرية طاهر محمد عارف فعقبها السرية الثانية فاستسلم من كان فيها من الأتراك وعندها تقدمت السرية الثانية نحو المواضع الأخرى استسلموا أيضاً دون مقاومة، ثم تقدمت السريتان معاً على مواضع المحطة ولكن الأتراك استسلموا قبل وصول المشاة إليهم.

وفي اليوم التالي عادت القوة إلى معسكر الوهيدة حيث كانت في احتياط الفرقة الثانية التي بدأت قطعاتها بمهاجمة معان. وحينما احتل الجيش محطة الغدير وجدوا رئيس العرفاء الذي

لم يعد من الاستطلاع في المحطة مقطوع الرأس مشوهاً بطلقات وضرب حراب، فحصل تأثر شديد بين الضباط والجنود ولم يتمكن جميل المدفعي من السيطرة على أعصابه فعزل اثنين من الأسرى وقتلهما برصاص مسدسه، وكتب كتاباً موجهاً إلى الأتراك بأن قتل الأسرى والتشويه بهم نذالة وإنكم أيها الأتراك لا تملكون منا أي أسير ولكن لدينا الكثير منكم وسوف نقتل بعد الآن عشرة أسرى لكل رجل منا تقتلونه على تلك الصورة التي فعلتموها. وكان ما أخذ من الأسرى في غدير الحج ٧ ضباط و٤٠ جندياً.

معركة أبا الجرذان

في نيسان ١٩١٨ تحركت القوة من عين نجل متوجهة إلى محطة أبا الجرذان وهي اللواء الأول في الفرقة الثانية وسرية رشاش (سريتي) وبطارية مدافع ومفرزة تخريب وعدد من البدو، وكان قائد هذه القوة رشيد المدفعي وباتت القوة بالقرب من المحطة مستترة خلف أراض تحجبنا عن نظر العدو، وعصر ذلك اليوم اصطحبنا القائد وأجرينا استطلاعاً وحضر أثناء ذلك قائد الجيش الشمالي جعفر العسكري. وفي المساء طلبنا قائد القوة رشيد المدفعي وأبلغنا خطة الهجوم التي سنجريها في الصباح وخلاصتها أننا سنهاجم المحطة من الغرب أي من الجهة التي نحن فيها وسيبدأ الهجوم بقصف من قبل المدفعية ثم يتقدم فوج من اليمين وفوج من اليسار بسريتين أماميتين وسرية تعقبهما في الاحتياط وتتقدم سرية الرشاش من الوسط وخلف الفوجين لإسنادهما، وعينت ساعة ابتداء القصف وساعة شروع الأفواج بالتقدم. لقد شعرنا أنه كان هناك خلاف بين رشيد المدفعي وجعفر العسكري وانني لا أتذكر أسباب ذلك إنما أظن أنه كان من جراء مداخلة جعفر باشا واعتراض

رشيد على مداخلته طالما هو الآمر والمسؤول. إن تحكيمات محطة الجردونة (وأصل اسمها أبا الجرذان) كانت عبارة عن تحكيمات موجهة إلى الغرب وهي تحكيمات كاملة بمعنى أنها محفورة بطول الجندي وفيها جميع ترتيبات المواضع النظامية من طرق اتصال وجيوب للعتاد وغيره، وكانت أكثرية القوة قد وصلت قبل يوم واحد عندما علموا بمهاجمة غدير الحج والتحركات غير الاعتيادية. ولم يكن لديهم لحسن الحظ لا رشاش ولا مدفع. لقد كانت الأراضي التي سنتقدم منها منبسطة لا يوجد فيها ولا عارضة ولولا بعض نباتات من الشيح والأثل التي تعلو عن الأرض عادة بعشرة أو خمسة عشر سنتمتراً لكان العصفور لا يكاد يجد ما يخفيه فيها عن النظر. لقد تذكرت ونحن نستطلع تلك الأرض في النهار الأراضي التي كانت أمام مواضعنا في حرب غزة الأولى وكيف أننا قبل هجوم الإنكليز خمّنا المسافات ووضعنا الإشارات على كل مسافة وكيف كنا نرمي خطوط الإنكليز المتقدمين بعد أن نترك لهم مجال التقدم إلى المسافات القصيرة ثم نقوم بحصدهم وكيف أننا وجدنا عقب المعركة في ذلك السهل العديد من القتلى. ولكن التحكيمات التي كنا نشغلها محفوظة من جميع أنواع الأسلحة فكنا نرمي براحة وبدون انزعاج أو خوف وكان جنودنا رماة مدربين أحسن تدريب لا يتخطون الهدف فتعذر على الإنكليز أن يصلوا إلينا. كانت الأراضي متشابهة ولكن الأتراك لم يكن لديهم رشاش وهذا أهم ما في الأمر.

شرعت المدفعية بالقصف ثم شرعت المشاة بالتقدم وتقدمت بسريتي خلف المشاة وخلف الفجوة التي بين الفوجين وفتحت النار من أول موضع من مسافة ثمانمائة متر وقد أصبحنا تحت نار العدو المؤثرة، وبعد قليل تقدمنا بقفزة أخرى إلى مسافة مائة متر أخرى وبدأت إصابات تقع في جنود المشاة المتقدمين.

وقفزنا قفزة أخرى بحيث أصبحت الرشاشات على مسافة خمسمائة متر عن العدو، وتعتبر هذه المسافة في مثل هذه الأرض المنبسطة غير ملائمة للرشاش وغير معقولة ولكنني أردت تشجيع المشاة وسقط من سريتي أول جريح وأعقبه جريحان وكثرت الإصابات في المشاة ووقفت عن التقدم على مسافات متفاوتة بين ٣٠٠ ـ ٢٠٠ متر وهذا يعتبر موقفاً خطراً فالمسافة أصبحت قريبة للعدو بحيث أصبح بإمكان رماته إيقاع إصابات مؤثرة من هذه المسافة القصيرة. وفي هذه الأثناء مر من جانبي ضابط اسمه عباس على حصانه هاجماً على العدو ولما صار إلى جانبي صاح اشهد يا صبحي اشهد ولم يكد يبتعد ثلاثين متراً حتى خر صريعاً وكان هذا الضابط مرافقاً لجعفر العسكري. لقد وقف خط تقدم المشاة ولم يكن من الجائز أن تتقدم الرشاشات لأكثر من هذه المسافة بمثل هذه الأرض وقد أصبحت نيران رشاشاتنا متسلطة على استحكامات العدو (لأن طلقات الرشاش تكون واضحة مما تنشره من غبار) وكنت ذكرت فيما سبق أنني كنت قد أدخلت في ملاك سريتي جنوداً أكثر مما تتطلبه الرشاشات، بحيث أصبحت كل رشاشة معها حضيرة من حملة البنادق وكان قصدي من هذا التشكيل أن يتكون منهم قطعة مشاة تقوم حسب الحاجة بالحماية أو الهجوم. ولما تيقنت من توقف تقدم المشاة أمرت هؤلاء الجنود بأن يتبعوني وشرعت بالتقدم بعد أن أوكلت بالرشاشات لآمر الرعيل الأول. ولما صرت في صفوف المشاة الأمامية صرنا ننخيهم ونحن مستمرون في التقدم وبدأوا يتقدمون معنا. ولما وصلنا إلى مسافة نحو ثلاثين متراً من المحطة كانت آخر قنبلة وآخر صلية رشاش تقع عليهم لأنه ونحن في مثل هذه المسافة يجب أن يقطعوا نيرانهم ولم يبق أمامنا وأمام العدو سوى القنابل اليدوية والحراب. صحت بأعلى صوتي بالتركي «سلموا أحسن ما تموتوا» ورأيت الجنود

واقفين بحالة ذهول شاكين الحراب، أما نحن فلم يكن لدينا حراب وفي تلك اللحظة شاهدت ضابطهم شاهراً سيفه يقول لجنوده تهيئوا بالحراب عندها ألقيت إحدى القنبلتين اليدويتين اللتين كانتا معي وألحقتها بالثانية وكانت أول قنبلة يدوية حقيقية أرميها في معركة حقيقية على عدو حقيقي بعد أن دربت على استعمال هذه القنابل للكثير من تلاميذي بالمدرسة العسكرية أثناء ما كنت معلماً، وكانت حصيلتها هذا الضابط المسكين الشجاع وعدد من جنوده وبعد استيلائنا على المحطة رأيته قتيلاً وقرأت هويته فكان من جنس اللاز وهم غير الأتراك بلادهم في شمال الأناضول، فأمرت بدفنه.

وأعقب ذلك عدة قنابل من جنودي وخفض جنود الأتراك رؤوسهم ضمن الخندق وهم يصيحون من داخله تسليم فطلبنا إليهم أن يتركوا سلاحهم في الأرض ويرفعوا أيديهم حيث استسلموا. وفي هذه اللحظة شاهدت جعفر العسكري على ظهر حصانه شاهراً سيفه وكان قد شرع بهجومه هذا قبل استسلام العدو ووصل المحطة أثناء عملية الاستسلام وهيجانها وأول ما اهتم به هو صيانة أرواح الأسرى ثم ترجل وعانقني وشكرني. لا أذكر عدد الشهداء والمجاريح الذين قدمتهم المفرزة ولكن الشهداء من سريتي كانوا ثلاثة والمجاريح سبعة.

بعد أن نسف الجسر الذي كان بقرب المحطة ومنشآتها والخط الحديدي إلى مسافات طويلة عدنا إلى المعسكر الذي كنا فيه ثم توجهنا إلى موقع الوهيدة. وفاتني أن أذكر أنه من جملة خطة الهجوم أن تقوم مفرزة التخريب التي ترافقنا بقطع خط السكة من شمال المحطة وهكذا فعلت وبقيت مستمرة بالنسف حتى مساء ذلك اليوم.

وفي المساء صدر الأمر اليومي للفرقة يثني على الضباط والجنود وخص سريتنا بأعظم ثناء وتقدير، وجاء قائد الفرقة

رشيد المدفعي إلى خيمتي بزيارة تقديرية كان لها أعظم الأثر في نفوسنا. وفهمت من حديثه أنه كان خائفاً جداً من فشل الهجوم عندما توقفت المشاة عن التقدم ولما قمت بالتقدم وجرف خط المشاة معي اعتبرها عملية انقاذ، خصوصاً وأن الخلاف والمشادة التي حصلت بينه وبين جعفر كانت ستتطور لغير صالحه في حالة الفشل. وعلمت أنه طلب ترفيعي لرتبة رئيس فلم يستنسبوا ذلك بسبب ترفيعي قبل شهرين ونصف الشهر وصغر سني بالنسبة لرتبة رئيس. وتقرر إعطائي منحة تقديرية خمسمائة جنيه فوضعتها في صندوق السرية. إن هذه المعركة كانت الأساس لصداقة طويلة استمرت بيني وبين رشيد المدفعي. فكان رحمه اللّه عراقي وأقدم الضباط في جيش الثورة بل يدعي أنه كان أقدم من جعفر باشا وهذه على ما يظهر كانت نقطة انطلاق لخلاف طويل استمر بينهما إلى ما بعد الحرب. حتى عندما عاد العراقيون إلى بلادهم عقب سقوط الحكومة الفيصلية وكان حينئذ في شرقي الأردن ففضل البقاء فيها، ولما وصلها الأمير عبداللّه عينه متصرفاً في السلطة وكان الأمير رحمه اللّه يحبه ويعطف عليه وهكذا بقي في الأردن وتوفي فيها رحمه اللّه.

معركة معان

كانت القوات النظامية المهيأة للقيام بالاستيلاء على معان متجمعة في موقع الوهيدة، وعهد إلى الفرقة الأولى بقيادة مولود مخلص في القيام بالتقدم نحو مواقع الأتراك الأمامية في المواضع التي اتخذوها في تلول السمنات وضبطها ثم التقدم للاستيلاء على المواضع المتعاقبة الأخرى، وتتشكل الفرقة من اللواء الأول بقيادة تحسين علي المؤلف من فوجي مشاة (٦٥٠ ـ ٧٠٠ محارب) وسرية رشاش. واللواء الثاني من فوجي مشاة وسرية رشاش.

وخصص لإسناد الفرقة ٤ مدافع صحراء و٤ مدافع جبلية ومدفعا هوجكس ٢,٥ سم بقيادة جميل المدفعي وكان نحو ٣٠٠٠ بدوي متهيئين في شرقي المحطة للقيام بمعاونة هذا الهجوم.

وصدر الأمر إلى اللواء الثالث من الفرقة الثانية المشكل من فوجين وسرية رشاش وأربعة مدافع جبلية أن يلتحق في اليوم التالي باللواء الأول. وهذه القوة هي التي كانت قبل ذلك بثلاثة أيام قد هاجمت محطة غدير الحج بقيادة نوري السعيد.

وهذا اللواء كان قد أفرز من فرقته التي أوكل إليها واجب الاستيلاء على محطة الجرذونة.

تحرك اللواء الأول مع المدفعية عصر يوم ١٢ نيسان ١٩١٨ من الوهيدة على طريق عكسكة الواقعة على الجناح الأيمن لمواقع سمنة وإلى شرقها. وأرسل قائد الفرقة سرية مشاة رشاشتين إلى جناح العدو الأيسر مع عدد من البدو بقصد إشغالهم من تلك الناحية. لقد كان الأتراك في السمنات داخل خنادق مهيأة تهيئة حسنة معززة بجميع وسائل الدفاع، وقد يصعب الاستيلاء عليها من الجبهة وتسبب خسائر كبيرة ولذلك استهدف بخطته أن يهاجم هذه المواقع من خلف الجناح الأيمن بحيث يمنع في الوقت نفسه وصول التقويات إليهم كما يحول دون تراجعهم للالتحاق بخط دفاعهم الثاني.

وانتخبت مواضع المدفعية بحيث نتمكن من صب نيرانها على خطوط السمنات وأجنحتها وخطوط التقرب نحوها من الخلف ودخلت القطعات والمدفعية مواضعها ليلاً، وفي صباح يوم ١٣ نيسان الباكر فتحت المدفعية نيرانها على مواضع العدو لتهيئة الهجوم وبعد عشرين دقيقة شرع الفوج الأول بالتقدم بقيادة عبدالحميد الهاشمي واستولى على مواضع العدو من دون

خسائر تذكر وانسحب الأتـراك، لأن هذا الهجـوم الجانبي قـد أربكهم ولم يـدع أمامهم مجـالاً لإطالـة الدفـاع. غير أن هـذا الفـوج والقوات الأخـرى أهملوا واجب المطـاردة وعدم إعطـاء المجـال لانفلات العـدو والتحاقـه بخط الـدفـاع الثـاني. فبقي يتراجع بسهولة فلم يتمكن قائد الفرقة مولود مخلص من ضبط نفسه فحرض عدداً من خيالة الأمير فيصل الذين كـانوا قـربه ليهجموا على العدو وهجم هو في مقدمتهم وأسروا منه نحو سرية ولكنه ما عتم أن أصيب بجرحين في رجليه وسحب بكل صعوبة إلى الخلف وكـانت مدفعيـة الأتراك خـلال هذه المعـركـة تطلق مدافعها على قطعاتنا المهاجمة.

وبعـد الاستيـلاء عـلى السمنـات بقي اللـواء الأول والقطعـات الملحقـة في مواضـع سمنة ثـلاثة أيـام دون أن يتقدمـوا نحـو مواضع الأتراك الثانية وذلك بانتظار وصول الفرقة الثانية التي قامت بالاستيلاء على الجرذونة.

وصلت الفرقة الثانية مـع القطعات التي كـانت ملحقة بهـا من مـدفعية ورشـاش وغيرهـا واجتمعت الفرقتـان قرب مـواضـع السمنات.

وفي صبـاح يـوم ١٦ نيسـان شرعت الفـرقتـان بـالتقـدم عـلى الأهداف المخصصة لهـا. وكان اللـواء الأول أيضاً يشكـل خط التقدم الأول وبقي اللواء الثاني في تلول سمنة كاحتياط يترصد الجناح بعد أن ألحق به فوج مشاة وسرية رشاش وعلى ذلك لم يبق في السمنـات سـوى فـوج واحـد. وألحقت سريتي (سريـة رشاش لواء الهاشمي) بالفرقة الثانية التي عهد إليها بـالـهجوم من استقامة جنـاح الفرقـة الأولى الأيمن أي من جنوب غـرب معان. وقد كان جعفر العسكري وبرفقتـه نوري السعيـد يديـر صفحات المعركة وكان الأمير فيصل والأمير زيد في تلـول سمنة

ثم انتقلا من موضع لآخر يراقبان المعركة في جميع صفحاتها ومواقعها.

وبعد العشاء من مساء اليوم الذي استؤنف فيه الهجوم استولى اللواء الأول على المواضع الثابتة للعدو وقضت قطعات المشاة تلك الليلة في تلك المواضع. وكان جعفر باشا دائماً مع القطعات الأمامية ينظر في أمورها ويشجعها ويكاد لا يفارق القطعات إلا عندما تضطره أمور القيادة إلى ذلك.

وفي يوم ١٧ نيسان تقدم اللواء الأول للفرقة الأولى نحو الخط الثالث من مواضع العدو الدفاعية وفي الوقت نفسه قامت قطعات الفرقة الثاني بالهجوم على مواضع تشكل الجناح الأيسر لدفاعات العدو وفي ذلك اليوم اشتركت مع سريتي في ذلك الهجوم.

أخذت آمراً من قيادة الفرقة ان اكون مع سرية اليمانيين (وهي سرية كثيرة العدد نحو ـ ١٥٠ ـ جندياً) يقودها ضابط لا أريد ذكر اسمه (رحمه الله) تلقى هذا الضابط أمراً أن يهاجم هضبة على جناح العدو الأيسر تتحكم بنارها على جميع تلك الأطراف على أن أسند تقدمه بنار الرشاشات، ولما وصلنا إلى محل القفزه التي يجب على المشاة أن يشرعوا بالهجوم منها أدخلت الرشاشات بالمواضع وفتحت النار ولكن هذا الضابط لم يشرع بالتقدم فأشرت له من المحل الذي أنا فيه أن يتقدم ولكنه لم يفعل، ولما طال الأمر عدت للخلف أسأله عن السبب وقد كان متمدداً في حفرة وبجانبه رئيس عرفاء سريته ولم يكن في تلك السرية ضابط سواه، ولما ألححت عليه بالسؤال عن سبب عدم تقدمه فصار يبرر أنه لا يمكن الاستيلاء على ذلك الموضع لخطورة التقدم بأرض مفتوحة وكون العدو في هضبة مرتفعة. وقد طال الجدل بيننا في الوقت الذي كان فيه اللواء الأول من

الفرقة الأولى مستمراً في التقدم من الجبهة وكان القصد من إرسالنا هو معاونته، وكان الوقت يفوت بسرعة، عندها قلت ابق أنت هنا في محلك وأنا أتقدم بسريتك وكنت أنتظر منه أن يرفض هذه الإهانة ولكنني صعقت عندما أجابني بالقبول والشكر والأدعية، فعندها نهض رئيس عرفاء السرية ووجه لي كلامه قائلاً: سنكون معك يا سيدي وسنرى ما سنفعل أتركه هنا ولكن صاحبنا كان في وضع انهيار لم يجاوبه إلا بكلمة كثر خيرك. وهكذا تقدمت بسرية اليمانيين وتركت سريتي تسند بقيادة آمر الرعيل الأول محمود الهندي. هنا أسجل لهؤلاء الجنود اليمانيين أنهم كانوا من أشجع جنود جيش الثورة هذه شهادة يقول بها جميع من اشترك في الثورة وقد أصبحت هذه السرية فيما بعد سرية الحرس الملكي بدمشق في العهد الفيصلي بقيادة الرئيس محمد علي العجلوني، وهي الوحيدة من الجيش النظامي التي قاتلت في معركة ميسلون واستبسلت مع قائدها العجلوني وبعد سقوط دمشق تفرق أفرادها وبقي القسم الأكبر منهم في دمشق حيث توطنوا فيها وأصبح لهم أولاد وأحفاد.

لقد رافقني بعض حملة البنادق من جنودنا وتقدمنا تحت إسناد الرشاشات واستولينا على الهضبة وأشغلناها في الوقت الذي استولت فيه، الفرقة الأولى على باقي المواضع وأشغلتها، وعدت إلى سريتي وقلت لذلك الضابط هيا اذهب إلى سريتك وقل للقيادة بأنك أنت الذي استوليت عليها. قال: أرجوك أن تستر علي. قلت له: وهو كذلك وإنني كلمت رئيس عرفائك فوعدني بأنهم سيكتمون ذلك. وبقيت هذه الحادثة سراً لم أذكره لأحد حتى الآن، وقد نال هذا الضابط شهرة كبيرة بشجاعته التي أبداها في تلك الموقعة التي كان يتحدث عنها وقد نال وسام معان وترفع إلى رتبة ملازم أول.

لقد تم الاستيلاء على جميع مواضع الخط الثالث في حوالى

المغرب وبتنا تلك الليلة في مواضعنا وبقي لدى الأتراك المواضع التي تحيط بالمحطة من الشرق والشمال والجنوب وهي أكثرها تحصيناً، وضاقت جبهة العدو بسبب تراجعهم من خطوطهم الأمامية الثلاثة وأصبحت القوات التي لديهم من مشاة ورشاش ومدفعية تدافع عن منطقة أضيق مما كانت تدافع عنها في بداية المعركة، وفي هذه الآونة انضم إلى الأتراك نحو تسعمائة مقاتل من أهالي معان وهكذا أصبحت المواضع الباقية في أيديهم قوية.

في صباح ١٨ نيسان استؤنف الهجوم من قبل الفرقتين فالفرقة الأولى تقدمت نحو المواضع التي حوالى بلدة معان والفرقة الثانية نحو المواضع التي في شرق وجنوب المحطة. لقد أُمر فوج مشاة من الفرقة الثانية بالاستيلاء على المواضع التي كان يشغلها العدو في الهضاب التي في شرق المحطة وأُمرتُ أن أسند تقدمه، وكانت الأرض التي سيجرى فيها التقدم مفتوحة ليس فيها عوارض وكان علينا مشاة ورشاشات أن نتقدم مسافة طويلة في هذه الأرض المكشوفة تحت نيران كثيفة. بعد الشروع بالتقدم بدأت النيران تأتينا من التل الذي في جنوب المحطة والواقع على جناحنا الأيسر ومن التلول الواقعة في شمال المحطة علاوة على النار التي كانت تأتي من الجبهة وكثرة الخسائر وأكثرها كانت قاتلة. وعندما أصبحنا في منتصف المسافة وفي أخطر منطقة وأحرج موقف وإذ يأتيني جندي مراسل فيتمدد بجانبي ويعطيني ورقة صغيرة فيها ما يلي: (صبحي. انسحب مع رشاشتين لعندي التوقيع جعفر العسكري). كانت عملية الانسحاب أصعب وأخطر من عملية التقدم وقد كدنا نصل إلى أراضٍ أسهل للتقدم من الأرض التي اجتزناها. فأمرت الفصيل الثاني بالرجوع وأمرت الملازم محمود الهندي بالاستمرار في التقدم ورافقت الفصيل الثاني بالانسحاب لعلمي

أنه سنكلف بواجب آخر. وبدأت الخسائر تزداد حتى لم يبق في كل رشاشة سوى جنديين مما اضطرني لمعاونتهم بالحمل وثم توقفت في أرض مناسبة وأرسلت بطلب جنود من الاحتياط حيث جلبنا الرشاشات وأدواتها ومن وقع من شهداء والمجاريح الذين تجاوزوا العشرة. فوصلت المحل الذي فيه جعفر باشا وكان في المحل نفسه الأميران فيصل وزيد ونوري السعيد وكانوا يشاهدون حركتنا وما قدمناه من خسائر. سألني جعفر باشا هل بإمكانك عمل شيء قلت له نعم بعد ربع ساعة حتى أعيد تنظيم الرشاشات وإكمال جنودها من الاحتياط. أخبرني أنه طلبني بسبب أن قسماً من خيالة الأمير احتلت التل الذي فوق المحطة ولأجل أن يحتفظوا به ولبينما يرسل سرية مشاة يطلب إلي أن أذهب إلى التل المذكور. شاهدت خلال ذلك الكابتن بيزاني يتجادل مع نوري السعيد. وبيزاني هذا يقود القوة الفرنسية التي تشترك في الثورة وهي عبارة عن مدفعين جبليين ورشاشتين. لقد توقفت مدافع بيزاني عن إسناد القطعات المهاجمة في أحرج أوقات تقدمها وكان يدعي أن عتاد المدافع قد نفد بينما لم يكن قد أطلق بعد ولا عشر طلقات وسمعته يقول إنه لا فائدة من بقائه دون عمل وسحب مدافعه وعاد إلى الوهيدة.

تقدمت إلى التل خلال أراض سهلة كالأراضي التي كنا نتقدم منها وبدأت الإصابات منذ الدقائق الأولى وكانت النار تأتيني من المواضع التي كنا نهاجمها في شرقي المحطة ومن المواضع التي في شمالها ومن مواضع في يسارنا ومن المحطة نفسها. واجتزنا مسافة نحو ستمائة متر على هذه الصورة ووصلنا إلى حافة التل الجنوبية ولم يبق من موجود الرشاشتين الاثني عشر سوى جنديين فقط، وشاهدنا ونحن في سفح الهضبة ثلاثة من خيالة الأمير خلف الهضبة أحدهم مضايفي الأمير صنداح وهم

على وشك الانسحاب وأخبروني أن باقي جماعتهم في أعلى الهضبة. إن علو هذه الهضبة نحو الثلاثين متراً فرجوتهم أن يساعدونا بإصعاد الرشاشات ففعلوا ذلك كما أرسلت الجنديين الاثنين حيث أتيا ببعض الأدوات والمناصب التي كانت باقية مع الجنود الشهداء والمجاريح أثناء تقدمنا. وشرعنا بتسلق الهضبة وعندما وصلنا قمة الهضبة وجدناها ملأى بقتلى الأتراك بينهم جريح واحد بحالة احتضار ويظهر أنهم قتلوا بقنبلة طائرة، وضعت كل رشاشة في موضع موجه إلى المحطة وبدأنا الرمي وأصبحت المحطة التي لا تبعد عنا أكثر من خمسمائة متر تحت نيران رشاشاتنا المؤثرة. وفتحت مدفعية العدو علينا نيرانها فانسحبت خيالة الأمير وركبوا خيولهم التي كانوا قد تركوها خلف الهضبة. وبقيت مع الجنديين وافتكرت أن أرسل أحد الجنود بطلب إرسال عدد من جنودنا الاحتياط ولكن الجندي الذي أرسلته استشهد بطلقة عندما اجتاز سفح الهضبة بقليل، وهكذا بقيت مع جندي واحد وكان هذا الجندي يمانياً وجلس هو خلف رشاشة وأنا خلف الثانية ولم يبق لدى كل رشاشة سوى شريط واحد ليس فيه أكثر من مائتي طلقة مما اضطرنا للاقتصاد بالرمي. وهكذا بقينا في مواضعنا أنا وهذا الجندي حتى الظلام. وهنا خطر لي الانسحاب ولكن من يحمل الرشاشات وأدواتها وكيف انسحب دون أمر، وما عساه أن يؤثر هذا الانسحاب على الخطة فلو كان هناك ما يقضي بانسحابنا لأعلمونا به ولكن من يتمكن من الوصول إلينا وما عساه يحصل لو أن الأتراك أرسلوا علينا (من المحطة في السفح الشمالي للتل الذي نحن عليه) قطعة من المشاة ونحن لا نتمكن من مشاهدتهم ولم يبق لدينا ما ندافع به. لقد مر الوقت وصار وقت العشاء وإذ بالجندي يخبرني أنه يسمع صوت حوافر خيل فأصغينا، إنها حقيقة ولكن الصوت يأتي من الجنوب لا من جهة المحطة. الأصوات لا تزال تقترب فأدرنا

إحدى الرشاشتين نحو اتجاه الصوت ولكن يستحيل رؤية شيء. ولم يبق سوى نحو ثلاثين إطلاقة مع كل رشاشة وهي لا تكفي لأكثر من ١ ـ ٣ صليات، ولكن على ماذا نرميها ونحن لا نرى أي هدف بهذا الظلام الدامس. ولكن اليأس أوحى لي أن أرمي صلية بقصد الارهاب وإعلام العدو بأننا لا نزال هنا ولا نزال ندافع. ما كدت أرمي الصلية حتى سمعت صوتاً يقول: لا ترمِ صبحي صبحي لا ترمِ. عرفت صاحب الصوت وهو الملازم طارق الرفاعي مرافق جعفر. لا أعرف كيف أصف شعوري عند تلك اللحظة عندما وصل طارق وبجانبه جعفر باشا ومعه ضباط آخرون وعدد من المراسلين وجميعهم راكبون.
لقد خيم بعد الظلام هدوء نسبي على الجبهة لقد خفت هذه المعركة وأصبحت طلقات الرشاش والبنادق التي كانت تطلق بحدة واستمرار متقطعة من هنا وهناك وقنابل المدفعية انقطعت تماماً من الجانبين فهذا الوضع بالنسبة لما كان عليه قبل ساعة يعتبر هدوءاً ولكنه هدوء رهيب وإذا تصورناه وهو يمتزج مع الموقف الخطر الذي نحن فيه. وآخر ما خطر لي أن القائد ظن أننا فنينا ولم يبق منا أحد ولذلك لم يرسل لنا آمراً جديداً نعمل به وبقيت أتخبط في حيرتي إلى أن سمعت صوت طارق.
قال جعفر: هيا انسحبوا قلت له: لم يبق أحد لحمل الرشاشات قال لمن معه: كل منكم يحمل قطعة وأشار لأحد مراسليه أن يترجل عن حصانه ويعطيه للجندي الذي بقي معي وقال لي: اركب خلفي فأبيت. وقال: هذا أمر أركب وأخيراً استأذنته أن أفعل ذلك بعد النزول إلى أسفل الهضبة وكان رحمه اللّه ضخم الجثة. ومع ذلك لم يقبل أن أركب ما قدمه لي مرافقه وغيره من خيلهم إلا أن يردفني خلفه، وقد كان يقصد إكرامي وبيان اهتمامه وعطفه. وهكذا وصلنا إلى المحل الذي وجدنا فيه السرية مجتمعة تنتظرنا وأعلمني جعفر باشا أثناء مسيرنا أن الأوامر صدرت بالكف عن الهجوم وعودة القطعات إلى الوهيدة

وأن القطعات بدأت الانسحاب منذ الغروب وأعلمني أيضاً أنهم كانوا يعرفون أننا لا نزال أحياء من بعض صليات الرشاش التي كنا نرميها، وأنه أرسل لنا أمرين بانسحابنا ولكن المراسلين قتلا قبل أن يصلا إلينا، وأن الأمير فيصل بعد أن تقرر الانسحاب قال كيف نترك هؤلاء وننسحب وأبى أن يغادر مكانه إلى أن شاهد عودتنا مع جعفر باشا. أما الفصيل الأول الذي بقي بإمرة محمود الهندي فقد قدم ضحايا كثيرة أثناء تقدمه وانسحابه من التلال الشرقية. وعلمت أن جميع المجاريح قد نقلوا للمستشفى وجرى دفن جميع الشهداء عدا ثلاثة منهم حيث كانوا بالقرب من التل الذي كنا فيه فتمكنا من جلب اثنين منهم وبقي الذي استشهد إلى جانبي على رأس التل. وكان مجموع خسائر السرية ٣٢ ضابط صف وجندي منهم ٢٨ شهيداً و٤٢ جريحاً وهذه النسبة مرتفعة جداً إذا لاحظنا أن مجموع جنود سريتنا تسعون ضابط صف وجندي. فتكون بهذه الحالة نسبة الإصابات نحو ٧٢٪ وهي مرتفعة كما قلت. إنني لا أعرف تماماً مقدار مجموع الإصابات التي في الجيش إنما علمت أن إصابات اللواء الأول ما بين قتيل وجريح تتجاوز المئة. وبصورة عامة قدرت إصابات الجيش بأجمعه بنسبة ٣٠٪. أما خسائر الأتراك فلقد كانت ٧٠ أسيراً ونحو ٢٥٠ بين قتيل وجريح. وأقول هنا مع الأسف أن رئيس أركان حرب قوة الأتراك كان عربياً ومن دمشق واسمه محمد إسماعيل.

وصلنا إلى الهويدة بعد منتصف الليل وبتنا في العراء وكان يخيم علينا، ضباطاً وجنوداً، حالة وجوم وألم عميق لا يمكن أن يقدرها حق قدرها إلا من عاناها لقد كنا في هذه السرية، ضباطاً وضباط صف وجنوداً، متحابين متآلفين تجمعنا روح هذا العمل المشترك، تغمر كل فرد منا روح الثقة والتعاطف وتربطنا وحدة العمل والمصير. لقد كنا نشعر بأننا كعائلة واحدة وكل فرد منا

له مكانه في قلب الآخر وزاد في قوة ارتباط كل منا بهذه المجموعة مشاركتنا بالاسم الطيب والثناء الذي حصلت عليه السرية في موقعتي الطفيلة والجرذونة مما جعل كلاً منا يشعر بأنه مساهم كبير وعضو فعال في هذه الشركة الناجحة، وأن هذه المرابح المعنوية قد نالها المجموع لا فرداً من أفرادها وأنها تستمر باستمرار المجموعة كل هذا جعل كل واحد منا يشعر بأنه عضو في جسم واحد.

وفي صباح اليوم التالي جمعت منسوبي السرية وجلسنا على الأرض لأواسيهم وأشجعهم ثم ذهبنا جميعاً إلى المستشفى مع بعض الهدايا فزرنا جنودنا وغير جنودنا.

وبعد الظهر طلبتني القيادة العامة فدخلت على جعفر باشا فكلمني بعبارات أكثر مما استحق ثم سألني عما إذا كان لي مطاليب قلت له: خمسة وعشرون جندياً أنتخبهم من المشاة فأعطاني أمراً بذلك ثم طلبت خيماً للجنود فأمر بها ثم سألني هل عندك خيمة قلت لا. فصاح على مراسله فأمره بأن يقوض خيمته الخاصة ويعطيها لي فاستحييت ورفضت مع الشكر ولكنه أصر واعتبرها أمراً وأعطاها لي ثم قال الأمير يريد أن يراك فاستقبلني الأمير استقبالاً يتجاوز قدري وقال لي أخيراً: (اللّه يقدرني على مكافأتك) فأنساني ذلك كل آلامي وما عانيت.

وسترى فيما بعد أن جلالته بقي يعتني بي إلى آخر حياته رحمه اللّه وأعدنا تنظيم الرشاشات واستأنفنا التدريب وخصوصاً تدريب من أخذناهم من الجنود الجدد.

ملاحظات عن معركة معان

أرجو القارىء الكريم أن لا ينظر إلى الملاحظات التي تعطى فيما بعد عن المعارك الحربية على أنها انتقادات وأن الحرب

بالنظارات أسهل كما يقولون. لأن جميع ما يذكر عن المعارك الحربية لا يعتبر انتقاداً بل هو ملاحظات لبيان الحقائق القصد من ذلك هو الوصول إلى الحقيقة لتسجل في التاريخ. فالخصمان المتحاربان يكونان خلال المعركة أو قبلها وبعدها تحت تأثير عوامل عديدة وليس من المفروض فيهما أن يكونا واقفين على حقائق أوضاع خصومهم، لا قبل المعركة ولا أثناءها ولربما يعلمون شيئاً وتغيب عنهم أشياء. وهناك أمور غير منتظرة ومفاجآت وملابسات وظهورات ومؤثرات شخصية وتقديرات خاطئة وعوامل شخصية وأرضية وغيرها وغيرها مما يكون لها أعظم الأثر في تفكير القائد وخططه وطريقته في العمل. فمن المستحيل معرفة وتقدير جميع هذه المؤثرات والعوامل إلا بعد الحرب وبعد الوقوف على وضع الخصمين في خلال تلك المعركة. ففي كل وزارة دفاع يوجد هيئة مخصوصة لتدوين هذه الأمور وثم عقب الحرب وعقب زوال المحاذير عن نشر الحقائق يأخذ كل طرف ما دوّنه الآخر عن حقيقة وضعه في تلك المعركة فيضعها إلى جانب وضع جيشه ويدون من كليهما حقيقة المعركة ليدون من ذلك التاريخ العسكري الذي يدرس في المعاهد والقطعات العسكرية وهو أهم المراجع في توسيع الثقافة العسكرية والتدريب على فن القيادة.

ولا أقصد مما ذكرته أنني أبغي تدوين التاريخ العسكري للثورة العربية فهذا ليس في مقدوري، كما أنه ينقصني الكثير من المعلومات عن العدو وحتى عن قطعاتنا ولكنني أقصد بأنني سأدون مشاهدات وملاحظات يمكن أن تكون ذات قيمة لمن يريد تدوين التاريخ بصفتي شاهد عيان لا ناقلاً، كما أن لي صفة أخرى هي ثقافتي العسكرية التي تنظمت وقويت فيما بعد في خلال الثلاث والعشرين سنة من الخدمة التي قضيتها في الجيوش العربية منها سبع عشرة سنة في الجيش العراقي.

إذاً أرجو من القارىء الكريم أن لا يعتبر ملاحظاتي هذه انتقاداً أو للحط من شأن أحد. وإنني لأعترف أن قادة الثورة وضباطها قاموا بواجبهم حق القيام بل فعلوا أكثر مما يطلبه منهم الواجب وقاموا بأعمال لا يمكن للإنسان أن يتصور لها من مزيد.

ـ أول ما يجلب الانتباه هو أن الخطة الموضوعة لمعركة معان كانت مشوشة وغير مبنية على تقدير موقف صحيح. لقد قررت الخطة بإرسال مفرزتين إحداهما للمداورة والثانية لمحطة أبا الجرذان للاستيلاء عليها وتخريبها وتخريب الخط للشمال والجنوب. وذلك بقصد منع وصول إمدادات للعدو عن طريقهما أثناء مهاجمة معان وهي الهدف الأصلي للمعركة، وإذا أعدنا النظر بقوة هاتين المفرزتين نجدها تتجاوز نصف قوة الجيش من جميع الأسلحة. ومع ذلك، فإن الخطة قضت أن تبدأ الفرقة الأولى أو بالأحرى لواؤها الأول بالهجوم قبل عودة المفارز أو على الأقل قبل عودتها وإعطائها قسطاً من الراحة، الأمر الذي سبب وقوف اللواء الأول بعد استيلائه على السمنات ثلاثة أيام ينتظر عودة وتهيئة الفرقة الثانية لقيامها بالمشاركة في الهجوم مما هيأ الوقت الكافي وهو ثلاثة أيام ليقوم العدو بإعادة تنظيمه وتمركزه في الخطوط الأخرى قبل شروع الإمدادات بالحركة نحو معان. وكان من الأوفق أن يصار إلى تنظيم الشروع بالهجوم إلى الفرقتين معاً بعد عودة الثانية من تخريب الخط والراحة لمدة مناسبة فعندها يكون زخم الهجوم أقوى والتعاون بين القطعات أمتن وفرصة تنظيم المقاومة لدى العدو أقل وبالتالي فرصة التوفيق أكثر احتمالاً.

ـ وكانت أول خطيئة ارتكبت هي خطيئة قائد الفرقة مولود مخلص الذي ترك آمر قيادة فرقته في أحرج وقت وقام بمهاجمة جنود الأتراك المتراجعين مما سبب إصابته وخروجه من ميدان

المعركة. لقد كان عمله هذا بهجومه مع ٦٠ خيالاً عمل قائد سرية شجاع، أما القائد الشجاع فهو الذي يقوم بإدارة المعركة في المكان المناسب بشجاعة وصبر ورباطة جأش وهدوء أعصاب لأن الفراغ المادي والمعنوي (على الخصوص) الذي يتركه خروج القائد من المعركة لا يعوضه وكيل يقوم مقامه.

- إنني لا أعرف تماماً الواجبات التي أنيطت بالعشائر إنما كان قسم منهم ملحقاً بالفرقة الأولى دون أن تأتي بعمل ما. وعلى العموم، إن العشائر التي كان موجودها نحو ٣٠٠٠ لم تقم بأي عمل، حتى أنها لم تمنع أو تعرقل تقدم القوة الامدادية التركية المتقدمة من الشمال مما يدل على أنه لم يعط لها الواجب الذي تتمكن من القيام به، وذلك بالرغم من أنه كان معروفاً ومعلوماً لدى الجميع أن البدوي لا يهاجم عدواً متمركزاً في خندق. فلو أنه أعطي لهم واجب منع وصول الإمدادات إلى معان وقسمت بينهم المنطقة على طرفي الخط من جرف الدراويش حتى معان لما تمكنت إمداداته من الوصول ولما سبب تجمعهم دون عمل في أطراف ميدان المعركة خوف أهالي معان من أن ينهبوا مدينتهم الأمر الذي جعلهم يتعاونون مع الأتراك. ومع ذلك تحقق فيما بعد أن الأتراك في آخر يوم قرروا الاستسلام ونظموا بذلك مضبطة وهيأوا كل شيء، ولم يبق لرفع علم التسليم سوى دقائق جاء خلالها أهالي معان ومنعوهم من التسليم على أن يشتركوا معهم في المقاومة وفعلاً اشتركوا معهم بـ ٩٠٠ مقاتل وهكذا عدل الأتراك عن التسليم. وأعتقد أن ذلك وقع بسبب مشاهدة الأهالي لألف بدوي يحومون بأطراف المعركة ينتظرون فرصة الهجوم ولربما كان معهم ملء الحق، ولقد كان من الممكن تلافي هذا المحظور بإبعاد البدو الذين لم يكن لهم أي عمل يقومون به. كما كان في الإمكان الاتصال بأهالي معان وتطمينهم وذلك خلال اليوم الأول

من المعركة. ولو حصل ذلك لسقطت معان حتماً.

ـ كان يجب عدم الاعتماد على مدافع البعثة الفرنسية وان لا يحسب لها حساب رئيس في العمل خلال المعركة لأنه كان معلوماً ومعروفاً لدى الجميع أن الفرنسيين ما كانوا يريدون أن يتقدم الجيش إلى الشمال بل يريدون أن يتلهى في المحطات الجنوبية كي لا يكون له المساهمة في الاستيلاء على الأراضي السورية وكي لا تكون لدى العرب حجة لطلب الاستقلال. وكان الإنكليز يشاركونهم هذا الرأي مسايرة لهم، ولكن تذمر بعض الضباط وتمردهم أجبرهم على الموافقة بمهاجمة معان وثم الاتجاه نحو الشمال ولكن ذلك ما كان يرضي الفرنسيين فهم لا يريدون سقوط معان ولذلك أبوا القيام بإسناد الفرقة الثانية بمدافعهم بحجة نفاد الطلقات بينما لم يرموا أكثر من عشرين إطلاقة وانسحبوا أثناء احتدام المعركة.

ـ مما لا شك فيه أن القادة والضباط وسائر الجنود أبدوا من الشجاعة والمقدرة والاحتمال وقوة البأس والصبر الشيء الكثير وأن معركة معان لم تكن في حقيقتها معركة قيادة وفن عسكري بقدر ما هي معركة شجاعة وتضحية عقائدية كما برهنت على المستوى العالي الذي كان يتمتع به جيش الثورة والكفاءة التي لاحظها الأجانب على مختلف نزعاتهم عقب هذه المعركة. حتى البدو أنفسهم تبدلت نظرتهم إلى الجيش بعد أن شاهدوا القطعات وهي تقتحم الموت بمهاجمة خنادق العدو المحكمة.

وضع جيش الشمال بعد معركة معان

إن الجيش العربي وإن لم يوفق بالاستيلاء على معان إنما كان لهذه المعركة نتائج عسكرية ومعنوية كبيرة جداً. فمن الوجهة العسكرية انتجت التخريبات التي جرت في محطة المدورة وإلى جنوبها وامتداد هذا التخريب إلى مسافات بعيدة نحو الجنوب

أنتج قطع الاتصال نهائياً بين المدينة ومركز الجيش الرابع، وأصبحت المدينة منذ ذلك الحين في وضع حصار كامل حتى نهاية الحرب وبعدها حتى استسلامها. وأنتج أيضاً بقاء الجيش في مواضع السمنات التي استولى عليها نهائياً بحيث أصبحت معان والمواضع التي في أطرافها تحت القصف الدائم وكأنها في حرب مواضع. وانتجت أيضاً بأن الجيش الشمالي لم يعد يهتم بتخريب الخطوط الحديدية لعزل المدينة وأصبح متفرغاً للتوغل نحو الشمال فقط، بحيث أصبحت لديه إمكانات أكثر فخصصها لهذا الزحف دون أن يكون مضطراً للتعثر في جبهتين؛ وأما من الوجهة المعنوية فإن حرب معان بالرغم من أنها لم تنجح في الاستيلاء عليها ولكنها رفعت من معنويات الجيش وزادت في قيمته بنظر الإنكليز والبدو وثقته بنفسه. فبعد فاصلة قصيرة من معركة معان وإعادة التنظيم بوشر بتشكيل وإيفاد مفارز متعددة عسكرية وبدوية نحو الشمال فتشكلت مفرزة بقيادة الشريف ناصر تتألف من سريتي عقيلات وبدو من الحويطات والدراويشة والمناعين والنعيمات. وتوجهت هذه المفرزة إلى الشمال. وتشكلت مفرزة أخرى بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي. ومفرزة عسكرية بقيادة راسم سردست تمركزت في وادي الحسا شمال الطفيلة والتي سنتكلم عنها فيما بعد.

■ حركات الإنكليز في شرقي الأردن

وفي ٢١ شباط ١٩١٨ استولى الجيش الإنكليزي على بلدة أريحا وطرد الأتراك إلى شرقي نهر الأردن عدا رأس الجسر الذي احتفظوا به في موقع الغورانية.

وبقيت الحالة على هذه الصورة، فالجيش البريطاني في غرب النهر والجيش التركي في شرقه حتى يوم ٩ آذار حيث شن الإنكليز هجوماً على رأس الجسر المذكور واحتلوا بعض المواقع

المهمة وفي ٢١ آذار بدأوا بهجومهم فاستولوا على شونة نمرين وتقدموا باتجاه السلط واحتلوها في يوم ٢٥ آذار وتوجهوا نحو عمان.

وصلوا عمان ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالرغم من المعركة التي استمرت أربعة أيام وذلك بسبب التقويات التي جلبها الأتراك مستفيدين من تأخر زحف الإنكليز بسبب تأخر نقلياتهم جراء الأمطار الغزيرة. وهكذا تراجع الإنكليز بتاريخ ٣١ آذار دون أن يحققوا الغاية التي كانوا يتوخونها وهي تدمير نفق السكة الحديدية الواقع قرب عمان.

وفي ٢٩ نيسان قام الجيش البريطاني بحملة ثانية على السلط وعمان فاستولى على شونة نمرين الواقعة في الضفة الشرقية للأردن بينما توجهت قوة أخرى نحو السلط فاحتلتها في ٣٠ نيسان. ولكن بنتيجة هجمات الأتراك المعاكسة اضطر الإنكليز إلى التراجع لضفة الأردن الغربية.

٩

معركة أبا الجرذون الثانية

عقب معركة معان وفي ١١ مايس ١٩١٨ تقرر القيام بمهاجمة محطة الجرذونة للمرة الثانية. وتقرر تشكيل القوة التي ستقوم بهذا الهجوم من الفرقة الأولى، لواء الهاشمي ومدفعية وثلاث طائرات بريطانية ومفرزتي تخريب. كما تقرر بقاء الفرقة الثانية في السمنات لمراقبة العدو وترصده. وعهد بقيادة هذه القوة إلى رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد.

تحركت هذه القوة من الوهيدة في صباح يوم ١٠ مايس ١٩١٨ ووصلنا عصراً إلى غربي الهضاب التي غرب محطة الجرذونة. وبينما كانت القطعات تشغل أمكنتها في المعسكر اصطحب قائد القوة نوري السعيد كلاً من أمراء الألوية والأفواج وآمر المدفعية وآمر الرشاشات (كاتب هذه الأحرف) وآمر مفارز التخريب وذهبنا إلى الهضاب المشرفة على المحطة من الجهة الغربية. وهناك أبلغنا القائد خطة الهجوم وتقضي أن يقوم اللواء الأول بمهاجمة المحطة من الشرق بعد أن يجتاز السكة الحديدية من جنوب المحطة. وتقوم سرية الخيالة للواء الهاشمي بالتقدم على خطة السكة الحديدية من جنوب المحطة وتترجل في الأراضي المستورة التي جنوب الجسر وتراقب الجبهة

كما تراقب الجهة الجنوبية كي تقاوم كل تقدم يجري من جبهات معان. تقوم سرية رشاش اللواء الهاشمي باجتياز السكة برفقة سرية الخيالة ثم تفترق عنها وتأخذ لها مواضع مناسبة في شمال الجسر الكائن جنوب المحطة، لإسناد الهجوم لكلا اللوائين، وإذا وقع أي تعرض من جهة الجنوب وقامت سرية الخيالة بمقاومته فإن سرية الرشاش عندئذ تسند بنيرانها تلك السرية. يقوم اللواء الثاني بالهجوم من غرب المحطة وتقوم مفارز التخريب بتخريب الخط من الشمال والجنوب قبل بدء الهجوم بساعة. تسند المدفعية وثلاث طائرات هجوم اللوائين. وزعت هذه الأوامر وبلغت على الأراضي التي سيجري عليها الهجوم كما وزع مع الأمر جدول توقيت لساعة حركة كل قطعة من نقطة الشروع. إن القوة المخمنة للعدو هي سريتا مشاة و٤ رشاشات ومدفعان.

وقبل بزوغ الفجر تحركت كل قطعة في الوقت المعين نحو المكان المخصص لها. وفي الصباح الباكر بدأت الطائرات بالقصف كما فتحت المدفعية نيرانها على مواضع العدو وكنا نحن في مواضعنا ففتحنا نيران الرشاشات وكانت المسافة بيننا وبين المحطة لا تتجاوز الثلاثمائة متر لأن الأرض كانت مساعدة لنا وتسترنا عن نظر العدو، وشرع اللواءان بالتقدم من الشرق والغرب وأصبح العدو. بين نارهما بحالة حرجة وانشغل الأتراك عنا برمي مشاتنا الأمر الذي شجعنا على التقدم لمواضع أقرب وكانت مواضع الأتراك تحت تأثير نيراننا الجانبية ومن مسافة قصيرة بحيث لا يمكن أن نخطىء الإصابة الأمر الذي جعل أي واحد منهم لا يتمكن من رفع رأسه من الخندق، وكانت مشاتنا على مسافة خمسمائة متر من المحطة عندما رفع العلم الأبيض وقد كنت على مسافة خمسين متراً فقط من المحطة ومعي نحو عشرين جندياً من حاملي

البنادق فتقدمنا إلى المحطة والأتراك رافعون أيديهم ملقون سلاحهم. وكان أول من وصل بعدنا نوري السعيد ومرافقه مع عدد من المراسلين. قلت له: يا بيك نحن قبلك قال: نعم وضحك. لقد كان في الثورة تقليد متعارف عليه وهو الاهتمام بمعرفة من يصل قبل غيره إلى المواضع المستولى عليها وفي العادة يرفع ذلك الضابط إلى رتبة أعلى.

وصلت الألوية إلى المحطة وجمعت الأسرى فكانوا نحو ٢٥٠ وخربت المحطة والجسرين اللذين في شمال وجنوب المحطة، واشتركنا بتخريب الجسر الجنوبي الذي كان بقرب مواضعنا مع مفرزة التخريب التي كانت بإمرة فؤاد سليم وسعيد عمون وحوالى الظهيرة عدنا إلى المعسكر الذي كنا فيه وفي اليوم الثاني عدنا إلى المعسكر في الوهيدة، إنني لا أذكر مقدار الخسائر التي أعطتها جميع القوة في هذه العملية إنما سريتنا لم يقع فيها أي إصابة.

الاستيلاء على جسر أبا الجرذون

في أحد الأيام التي كنا فيها بالوهيدة جاء مراسل من المقر بكتاب يعرضه على أمراء الوحدات وفيه طلب تطوع ضابط يرسل بمهمة خطيرة. وكان معسكرنا قريباً من معسكر المقر فذهبت إليه وكان في خيمة نوري السعيد بعض ضباط المقر. قال رئيس أركان الجيش: أمتطوع. قلت: نعم إذا كانت المهمة تروق لي. قال: تروق. الجسر الذي في شمال الجرذونة قد أصلحه الأتراك وعاد القطار لسيره فنحن لا نريد إجراء معركة لتخريبه بل نريد أن يذهب ضابط مع عدد من الجنود ومفرزة تخريب فيباغتون حامية الجسر ويستولون عليه ويخربونه ويعودون في الليلة نفسها وسنرفقه بالمقدار الكافي من المتطوعين، من القطعات. قلت: قبلت المهمة دون متطوعين عندي

جنود أهل للقيام بها أطلب فقط ٤٠ قنبلة يدوية وعشرة خراف لوليمة لسريتي بعد عودتنا. قال: ويرافقك الرئيس (ص) قلت لماذا إذا كان هو آمر المفرزة فلا لزوم لي وإذا كنت أنا آمرها فلا لزوم له. قال: سيكون متفرجاً. قلت: إذا مراقب بمعنى عدم الثقة وبهذه الحالة اسحب تطوعي وكان الرئيس (ص) جالساً. قال: ألا تقبل مرافقتي وأنا سوف أكون معك للدعاء فقط فضحكنا. قال نوري السعيد: إذاً اذهب من دونه وسألني متى الحركة، قلت: صباح الغد إذا اعطيتمونا القنابل وقبل منتصف الليل نستولي عليه. ولما خرجت لحق بي الرئيس (ص) وكان يشغل إحدى دوائر المقر، كان شاباً خفيف الظل وصاحب نكتة لا يصلح للقتال وكان أبوه من ذوي الرتب العالية في الجيش التركي يحترمه كل من جعفر ونوري. لحق بي لخارج الخيمة وقال لي: لا تكن مناعاً للخير. قلت: أي خير بذهابك معي وأنت تكاد تخاف الأرنب قال: أنا «مغدور» كما تعلم وقد وافقوا على ترفيعي بشرط أن أفعل شيئاً في معركة وسيكون ذهابي معك صورياً وأنت ابن حلال فلا تضيعها علي. عندها عدت إلى رئيس الأركان وأبلغته موافقتي فضحك وقال: أقنعك. قلت: نعم. وفي الصباح الباكر تحركت مع عشرين جندياً راكباً وبغلين يحملان أربعة «فناطيس» ماء وبرفقتنا مفرزة التخريب المشكلة من فؤاد سليم وسعيد عمون ومن معهم من المساعدين.

وفي الضحى وصلنا الهضاب المشرفة على الجسر من جهته الغربية. وبعد أن وضعت الحيوانات في محل مستور خلف الهضبة بدأت الترصد بواسطة المنظار وكانت المسافة إلى الجسر نحو ستمائة متر وكان بين الجسر والهضاب مجرى سيل ناشف يتراوح عرضه بين الخمسة أمتار والعشرة فيشكل طريق تقرب مستور وجيد. استمريت بتدقيق وترصد كل حركة من حركات الحامية طيلة النهار دون أن أدع أحداً يقترب مني

حيث بقي الجميع عند الخيل بحالة راحة وذلك زيادة في الاحتراز من أن يشعر بنا العدو.

كانت الرؤيا جيدة بالنظر للجو وقرب المسافة وكنت أرى كل شيء واضحاً حتى انني كنت أسمع الأصوات المرتفعة وكانت خيمهم السفرية الصغيرة منصوبة تحت الجسر وكان لهم أربعة خفراء منفردين اثنان على شمال وجنوب السكة واثنان على حافتي السيل أحدهم في شرق السكة والثاني في غربها ومسافة الخفراء عن الجسر نحو مائتي متر. وفي حوالى الظهر جاءتهم من محطة الجرذونة «ترولي» يظهر أنها أتت لهم بطعام وماء. وقبل المغرب بنحو ساعة جرى تبديل الخفراء واختصرت مسافة الخفراء عن الجسر إلى نحو المائة متر فعلمت من ذلك ترتيباتهم الليلية وقررت الخطة. سنترك مع الحيوانات خمسة جنود ومعهم الرئيس (ص) سيرافقني خمسة عشر جندياً مع مفرزة التخريب (فؤاد سليم وسعيد عمون وثلاثة آخرون) إن المسافة التي سنجتازها إلى الجسر هي في الأصل نحو ستمائة متر ولكنها على الأرض وفي داخل السيل المتعرج تصبح بنحو ثمانمائة متر.

وكانت الخطة التي قررتها هي أن نشرع بالحركة بعد ساعتين من الغروب فننحدر أولاً إلى ملتقى السيل بالهضبة ترافقنا مفرزة التخريب ثم نتقدم بداخل السيل برتل منفرد الواحد خلف الآخر بمسافة خمسة أمتار وتسير خلفنا مفرزة التخريب وعندما نصل إلى نقطة تبعد نحو مائتي متر عن المخفر الذي على الحافة الجنوبية من مجرى السيل نترك مفرزة التخريب ونبدل استقامتنا نحو الشمال الشرقي، وعندما نصبح في منتصف الزاوية المنفرجة التي بين الخفيرين الشمالي والغربي حيث يبتعدان عن بعضهما بمسافة مائتي متر تقريباً نتجه شرقاً باتجاه الجسر، وعندما نصل إلى السكة تكون بيد كل منا

قنبلة يدوية جاهزة للقذف فيقذف ثمانيـة منا قنابلهم إلى تحت الجسر بينما الثمانية الآخرون يجتازون السكة لجهتهـا الشرقية بسرعة ويلقون بقنابلهم الثمانية الأخرى إلى تحت الجسر أيضاً وكل من يرمي قنبلة يتهيأ ببندقيته لمقابلة الاحتمـالات المنتظرة. لقد عينت جميع النقاط التي ذكرتها بدقـة وكان مجـرى السيل يساعد على التقدم الصحيح والتخفي وكانت رؤية الجسر وعدم غيابه عن بصرنا أكبر مساعد في الوصول إليه على الطريق الذي رسمناه.

أصر الصـديقان فؤاد سليم وسعيـد عمون على مرافقتنـا وعدم بقائهما في الخلف مع مفرزة التخريب، فأعطينا كلاً منهما قنبلة يدوية وتقدما برفقتنا وقبل الغروب جمعت جميـع من سيرافقنـا وأفهمتهم الخطة من أعلى الهضبة وأريتهم جميع الأماكن التي سنسير عليها وعملنا تجربـة لطريقـة المسير المنفـرد في السيل. وتحركنا في الوقت الذي قـررناه وسـارت الأمور عـلى أحسن ما يرام فوصلنـا الجسر وألقينا القنـابل وكـانت المباغتـة ناجحـة وكاملة وسمعنا صرخات الأتـراك ينادون تسليم تسليم فنـاديت على جنودي قفوا مكانكم وناديت الأتراك بالتركية أنه لا خـوف عـلى حياتهم إن تقـدموا لعنـدنـا بعـد أن يتـركـوا سـلاحهم. واستسلمـوا جميعهم حتى الخفـراء الـذين لم يصبهم الأذى، الخفـير الذي في الجنـوب يظهـر أنـه انهـزم نحـو محطـة أبـا الجرذان. لقد كان مجموعهم ضابطاً وعشرين جندياً قتـل منهم الضـابط وثمانيـة جنود وهـرب واحد وستـة مجاريـح وخمسة أسرى. وبينمـا كنا نجمـع أسلحتهم وعتادهم أعطيت الإشـارة لمفـرزة التخريب بـالتقدم فـوضعنا خفـراء حمايـة على شمـال وجنـوب السكة وبـاشرت المفرزة بعملهـا ونسف الجسر وجمعنا خفراءنا وعدنا من الطـريق الذي جئنـا منه. ووصلنـا الوهيـدة قرب الفجر. وانتشرت تفاصيل الحـادث في المعسكر ومـر النهار

كله بالزيارات والتهاني ووصلتنا الذبائح العشر وفي المساء وزع الأمر اليومي وفيه الثناء الكثير والشكر الجزيل. وأما الرئيس «ص» فكان له مع الشكر لمشاركته بهذا العمل الترفيع. إن هذا الرئيس أصبح فيما بعد زعيماً في الجيش العراقي ورئيساً لشعبة مهمة في مقر الجيش وبقي على صداقته لي حتى وفاته رحمه اللّه.

كنا ذكرنا سابقاً أن الأتراك مثلوا بالأسير الوحيد الذي أخذوه منا أثناء معركة غدير الحج واهتم الجيش بهذه المسألة وتبين من التحقيق مع الأسرى أن الذي مثل به رئيس عرفاء تركي عرف اسمه وصفاته. نشر ذلك على جميع وحدات الجيش عساه يكون بين من يقع بأيدينا من الأسرى. وفي إحدى غارات الطيارات التركية علينا شاهدت بقرب خيمتي أسيراً تركياً تنطبق عليه تلك الصفات فسألته عن اسمه فكان هو الاسم فأرسلته مع جندي إلى المقر وظهر أنه نفسه وبعد التحقيق اعترف وجرت له محاكمة سريعة وجرى إعدامه وأرسل بذلك كتاب إلى الأتراك.

١٠

معركة أبا الجرذان الثالثة

بعد أن احتل الجيش العربي محطة الجرذونة للمرة الثانية وانسحب منها بعد أن خرب منشآتها وجسريها، عاد الجيش التركي إليها إنما في هذه المرة زاد في عدد حاميتها. فأصبحت فوجاً من المشاة وسرية استحكام (هندسة) وسريتي رشاش (٨ رشاشات) وأربعة مدافع منها اثنان صحراويان طويلا المدى. وبطبيعة الحال، توسعت المواضع المحكمة ونظمت بالنسبة لعدد هذه القوة واعتني بهذه التحكيمات بدليل جلبهم لسرية من الاستحكام لهذه الغاية، ونظمت التحكيمات بطريقة تمكن المدافعين من الدفاع نحو الجبهات الأربع لأن جميع الجبهات لم تكن أمينة بالنسبة لهم. فالعرب كانوا مسيطرين على جميع الأراضي التي في أطراف المحطات ويقومون بالهجوم من أية جهة تناسبهم كما نظموا في داخل استحكاماتهم محلات الترصد المستورة ومركز القيادة وطرق المواصلات لجميع المواضع، كما نظموا عشوشاً مستورة للرشاشات ولمواضع المدافع. وقد أصبح بذلك موضع الجرذونة موضعاً دفاعياً متيناً.

لقد قررت قيادة الجيش القيام بهجوم ثالث على الجرذونة ففي ١٦ مايس ١٩١٨ تحركت القوة التي ستهاجم الجرذونة

وعسكرت في موقع خلف التلال التي في غربي محطة الجرذونة. وكانت القوة تتشكل من لوائي الفرقة الأولى والثاني لواء الهاشمي ومدفعية ومفرزتي تخريب وثلاث طائرات بريطانية لإسناد الهجوم، وعند وصولنا للمعسكر اصطحب قائد القوة نوري السعيد آمري المشاة والمدفعية والخيالة وسرية الرشاش ومفارز التخريب إلى الهضاب المشرفة على محطة الجرذونة وهناك أمام مواضعها أصدر الأمر ووزع الواجبات التي أودعت لكل وحدة كما فعل في المرة السابقة. وكانت الخطة كما يلي:

لواء مشاة سيهاجم المحطة من غربها وسيشرع بتقدمه من أمام الهضبة التي كنا عليها. اللواء الآخر سيهاجم المحطة من الشرق وسيجتاز الخط الحديدي من شمال المحطة ليلاً بحيث يصل إلى نقطة شروعه في شرقي المحطة قبل ابتداء الهجوم العام بوقت مناسب. سرية خيالة لواء الهاشمي تقوم بالهجوم الراجل من جنوب المحطة عبر الأراضي المستورة بمحاذاة الخط الحديدي. سرية رشاش لواء الهاشمي (سريتي) ترافق اللواء الذي سيهاجم من الشرق لإسناد هجومه. مفرزة تخريب فؤاد سليم وسعيد عمون تقوم بتخريب الجسر الجنوبي والسكة لمسافة كيلومتر إلى الجنوب ومفرزة تخريب لطفي العسلي تقوم بتخريب الجسر الشمالي ومقدار كيلومتر إلى الشمال على أن يبدأ التخريب قبل ابتداء الهجوم. المدفعية تشرع بالقصف في الساعة كذا. الشروع بالهجوم في الساعة كذا. سيكون مقر القوة خلال الحركات في تلك الهضبة وأشار إلى هضبة صغيرة في الجنوب الشرقي لنقطة شروع اللواء الغربي.

وعدنا إلى المعسكر وبدأنا بالتهيؤ والتحقت سريتي باللواء الشرقي وتحركنا في الوقت المناسب واجتزنا الخط الحديدي من شمال الجسر الذي في شمال المحطة، وبعد أن قطعنا مسافة نحو الشرق استدرنا إلى الجنوب وكنا نشاهد الأضواء في

المحطة فكانت تشكل لنا دليلاً حسناً جداً، مما جعلنا نجد مكاننا تماماً في شرقها، وكانت الأراضي التي نسير عليها مفتوحة وسهلة جداً بحيث لم يكن فيها ولا عارضة حتى ولا تموجاً بسيطاً سوى بعض نباتات الشيح والأثل الصغيرة.

وطلع الفجر وبدأ نور النهار وبدأت مدفعيتنا بالرمي لتخمين المسافة وإيجاد الهدف وبدأت مدفعية العدو بمقابلتها وبدأ المشاة بالتقدم ونحن خلفهم ودخلت قطعات المشاة ضمن المسافة المؤثرة فشرعت بالرمي والتقدم، وأدخلت الرشاشات في أول موضع رمي، وكان محمود الهندي مع رعيله الأول وكان الرعيل الثاني بإمرة الملازم رضا الشاشي. وكنت قريباً من محمود الهندي. كانت خطوط مشاتنا تتقدم بسرعة وكأنها في سباق مع اللواء الآخر وكنت اضطر لجاراتهم وتبديل مواضع الرشاشات بسرعة أيضاً. وكانت الطائرات الإنكليزية قد شرعت بالقصف وخلصت قنابلها وعادت وحمي وطيس المعركة ونشطت مدفعية العدو ووصلت مشاتنا إلى مسافة قريبة من المحطة حتى ان قسماً منها احتل مواضع العدو التي كانت في شرقها وأخذوا منهم بعض الأسرى. وكانت مواضع رشاشاتنا قد اقتربت إلى مسافة مائتي متر واللواء الغربي كان لا يزال بعيداً عن المحطة مما سبب انقسام زخم الهجوم إلى قسمين فضعف فتمكن العدو من الاستفادة من هذا الانقسام فوجه جميع قواه من بنادق ورشاشات ومدفعية للجهة الأخطر التي وصلت إلى المحطة. ولما رأى الأتراك الخطر المحدق بهم وعناد العرب التجأوا إلى الحيلة فنهض جنودهم من الخنادق ورفعوا أيديهم بالتسليم فنهضت مشاتنا وبدأت تتقدم لاستلامهم، كما أن رشاشاتنا توقفت عن الرمي فعندها تلقاهم الأتراك بالقنابل اليدوية والرصاص حيث قتلوا الكثير مما اضطر الباقي للرجوع إلى الخلف ثم الانسحاب.

بدأت مشاتنا تعود واجتازت مواضعنا وأصبح من واجبنا أن نحمي انسحابهم ولكن في مواضع غير مناسبة فهي قريبة جداً وفي أرض مفتوحة مكشوفة، فإن العدو إذا ما تفرغ لنا برشاشاته وبنادقه ومدفعيته فمن المستحيل أن يترك لنا أي مجال بل سيقضي علينا لا محالة، ولكننا كنا مضطرين لعدم قطع النار لحماية مشاتنا ولعدم إمكاننا من الإتيان بأية حركة تحت تلك النار الكثيفة. وكنا متفقين، محمود الهندي وأنا على أنه إذا وقع أحدنا جريحاً وتعذر سحبه إلى الخلف، فإن على الآخر أن يطلق عليه الرصاص فيقتله كي لا يقع أسيراً في يد الأتراك. إن مثل هذه الاتفاقات حصلت ما بين بعض الضباط بعد حادثة رئيس العرفاء الذي وقع في يد الأتراك في محطة المدورة وقطعوا رأسه ومثلوا فيه بالرصاص والحراب.

وفي هذه الأثناء اقترب اللواء الغربي من المحطة وخفت عنا النيران بعض الشيء فأمرت بتبديل الموضع نحو الخلف بمائة متر وانسحب الرعيل الثاني ودخل الموضع وفتح النار وباشر الرعيل الأول في الانسحاب وما كاد آمره محمود الهندي يبتعد عني عشرين خطوة حتى وقعت بجانبي قنبلة مدفع فأوقعتني أرضاً وغمرني التراب والدخان وما كاد الدخان ينقشع إلا ورأيت محمود الهندي حاملاً بيده مسدسه يصوبه نحوي يهم بإطلاقه علي ظناً منه أنني جرحت، فكان يريد بذلك أن يفي بوعده في أن لا يتركني جريحاً بيد الأتراك ففهمت قصده وناديت (لست مجروحاً انسحب) فعندها استمر بالانسحاب حتى دخل المواضع وأنا معهم. وكانت حصيلة تلك القنبلة جرح بسيط في مؤخرة فخذي الأيسر ولو تأخرت قليلاً في ندائي على محمود لكان قتلني. كانت مسافتنا من المحطة في مواضعنا الجديدة نحو ٤٠٠ متر وهي مسافة تعتبر قليلة ومهلكة في مثل هذه الأرض وإن كانت مهلكة أيضاً للعدو، وكان علينا أن نبقى

في هـذا الموضـع لأن اللواء الغـربي كان في وضـع خطر أمـام مواضع العدو وجميع قوته مسلطة عليه فكنا بنيراننـا نساعـده بجلب قسم من نـيران العدو إلينـا وبإربـاكهم وعدم إعطـائهم الفـرصة الكـاملة للتفـرغ له. ولم يبق بـالإمكان إعـادة هجوم اللـواء الشرقي لأنه قـدم الكثـير من الخسـائـر وأضـاع زخم نشاطه. وبدأ اللواء الغـربي بالانسحـاب أيضاً وفشلت حـركة الاستيـلاء على المحطـة. أما سريـة الخيالـة التي كانت بـإمرة الرئيس إسماعيل نامق، فإنها ترجلت خلف المنفرجـات التي في جنوب الجسر الجنوبي وتقدمت على شرق السكـة نحو الشمـال ولكن في هـذه الأثناء أصيب إسمـاعيل نـامق بطلقـة اختـرقت صدره فحملوه إلى الخلف وبقيت السرية بإمرة قائـدها المـلازم أشرف.

وهكذا عدنا وعسكرنا في موقع الفجيج على مسافـة ٤ أميال إلى الجنـوب من موقـع أزرح وكانت خسـائرنـا ستة ضبـاط و٢٣ جندياً شهـداء و١٠٠ جريـح والأتراك ٤٠ قتيـلاً و١٨ أسيراً. وأما خسائر سريتي فخمسة جرحى وشهيدان.

مفرزة سيل الحسا

عقب موقعة أبا الجرذان الثالثة تقـرر تشكيل مفـرزة لإرسالهـا إلى الشمال للقيام بمهاجمة المواقع التركية وإجراء التخريبـات في خطوط السكة الحديديـة، كما تقـرر أن يكون مـركزهـا سيل الحسا للتعاون مع قوة الشريف ناصر وتكون تابعة له. وقد كان الشريف نـاصر منذ مـا قبل مـوقعة الجـرذونـة الثـالثـة يقـوم بمهاجمة الأتراك في تلك النواحي. ففي ٨ مايس كان قد هـاجم محطـة القطرانـة وأسر منها بعض الجنـود دون أن يتمكن من الاستيـلاء عليها لأن قـواته الأصليـة كـانت من بـدو الحجـاز تعاونهم العشائـر المحلية وليس معهم قـوات نظاميـة من مشاة

ورشاش ومدفعية تمكنهم من الاستيلاء على مواضع عسكرية محكمة. ثم أعاد الهجوم عليها في اليوم التالي ولكن دون نتيجة. وأعاد الهجوم أيضاً في ١٢ مايس فلم يوفق لاحتلالها. وعلى ذلك عاد الشريف ناصر إلى الفجيج حيث تقرر أن يرفق بمفرزة نظامية وهكذا تشكلت هذه المفرزة بقيادة راسم سردست باسم مفرزة سيل الحسا من سرية مشاة، سرية رشاش لواء الهاشمي (سريتي)، مدفعين جبليين، مفرزة تخريب، وفصيل نقلية.

تحركت هذه المفرزة من الفجيج في حوالى ٢٠ مايس ١٩١٨ وعسكرت في مدخل وادي الحسا الشرقي. إن هذا الوادي يشق طريقه بين سلسلة من الجبال المرتفعة من الغرب إلى الشرق بحيث تصبح السلسلة الشمالية منها في أراضي الكرك والقريبة منها في أراضي الطفيلة. إنه يسمى سيل الحسا لأن جميع الأمطار التي تنحدر من تلك الجبال تنصب فيه فتشكل في داخله بركاً كثيرة وما فاض عنها ينحدر إلى الشرق كسيل ينتهي في البادية ومن الناحية الشمالية ينحدر إلى أن يصب في البحر الميت. وتشكل تجمعات الماء في داخل الوادي بحيرات مختلفة الحجم تتباعد عن بعضها حسب طبيعة الأرض، وأكثر هذه البحيرات تبقى مياهها طيلة أشهر السنة وتعيش فيها أسماك منها ما وزنه خمسة كغ. وبسبب عمق هذا الوادي، فإن حافته في الأغلب عمودية وصعبة السلوك عظيمة الانحدار خصوصاً في الجهة الشمالية، والأماكن التي يسهل سلوكها قليلة ولا يعرفها إلا العشائر التي تأتيها لتقضي فيها موسم الشتاء، والممر الرئيسي المطروق هو الممر الذي يجتازه طريق الكرك ـ الطفيلة، وهو ليس طريقاً بالمعنى المفهوم بل عبارة عن أثر أقدام وحوافر دواب وفي الغالب لا يتسع لمسير أكثر من خيال واحد خصوصاً في المنحدر الشمالي، فإنه يمر من خلال صخور

أشبه بالسلالم. يستحيل على الفارس أن ينحدر منها أو يصعد إليها وهو راكب. وكنا نجتاز هذا المنحدر خلال مدة لا تقل عن ساعة. أما المنحدرات الجنوبية التي في قسم الطفيلة فإنها أسهل وإن كان صعودها يحتاج إلى مثل ذلك الوقت. وبالنسبة لكثرة ما فيه من مياه، فإنه دائم الخضرة وفيه الكثير من الأشجار.

والوادي هو بمثابة مشتى لعشائر الكرك والطفيلة وغيرهم من أعراب تلك الأطراف، وذلك بسبب طقسه الدافىء ووجود المياه والخضار فيقضون فيه بعض أشهر الشتاء القارسة وفي مطلع الربيع ينحدرون منه نحو الشرق إلى الحماد حيث الكلأ الكثير والماء المتجمع من الأمطار.

موقعتا محطتي الحسا والفريفرة

في ٢٢ مايس اصطحب قائد المفرزة راسم سردست آمري القطعات وذهبنا لإجراء الكشف على محطة الحسا التي تقع في شرق مخرج وادي الحسا الشرقي وعدنا في المساء.

وفي صباح يوم ٢٣ الباكر تحركنا من المعسكر بعد أن أبقينا فيه الخيم والأثقال وتحركنا نحو المحطة وكانت خطة الهجوم كما يلي: مفرزة التخريب بإمرة الضابط بيك تخرب الخط في جنوب المحطة وكان مع بيك مفرزة من الهجانة المصرية من ٢٠ ـ ٢٥ جندياً، ومفرزة التخريب الثانية تقوم بنسف السكة من شمال المحطة. سرية المشاة تقوم بالتقدم من غرب المحطة ومن خلال الأراضي المتموجة وتقوم بالاستيلاء على المحطة، أما المدفعية والرشاشات فتتقدم أثناء الهجوم وأما العشائر التي كانت مع الشريف ناصر فإنها تتقدم إلى المحطة، قسم من الجنوب والقسم الآخر من يمين المشاة. أدخلت الرشاشات في مواضع قريبة إلى المحطة وبمسافة لا تبعد عنها أكثر من

خمسمائة متر بسبب إمكانية التقدم المستور من جراء التلال وتموجات الأرض. فتحنا النار على العدو قبل حركة المشاة وبدأت المدفعية كذلك بفتح نارها وقد كانت المواضع التي أشغلتها على جناح المشاة الأيمن وعلى يسار عشائر البدو أي بين القوتين، وكان للأتراك في المحطة سرية مشاة ورشاشتان وكانوا يدافعون ضمن مواضع مهيأة كاملة معززة بأسلاك شائكة والغام أمام خط الأسلاك لقد سمعنا أصوات الانفجارات من الشمال والجنوب الدالة على نسف الخط من كلا الجانبين.

تقدم سرية المشاة كان بطيئاً أما البدو فلم يتقدموا من محلاتهم رافعين أصواتهم بالحداء وبدأ قسم منهم يتجمع قرب الرشاشات والمدافع، ومن طبيعة البدوي الخوف من المدفع والرشاش وقليلون جداً الذين يفكرون بالتقدم نحو موضع فيه رشاش أو مدفع، وإذا نظرنا لهذا الأمر نظرة معقولة بالنسبة لوضع البدوي وتسلحه وطريقته في القتال نجد أنه محق كل الحق لأن الهجوم على مثل هذه المواقع المعززة بالرشاش تحتاج إلى التقدم بتستر والاستفادة من طيات الأرض وعوارضها ومعرفة خواص الأسلحة والسير بموجبها وتحتاج إلى إسناد يسهل أمامه التقدم بعرقلة رمي العدو. إن كل ذلك يحتاج إلى معرفة وتمارين وممارسة طويلة مستمرة ليست سهلة. فليس من الانصاف أن نتطلب من البدوي أو غير البدوي غير المتدرب أن يهاجم موضعاً محكماً فيه رشاش ومدفع. فالرجل الذي لا يعرف خواص قنبلة المدفع يظن بأن كل قنبلة تنفلق بقربه كأنها انفلقت بحضنه وأنها قاتلته لا محالة وأكثر من ذلك بالنسبة لقنبلة الطائرة ولذلك فإنه يلذ للبدوي أن يجلس أثناء المعركة بقرب المدفع أو الرشاش ليشاهدها وهي ترمي العدو. والبدوي لا يعرف طريقة التخفي وإذا عرف فإن ملابسه

البيضاء تظهره بسهولة فيشكل هدفاً يجلب أنظار العدو فيكتشفه فيوجه نيرانه إليه. فتجمعات البدو بأطرافنا كانت تشكل لنا انزعاجاً والبدوي عادة لا يتحمل الإهانة أو الطرد. اصطحبت جنودي من حملة البنادق وبدأت أتقدم نحو المحطة وتبعنا قسم من البدو، ولما وصلنا إلى خط تقدم المشاة زاد حماسهم وأسرعوا بتقدمهم وكان تقدمنا سهلاً ومستوراً نستفيد من طيات الأرض والمنعرجات وقد أصبحنا على مسافة قريبة من المحطة ورشاشاتنا بدلت مواضعها إلى مسافة أقرب بحيث كان تأثيرها على العدو عظيماً وبدأنا نستعد للقيام بالهجوم.

وبهذه المناسبة أقول إننا (الجيش العربي) كنا عند الهجوم نستعمل شعار (اللّه اللّه اللّه) وهو الشعار الذي كان الأتراك يستعملونه عند الهجوم. وكان هذا الأمر من الأمور المؤسفة حقاً: إسلام يقاتلون بعضهم بعضاً تحت شعار اللّه يستمد كل منهم القوة والعون لقتل أخيه المسلم.

لقد قمنا بالهجوم وقام الأتراك من خنادقهم رافعين أيديهم إلى فوق بالتسليم، وقبل أن نصل إليهم كان البدو الذين لا يزالون خلفنا قد انقضوا عليهم وسلبوا جميع ما معهم من سلاح وسواه. وجاءت مفرزتا التخريب ولغمتا منشآت المحطة واحتفظ الإنكليزي ييك بجرس المحطة وقد كان مجموع من أخذناه من أسرى الأتراك ٦٥ منهم ثلاثة ضباط ورشاشتين.

وبعد الانتهاء من التخريب تقدمنا نحو محطة الفريفرة وعندما وصلنا إليها كان الوقت قد مضى ولم يبق متسع للقيام بمهاجمتها فتركناها وعدنا إلى معسكرنا.

١١

موقعة محطة الفريفرة

وبعد يومين من استيلائنا على محطة الحسا أي في ٢٤ مايو تحركت المفرزة من معسكرها في وادي الحسا نحو محطة الحسا التي كانت لا تزال خالية من العدو ومنها اتجهنا نحو محطة الفريفرة، وكانت قوة الأتراك سرية هجانة ورشاشات وهم يدافعون داخل خنادق جيدة أمامها أسلاك شائكة وألغام.

كانت الخطة في هذه المرة أن تتقدم المشاة إلى غرب المحطة ومعها عشيرة الحجايا وتشغل المدفعية مواضعها خلف المشاة، وأن تجتاز سريتي السكة الحديدية نحو شرق المحطة وتأخذ مواضع على التلال التي في شرق المحطة حيث تساند بنيرانها، وعودة أبو تايه مع خيالته التي ستهاجم المحطة من الشرق والمشاة والحجايا المتقدمون من غربها مع شيخهم جلال أبو جفين.

وهكذا تقدمنا وأخذنا مواضعنا في الهضاب المذكورة وكانت قريبة إلى المحطة بحيث لا تبعد عنها أكثر من أربعمائة متر. فتحنا النار على مواضع العدو، ومحاربو قبائل التوايهة لا يزالون خلف الهضاب التي نحن فيها وهي لا تعلو بأكثر من عشرة أمتار. منهم الهجان ومنهم الخيال وخلف هضبة صغيرة

كانت على يسارنا شاهدت نحو خمسين خيالاً يتأهبون للهجوم راكبين، وكان عليهم أن يجتازوا مسافة ثلاثمائة متر بأرض سهلة وتحت نار رشاشتي العدو وسريتي بنادق وكان مثل هذه الهجوم للخيالة محفوفاً بالخطر. ذهبت إلى هؤلاء فشاهدت عودة أبو تايه وعرفته لأنني قبل ذلك شاهدته في خيمة الشريف ناصر. وكان بجانب عوده غلام لا يتجاوز العاشرة من عمره علمت أنه ابنه محمد. سألت عوده ماذا تريدون أن تفعلوا. قال: إنه سيهاجم الخنادق وهذه أول مرة أرى فيها جرأة بدوي من هذا النوع. قلت له: ولكن ستكونون عرضة لخطر كبير وخسائر فإذا شئت فاسمحلي بقليل من الوقت لأوفق بين رمي الرشاشات وهجومكم. فأنا سأعود لمحلي وأفتح النار على هذه الخنادق التي ستهاجمونها بحيث اضطرهم لعدم رفع رؤوسهم والرمي عليكم وعند ذلك أعطيكم إشارة الهجوم بواسطة تلويح كفية فعندها تقومون بالهجوم دون أن تكونوا معرضين لنيرانهم. فانسر عوده لذلك غاية السرور لأنه كان يقدر الخطر الذي كان مقبلاً عليه ولكنه كان مضطراً للهجوم بعد أن وعد الشريف ناصر بذلك. عدت إلى الرشاشات وأجلست خلف كل رشاشة أحسن رام فيها وكانت المسافة قريبة كما قلت لا تحتاج لتخمين مسافة وقد كنت أنا رامي رشاش أضع الحزم أينما أريد بأية مسافة وذلك لكثرة الممارسة والتمارين والمعارك وقسمت تلك الخنادق وأعطيت الإشارة إلى عوده وانطلق مع خيالته يصيحون: عليهم عليهم عليهم. ولما وصلوا إلى مسافة قريبة أسكت الرشاشات وخلال لحظات كانوا فوق الخنادق والأتراك منبطحين في أسفلها وهكذا أعقب ذلك تقدم المشاة من الغرب وبعض البدو من الجهات الأخرى واستسلمت حامية المحطة.

وبقينا نحن في موضعنا. وبعد دقائق عاد عوده أبو تايه ومعه ولده محمد وبعض الخيل مقبلين علينا يهدبون ووصل عودة

وبيده كمر وهو حزام من النوع الذي يضعون به دراهم وألقاه نحوي وهو يقول (هذا حديتكم) والحدية ما يوزعه العائدون من الغزو الموفق مما غنموه أثناء غزواتهم.

ثم قال هذا أخذته من ضابطهم قلت له: شكراً فهو حق للجنود كلهم وأعطيته لرئيس العرفاء حيث وزعه على الجنود بنسب معروفة وكان فيه نحو ثمانين ليرة ذهباً. وهذه الواقعة كانت أول صداقتي مع عوده أبو تايه التي استمرت حتى وفاته رحمه اللّه.

كما أنها قوت صداقتي مع الشريف ناصر رحمه اللّه.

خسائر الأتراك خمسة ضباط و١٢٥ جندياً أسرى. أما القتلى والجرحى فلا أذكر عددهم. وفي العادة أن نترك المجاريح في مكانهم بعد أن نسعفهم ونترك لهم ما يلزم من طعام وماء كي لا ننشغل بهم ونحن بعيدون عن قاعدتنا.

بعض أعمال مفرزة سيل الحسا

كان معسكر المفرزة في داخل الحسا قرب الطريق المؤدي إلى الكرك والطفيلة وهو ضمن ساحة ضيقة جداً وقد اختار قائد المفرزة هذا المحل لقربه من بركة ماء واسعة وعين ماء صالحة للشرب. وفي أحد الأيام وبينما كنا متهيئين وقد باشرنا بالحركة من معسكرنا متجهين باستقامة مخرج الوادي الشرقي نحو محطة الحسا لضربها، وإذ بعدة طائرات ألمانية تفاجئنا بقنابلها فأسرعت وأمرت الرشاشات بأخذ المواضع والرمي عليها وبركت خلف أحدها ووقع الارتباك في المدفعية لضيق المساحة ووقوع قنبلة قريبة مما أخاف البغال وشردها ببعض ما عليها من أحمال ووقعت قنبلة في وسط الساحة التي فيها الرشاشات وبدأنا نسمع العويل والأنين ووقعت قنبلة أخرى أقرب منها

فخرقت مخزن الرشاشة التي بين يدي وقتلت جندياً وجرحت اثنين ممن كان بقربي من جنودها. ذهبت الطائرات وقمنا لمعالجة أمر القتلى والمجاريح فكان من سريتي شهيدان و٤ مجاريح أحدهم النائب الضابط أحمد الذي تحدثت عنه أول استلامي للسرية وما عتم أن توفي بعد بضع ساعات وكان هناك عدد من القتلى من المدفعية وجنود النقلية والحيوانات. وقد عدلنا عن المسير إلى محطة الحسا واشتغلنا بدفن الشهداء ومعالجة الجرحى ثم في تبديل المعسكر إلى محل أصلح.

عقب موقعة الفريفرة جرت حادثة بين قائد المفرزة راسم سردست والضابط البريطاني بيك وأذكر هذه الحادثة لما فيها من مغزى إذا أضيفت إلى الحوادث الأخرى المماثلة وهي تعطي القارىء فكرة صحيحة عن حقيقة وضع الإنكليز في الجيش العربي الشمالي وتثبت عدم صحة الادعاء الذي انتشر أنه كان للانكليز نفوذ وسيطرة. بل ذهب البعض ممن ضخموا الدعايات الكاذبة والتلفيقات التي نشرها لورنس أن الجيش كان بقيادة الإنكليز وتحت تصرفهم وهو كذب واختلاق. والحادثة أن قائد المفرزة راسم سردست علم أنه يوجد في مدخل الوادي الشرقي خيم لجنود هجانة مصريين ومعهم ضابط إنكليزي فغضب راسم وقال كيف يأتي الإنكليزي ويعسكر قرب المعسكر ولا يستأذن منا ثم طلب ضابطاً وأمره أن يذهب إلى ذلك الإنكليزي وبرفقته حضيرة ويأمره أن يأتي لعنده وإذا أبى الحضور فاجلبوه قسراً. فذهب الضابط وامتنع بيك أولاً عن المجيء ولما علم بأنه سيجلب بالقوة أذعن وحضر واستقبله راسم بالغضب وقال له ألست عسكرياً وتفهم الأصول، أنا هنا قائد هذا الموقع فعليك قبل أن تأتي بأي عمل أن تقدم نفسك لي وتبقى تابعاً لتعليماتي مهما كان شكل مهمتك التي جئت من أجلها فإذا كان هذا لا يسرّك فعد من حيث

أتيت. وعاد يبك لخيمته وبقي يتلقى الأوامر من قائد المفرزة.

لقد أصبح الخط الحديدي في هذه الآونة التي نتحدث عنها مقطوعاً في أكثر النواحي وأصبحت أرزاق بعض الحاميات التي على الخط تؤمن بواسطة قوافل محمية بمفارز مسلحة قوية من سرية وأكثر مع مدافع ورشاشات.

وفي أحد الأيام علمنا أن هناك قافلة أرزاق كبيرة تتجه من محطة القطرانة نحو الجنوب فتهيأت المفرزة وتحركت من معسكرها وكذلك بدو الشريف ناصر وبعض البدو من الحجايا والمناعين وغيرهم، ولما وصلنا إلى قرب محطة سيل الحسا شاهدنا القافلة التركية تدخل إليها. فتمركزت المفرزة والبدو على الهضاب التي في غرب المحطة المذكورة منتظرة خروجها من المحطة ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت القافلة تحت ترتيبات أمن من مقدمة وميمنة وميسرة ومؤخرة، وكانت القوة التي تحافظ على هذه القافلة لا تقل عن فوج مشاة ومدفعين وسرية رشاش. وقبل البدء بحركتها فتحت علينا نار مدافعها ورشاشاتها. لم يمض كبير وقت على حركتهم من المحطة متجهين نحو محطة جرف الدراويش حتى أصبحوا بعيدين عن تأثير نار بنادق مشاتنا وكلما مرت دقائق في سيرهم زاد بعدهم وفي مثل هذه المواقف لا يبقى للمشاة أي عمل تقوم به لأن القيام بأعمال التعجيز والتعويق لمثل هذه القوة التي في حالة المسير يتطلب القيام بمزج الحركة مع النار على طول جناح ميسرة العدو وهذا يتطلب قابلية السرعة وهو غير متيسر في المشاة ويدخل هذا الواجب عادة ضمن واجبات الخيالة. وفي مفرزتنا النظامية لا يوجد قوة راكبة سوى سريتي، وهكذا بقيت مشاتنا في محلاتها وأما المدفعية فرمت بعض الطلقات ثم توقفت عن الرمي اقتصاداً في الطلقات التي لا يوجد لديها منها سوى عدد محدود لبعدنا عن القاعدة التي لا يأملون أن يصلنا

منها كل ما تحتاج إليه من عتاد. أما خيالة البدو من متطوعة الشريف ناصر والعشائر المحلية فإنهم يصلحون لمثل هذا العمل ولكنهم بحاجة إلى من يرشدهم إلى طريقة النار والحركة ضد الأجنحة للقوات المتحركة، وهذا ما قمت به فكنت أضع رشاشتين في الموضع تقوم برمي الجناح الأيمن لرتل العدو الذي في حالة المسير، بينما الرشاشتان الأخريان تتقدمان لإشغال موضع متقدم أقرب للعدو وعندما يأخذان الموضع ويفتحان نيرانهما يقوم الرعيل الأول بالحركة إلى موضع متقدم. وسرت خيالة البدو من هذه الحركة التي تظهر فيها السرعة مع التنظيم الموقوت مع سرعة ظهور النتائج المرجوة على العدو، وكان ممن اشتركوا معنا في هذه العملية جلال بن هويمل وجلال أبو جفن من مشايخ الحجايا، مع عدد من رجالهم الراكبين وقد أجبرنا القافلة التركية على الوقوف مرتين حيث جربت القيام بإجراء هجوم لطردنا ولكنهم كانوا يعودون فيتراجعون ثم يستأنفون المسير. وهكذا بقينا على هذه الحالة حتى وصول قافلتهم إلى محطة جرف الدراويش. وقد عدنا إلى معسكرنا ولم يقع في السرية أية خسائر سوى جريح واحد وعدد قليل من المجاريح من البدو. أثناء عودتنا إلى المعسكر مررنا بمعسكر الشريف ناصر فخرج من خيمته لاستقبالنا وأثنى علينا وعلمت أن مشايخ البدو الذين كانوا معنا اثنوا علينا عنده. وفي اليوم التالي دعانا مع آمر المفرزة على الغداء وأهداني حصاناً كان قد اشتراه بمائة وخمسين ليرة ذهبية كما أعطانا مبلغ مائة ليرة لتوزيعها على الجنود.

وفي ٢٢ حزيران صباحاً أخبرتنا «السيور» وهي ربايا الترصد التي تترصد العدو بقصد تأمين المعسكر وهي عادة تؤمن من قبل البدو بمعرفة الشريف الذي يشرف على المفرزة. أخبرت بأن هناك قوة من الأتراك تتقدم نحو وادي الحسا فتهيأنا لملاقاتهم

فأخذنا مواضع للرشاش والمشاة على المرتفعات التي أمام مدخل وادي الحسا ودخلت المدفعية في مواضع خلفية. أما خيالة البدو فتقدمت لإجراء المناوشة والتعويق لمقدمة العدو وعلى جنبيه وبدأت مناوشته اعتباراً من خروجه من محطة الحسا ويظهر أن قوته كانت تتشكل من مشاة وسرية رشاش ومدفعي صحراء ورعيل خيالة، وكانت حركته بطيئة منذ شروعه بالتقدم لأن الرمي كان يأتيه من ثلاث جهات وقبيل الظهر توقف عن التقدم. ثم بدأ بالتراجع وقد أخذنا منه خلال ذلك ١٥ أسيراً بينهم ضابط كما ترك خلفه عشرين قتيلاً نصفهم من الخيالة.

أخذت مفرزتنا أمراً بالحركة إلى التونية ولما وصلنا إليها وجدنا هناك اللواء الأول بقيادة تحسين علي مع مدفعية. وكانت هذه القوة جميعها بقيادة رئيس أركان الجيش نوري السعيد وكان القصد مهاجمة محطة جرف الدراويش، وبعد أن جرى استطلاع المحطة وإصدار أوامر الهجوم. وخلال الليل صدر الأمر بصرف النظر عن هذا الهجوم لأنهم تحققوا من وجود قوات كبيرة ومناعة المحطة فلم يروا لزوماً لتقديم تضحيات لا فائدة منها. وهكذا أمرت مفرزة سيل الحسا بالعودة إلى محلها عدا سريتي حيث أمرنا بالعودة إلى معسكر في موقع الطاحونة كما أمر اللواء الأول بالبقاء في التونية لمناجزة الأتراك وقطع الخطوط الحديدية كما أمرت القطعات الأخرى كالمدفعية وغيرها بالعودة إلى معسكراتها. وقد اجتمعت بالتونية بصديقي سعيد عمون وبإمرته مفرزة التخريب.

١٢

معركة أبا الجرذون الرابعة

خلال المدة التي كنت فيها في مفرزة سيل الحسا عين في آمرية لواء الهاشمي الرئيس الخيال بهجت الكروي وهو شاب عراقي ممن كانوا يحملون الفكرة العربية في الجيش التركي وقد التحق من الجيش التركي فاراً من معان. لقد تعرفت على المرحوم عقب عودتي من مفرزة سيل الحسا فبعد تعيينه في آمرية اللواء حضر إلى معسكرنا مسلماً ورجاني أن أنقل معسكر سريتي إلى جانب سرية الخيالة باعتباري تابعاً للواء الهاشمي ويقصد أن يثبت تبعية سريتي للواء فوافقت دون تردد ونقلت معسكري. وفهمت فيما بعد أن رئيس أركان الجيش نوري السعيد امتعض من ذلك ولكنه سكت. وبعد معركة الجرذونة أفهمني ذلك وأبلغني أنني لست مرتبطاً بآمرية لواء الهاشمي بل مباشرة بالقيادة العامة كما هو الواقع لأنهم يعتبرون سريتي سرية راكبة سيارة تلحق بكل مفرزة تتحرك في مهمات خاصة.

وفي ذلك المساء زارني الرئيس بهجت، بعد أن أثنى على ما سمعه عن سريتنا حدثني عن خلاف قام بينه وبين نوري السعيد حول أمور لم أعد أذكرها وأن نوري السعيد تفوه بكلمة جبان ألصقها به وكان يتكلم بتأثر شديد وتكاد تنفر الدموع من عينيه وصار يكرر عبارات بأنه سوف يثبت غداً من

هو الجبان وقد كان من المقرر القيام بهجوم على محطة أبا الجرذان في اليوم التالي.

وفي ٢٠ تموز ١٩١٨ تحركنا من معسكرنا بالطاحونة ونزلنا خلف التلال التي غرب أبا الجرذان وفي العصر اصطحب قائد هذه القوة نوري السعيد آمري الوحدات للاستطلاع من أعلى الهضاب المشرفة على المحطة وأصدر إلينا خطة الهجوم من تلك الهضبة.

كانت القوة تتشكل من الوحدات التالية:

١ ـ اللواء الأول من الفرقة الأولى بقيادة تحسين علي.
٢ ـ اللواء الرابع من الفرقة الثانية قائده المقدم رشيد علي.
٣ ـ اللواء الخامس من الفرقة الثانية قائده المقدم السيد طاهر.
٤ ـ لواء الهاشمي (سرية رشاش وسرية خيالة) قائده الرئيس الأول بهجت الكروي.
٥ ـ مفرزتا تخريب.
٦ ـ سيارة مصفحة بريطانية.
٧ ـ ثلاث طائرات بريطانية.
٨ ـ بطارية مدافع.

أما قوة الأتراك فكانت فوج مشاة بإمرة المقدم توفيق و٤ مدافع اثنان صحراويان واثنان جبليان و٨ رشاشات وسرية استحكام.

خطة الهجوم أن تنقسم قطعات الهجوم إلى ثلاث قوات الشرقية، الجنوبية، الغربية.

١ ـ القوة الشرقية تتشكل من اللواء الرابع للفرقة الثانية ولواء الهاشمي بقيادة المقدم رشيد علي وتقوم في هجومها من شرقي المحطة وتجتاز الخط الحديدي من جنوبها.

٢ ـ القوة الجنوبية تتشكل من اللواء الأول للفرقة الأولى بقيادة الرئيس الأول تحسين علي.

٣ ـ القوة الغربية تتشكل من اللواء الخامس للفرقة الثانية بقيادة المقدم السيد طاهر.

أ ـ تأخذ المدفعية مواضعها على الهضاب التي غرب المحطة.

ب ـ المصفحة ستسند الهجوم من الغرب.

ج ـ الطائرات ستقوم بإسناد الهجوم في الصباح الباكر.

د ـ المستشفى السيار سيكون في الأراضي المستورة التي في الغرب.

وتعينت ساعة الشروع بالتقدم والمسافة التي يجب أن تكون فيها كل قوة عن العدو. وعيرت الساعات.

ذهب كل قائد لقطعته واستعد للحركة وتوجه كل منهم في تلك الليلة نحو خط مسيره ووصل إلى الأرض التي سيقوم منها بالهجوم في الصباح التالي، وقرر آمر قوتنا الشرقية أن يقوم لواء الهاشمي بالتقدم على يسار القوة الشرقية ومن الشرق الجنوبي للخط. لأن القوة الجنوبية ستقوم بهجومها من غرب السكة الجنوبي.

ومع بزوغ الشمس كانت جميع القوات في الأمكنة المخصصة لها منذ الليل وكان لواء الهاشمي في مواضع قريبة جداً من المحطة، لأن الأرض التي هو فيها مستورة تساعد على هذا التقرب، ولكن باقي القوات كانت في أراضٍ مفتوحة والقوة الشرقية كانت خلال الليل متقدمة أكثر من اللازم ومسافتها عن العدو أقل مما يقتضيه الأمر والوضع. ومع طلوع النهار وانكشاف الأهداف شرعت المدفعية بالرمي وأعقبتها الطائرات الثلاث. وشرعت ألوية المشاة بالتقدم. وحيث ان اللواء الشرقي

كان (كما قلنا) متقدماً أكثر مما يجب فسبب بذلك الخلل بتوحيد حركة الهجوم بين القوات الثلاث، فالقوة الغربية بدأت بالهجوم من مكانها المعين وهي لا تزال على مسافة بعيدة من العدو، والقوة الجنوبية التي وصلت إلى منتهى الأرض المستورة وبداية الأرض المكشوفة كانت تنتظر في مكانها لتوحيد هجومها مع الآخرين. أما اللواء الرابع من القوة الشرقية الذي تقرب ليلاً إلى مسافة قريبة جداً من العدو والذي باشر هجومه مبكراً ودون أن ينتظر توحد مسافة هجومه مع القوات الأخرى أصبح على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر من العدو بأرض مكشوفة معرضاً لتلقي نيران العدو حيث وجهت إليه جميع أفواهها النارية مستفيدة من بعد القطعات المهاجمة الأخرى؛ ولما رأى قائد القوة الجنوبية تحسين علي هذا الموقف أراد أن يتلافى الأمر، فباشر بالتقدم قبل الموعد المقرر ولكن دون فائدة لأن العدو كان قد أنزل ضربته باللواء الشرقي فقتل آمره وعدداً من ضباطه ووقع الكثير من القتلى والجرحى وتراجع على أعقابه وعندها استدارت القوة التركية بجميع أفواهها النارية نحو القوة الجنوبية التي كانت أثناءها قد وصلت إلى مسافة قريبة ففتكت بها كما فعلت بالقوة الشرقية فجرح قائدها بجرحين وقتل الكثير من ضباطها وجنودها وجرح عدد كبير منهم فتراجعوا قليلاً إلى الأراضي المستورة. كل هذا ولا تزال القوة الغربية مستمرة في التقدم ولكنها عندما وصلت إلى مسافة قريبة كان العدو قد قضى على هجوم القوات الأخرى فتفرغ لها ووقع ما وقع للقوات الأخرى فقتل آمر اللواء السيد طاهر وعدد من ضباطه وجنوده وجرح الكثيرون.

أما لواء الهاشمي فقد ترجلنا في الأراضي المستورة التي خلف الجسر وأخذت مواضع الرشاشات في نهاية الأرض المستورة التي في بداية الأرض المفتوحة المشرفة على المحطة من مسافة لا

تبعد عنها أكثر من ٤٠٠ متر وهو موضع جداً موافق بل ممتاز للرمي مستور وقريب. وقد دخل جنود سرية الخيالة في مواضعهم إلى جناحنا الأيمن وتمدد آمر اللواء الرئيس بهجت بجانبي يلح علي بالتقدم كما كانت تفعل القوة الشرقية، وعبثاً كنت أفهمه أن هذا الموضع هو الأصلح ولا يوجد ما يوجب تقدم الرشاشات أكثر من ذلك لأنها إذا فعلت ذلك فإنها ستكون في أرض مكشوفة معرضة للنار والفناء وعدم إمكانيتها من القيام بواجبها. ولما رأى تقدم اللواء الجنوبي عاد بالإصرار على التقدم. وفي الحقيقة كان يجوز له أن يتقدم بجنود الخيالة حملة البنادق ولكن تقدم الرشاشات كان خطأ ينتج عكس ما كان يتصوره. وأخيراً استحييت وخفت أن يظن بي الجبن فأمرت الرشاشات أن تتقدم لموضع متقدم رشاشة بعد الأخرى وتقدمنا نحو مئة متر وأصبحنا في أرض مثل الكف وفي مسافة ٣٠٠ متر والرشاش كما هو معلوم لا يتمكن من الرمي منبطحاً على الأرض بل جالساً، فالرشاشة بهذه الحالة ومعها ثلاثة جنود جالسين ومن مسافة ٣٠٠ متر يشكلون هدفاً ممتازاً للمدفعية والرشاش والبنادق، وانتبه إلينا العدو وسلط علينا نيرانه من جميع الأنواع وبدأت الإصابات تتعاقب بسرعة وكان المرحوم بهجت في حينها يتمدد بجانبي تسترنا نبتة شيح لا يتجاوز علوها العشرة سنتمترات وكنت خلال ذلك التفت كلما أسمع حركة غير عادية والتفت لتلك الجهة لأجد هناك أكثر من شهيد أو جريح وكانت أكثر الإصابات قاتلة. وأثناء ذلك سمعت حركة بالرشاشة التي قربنا فرأيت عريف تلك الرشاشة وهو يقع فسألت عن إصابته أجابني أحدهم رأسك سالم. فتأثرت جداً على هذا العريف لأنه آخر عرفاء السرية وأشجعهم. عندها وضعت رأسي على يدي من تأثري وقلت (أخ يا حينك) فقال المرحوم بهجت (لا تتأثر يا صبحي كلنا بدنا نموت في سبيل وطننا وقوميتنا) لم يكد يكمل جملته حتى سمعته يشخر ووقع

رأسه ثم بدأ ينتفض وكانت الطلقة فوق خده الأيسر وبدأ يرمي بنفسه فوقي وكأنه يقول لي لا تتركني وقد صارت ملابسي كلها دم وكانت الطلقات تزداد من جراء حركته فأمرت اثنين بأن يأخذاه للخلف فما كادوا يبتعدون عشر خطوات حتى وقع الاثنان شهيدين، فقام اثنان من الخيالة وما كادا يبتعدان حتى وقعا أيضاً أحدهم شهيد والثاني جريح، وجاء جندي خامس فحمله لوحده ووصل به إلى قرب موضعنا الأول وأصيب برجله وبقوا في محلهم إلى أن عدنا ورفعناهم. فعقب ذلك لم يبق لدينا أحد يتمكن من الرمي لأن أكثر جنودنا أصبحوا بين قتيل وجريح فأمرت بالانسحاب للموضع الأول وحملنا جميعنا ضباطاً وجنوداً الرشاشات وبعض أدواتها وعدنا للموضع الأول ومن هناك أكملنا الأعداد من الاحتياط وعدنا للرمي وكان وقتها اللواء الغربي يتقدم لوحده ثم بدأ يتراجع ولم يبق من يستر انسحابه إلا نحن فقمنا بذلك. وخلال ذلك سحبنا الشهداء ودفناهم وسحبنا المجاريح وأرسلناهم للمستشفى السيار وتوفي خلالها المرحوم بهجت.

وأثناء ذلك شاهدنا نوري السعيد على حصانه مع مرافقه الملازم فارس وخيال يحمل علم القيادة بين خطوط الرتل الغربي يحرضهم على استئناف الهجوم، ولكن ذلك كان غير ممكن بعد أن منوا بتلك الإصابات الكثيرة. فأعطى أمر الانسحاب وبقينا في مواضعنا نرمي العدو حتى لم يبق أحد من المشاة فانسحبنا إلى معسكر في أبا اللسن وكذلك فعل آمر اللواء الأول تحسين علي فلقد بقي في موضعه إلى أن تأمن سحب الشهداء والمجاريح وثم انسحب بانتظام.

وأثناء انسحابنا من موضعنا الثاني للموضع الأول شاهدت الملازم الثاني طه بقيق وكان آمر فصيل نقلية العتاد مجروحاً في رجله ومرمياً على الأرض يتلوى من الألم فأمرت من يحمله إلى

الخلف ولما سألته عن سبب مجيئه إلى هنا وهو آمر نقلية شغله في الخلف قال لي: (جيت أتفرج يا خوي) قلت له مازحاً: وهل أعجبتك هذه الفرجة. قال: لا واللّه. وبقيت بعد ذلك بسنين كلما رأيته أقول له: طه هل أعجبتك الفرجة ونضحك وكان يلذ له أن يقص هذه القصة في كل مناسبة.

كانت نسبة الخسائر في هذه المعركة أكثر من جميع معارك الجيش الشمالي وقدرت خسائر الضباط بين قتيل وجريح بـ ٦٠٪ وهي نسبة عالية جداً وكان الشهداء ٢٤ ضابطاً و٢٢٠ ضابط صف وجندي ما عدا الجرحى وكانت خسائر سريتي عشرة شهداء وثمانية مجاريح وكان أكثر الشهداء من أمراء الرشاشات وعرفائها وهذه أكبر خسارة منيت بها السرية بعد خسارة معارك معان.

من حوادث الحرب القريبة هذه الحادثة. قبل معركة الجرذونة هذه جاء لزيارتي صديق كنت وإياه في صف واحد في مدرسة الرشدية العسكرية بدمشق اسمه الملازم نزيه، أثناء الحديث قال لي: إنه سمع عني أنني كثيراً ما أخاطر بنفسي وصار ينصحني بأن احترس إلى أن قال: (يلي بموت بتروح عليه شوف أنا طلبت أن أكون ضابط نقلية أبقى أثناء المعركة على مسافة كيلومتر منها وأسمى ضابط مثلك وغداً أترفع كما يترفع غيري وفي وقت السلم لا يبقى فرق بيني وبينك ولكن على كل حال سأكون أنا بأحسن حال ممن مات في المعركة وعائلة من لم يمت ستكون أسعد من عائلة الشهداء الأبرار فدير بالك على نفسك ولا تكون مجنون وتهدر دمك في سبيل وصول غيرك إلى المال والجاه والملك) وأخيراً رجاني أن لا أذكر ما قاله لي لأحد. وأثناء المعركة هذه كان نزيه مع فصيل النقلية العائد له خلف التلال الغربية من محطة أبا الجرذان وعلى بعد أكثر من كيلومتر من المحطة وكان راكباً على بغل إنكليزي فجاءته قنبلة

مدفع وأصابته إصابة تامة في بطنه فأخذت القنبلة القسم الأعلى من جسمه بحيث بقي مقعده مع ساقيه على حالتهما عندما كان راكباً وطبعاً جفل البغل من تلك الطلقة وبدأ يجري باستقامة المعسكر حتى وصل إلى مربطه والساقان فوقه. إنها حادثة غريبة ولكنني لا زلت أذكر كلماته التي قالها لي والتي في حينها جعلتني أضحك منه واستصغر تفكيره. لقد كان هذا الشهيد وحيداً لأمه وكانت أول من قابلني حين دخولنا دمشق وسألتني عنه فأنكرت اجتماعي به وبقيت هذه الوالدة المسكينة تسأل عن وحيدها وتظن أنه لا يزال حياً حتى جنت وبقيت السنين وهي تنتظره وتهيىء له حفلات الاستقبال حتى ماتت.

■ موقعة التل الأحمر

وفي ٢٣ تموز ١٩١٨ أي بعد موقعة الجرذونة الرابعة بيومين تشكلت مفرزة من سريتي مشاة من اللواء الأول وبمدفعي هوجكس وعدد من المدفعية وسريتي للقيام بالهجوم والاستيلاء على موقع تل الأحمر الواقع بالقرب من معان وكان يشرف غلى المعركة نوري السعيد. بدأت سرايا المشاة بالانتشار والتقدم وتقدمت خلفهم ثم دخلت المواضع من مسافة غير بعيدة عن العدو كما فتحت المدفعية نيرانها، كان ذلك دون نتيجة لأن المشاة لم تتمكن من التقرب من مواضع الأتراك لسهولة الأرض التي كانت تتقدم عليها، وفشل الهجوم بعد أن وقع نحو ٥٠ شهيداً عدا الجرحى منهم ٣ شهداء وخمسة جرحى من سريتي. وفي ٢٥ تموز أعيدت الكرة بقصد إجراء تخريب في جنوب التل الأحمر وتشكل لذلك مفرزة تخريب فلم تنجح بعمل شيء.

■ أحداث ما بعد معركة أبا الجرذان الرابعة

لقد كثرت الإشاعات والتقولات في هذه الآونة بين الضباط عن

الاتفاقية التي سمعنا عنها في السابق بين الإنكليز والفرنسيين حول تقسيم البلاد العربية فيما بينهما، وقد سبب ذلك الأثر السيىء بين الضباط خصوصاً بعد معركة الجرذونة الرابعة التي مني فيها الجيش بخسائر كثيرة. وأصبح جميع الضباط يتساءلون بين أنفسهم وخلال كل اجتماع بينهم عما إذا كانت جميع هذه الجهود والتضحيات التي نصرفها ستكون في النتيجة لمصلحة الإنكليز والفرنسيين ومن أجل أطماعهم وإيصالهم لاستبعادنا وكانت هذه التذمرات تصل إلى الأمير فيصل.

وفي أحد الأيام كنا في زيارة صديقنا سعيد عمون الذي أعطيت له رتبة ملازم ثانٍ وعين مرافقاً لقائد المدفعية، وأثناء الحديث تطرق إلى أن الكابتن بيزاني قد زاره وتعرض له في الحديث عن صداقة الفرنسيين لسوريا إلخ ورجاه أن يجمعه بالضباط السوريين وبعد أن تحدثنا بهذا الموضوع رأ نا من المناسب أن نجتمع به لنفهمه أفكارنا على حقيقتها.

وهكذا اجتمعنا في اليوم الثاني في خيمة سعيد عمون نحو عشرة من شباب الضباط السوريين أذكر منهم سعيد شوكت العائدي سمير الرافعي (طرابلس الشام) فارس أمين الكيلاني، محمود الهندي، محمد علي العجلوني.

وحضر الكابتن بيزاني ثم بدأ يتحدث عن صداقة فرنسا التقليدية لسوريا. وان سوريا التي ستتخلص قريباً من النير التركي لا بد لها من دولة صديقة تأخذ بيدها إلخ. فصار كل منا يجاوبه من جهة ويشرح وجهة نظره وكنا جميعنا لا نفقه القضايا السياسية إنما نتفهم هذا الأمر من وجهة وطنية صرفة وخلاصة ما تلقاه منا أننا لم نحارب الأتراك من أجل تبديلهم بحكام أخرين ولو أننا نعتقد أن الفرنسيين أو الإنكليز سيحلون محلهم لما حاربنا الأتراك بل كنا نستمر بمحاربتكم بجانبهم

لأنهم بالرغم مما فعلوه بنا فهم أقرب إلينا منكم وإنك مهما نوهت ولطفت بشكل العلاقات التي ستكون بيننا فإنها حسب اعتقادنا علاقات استعمارية. وعلى كل حال نحن لا نحتاج ولا نطلب معاونة دولة أجنبية وإذا احتجنا إلى أخصائيين فإننا سنأخذهم من الدولة التي نعتقد أنه ليس لها أطماع في بلادنا وأخيراً قلت له: ثق يا كبتن أنه إذا جربتم احتلال بلادنا فإننا سوف نقاتلكم وليس بنيّتنا أن نلقى سلاحنا بعد دخولنا سوريا حتى نحررها منكم ومن الإنكليز. وهكذا خرج بيزاني يتعثر بمشيته من كثرة الغضب. وكلفنا الملازم فارس وكان مرافقاً لرئيس الأركان نوري السعيد أن يوصل خبر هذا الاجتماع إليه ويعلمه بكل ما جرى من حديث حول هذا الموضوع ويخبره بأننا نطلب إليه أن يوصل هذه المسألة إلى الأمير وأن يخبره أننا غير مرتاحين للأوضاع الحاضرة وإلى جميع هذه المظاهر التي نراها وأنه من الصعب على نفوسنا أن نقبل الاستمرار في القتال ونحن تحت ضغط هذا القلق. وبعد يومين من ذلك دعاني نوري السعيد مع شوكت العائدي وبحضور مرافقه فارس. وأخبرنا بأنه عرض الأمر على الأمير وطمأننا بأن سموه لا يقل عنا اهتماماً بهذا الأمر ودعانا للاطمئنان وخرجنا من عنده ونحن لا نزال غير مرتاحين. وفي هذه الآونة أتت سريتان من الهجانة الاسترالية قوامهما ٣٠٠ جندي من السويس إلى العقبة وفي ٢ آب اتجهت إلى محطة المدورة مارة بوادي التيم فموقع رم.

وفي ٨ آب هاجمت المحطة واستولت عليها بعد أن أخذت نحو ١٥٠ أسيراً مع مدفعين ورشاشتين وخربت مسافة كبيرة عن جانبي الخط الحديدي. ومن هناك اتجهت جنوباً نحو موقع الموقر على مسافة ١٥ ميلاً جنوب عمان بقصد تخريب النفق القريب منها ولكن الطائرات التركية اكتشفت أمرهم فأضاعوا

المفاجأة وفشلوا فعادوا إلى العقبة ومنها إلى لوائهم في بئر السبع.

وفي هذه الآونة أيضاً وقعت حادثة جعفر العسكري. فقد شاع في الجيش أن جعفر باشا قد قدم استقالته من الجيش بسبب ما كتبته جريدة القبلة بعددها الصادر ١٩ آب في مقال يعزى إلى جلالة الملك يقول فيه: (إن لقب القائد العام الذي تطلقه بعض الجبهات على الشيخ جعفر العسكري لا يتفق مع الحقيقة لأن الحكومة العربية لم تمنح لقباً كهذا للشيخ جعفر أو لسواه). وقد كان لهذا البيان واستقالة جعفر وقع سيىء جداً بين عموم ضباط الجيش حتى أنه بدأت بذور أحاديث بتقديم استقالات اجماعية ولكن قد سوى الأمر بأن رفض الأمير استقالة جعفر كما أشيع أن فيصل قدم استقالته للملك إذا لم يقبل بتسوية المسألة بإرضاء جعفر. وهكذا سويت بسلام. وكلمة شيخ كانت تستعمل في دوائر مكة عوضاً عن لقب سيد.

في أحد الأيام ونحن في أبا اللسن شاهدنا قافلة من مدنيين راكبين الجمال وكان معهم واحد يحمل شمسية فوق البعير الذي كان يركبه فكان جميع الذين يشاهدونه يغرقون في الضحك فمروا من أمامنا وهم ينشدون نشيداً وطنياً فعلمنا أنهم آتون من دمشق للالتحاق بالثورة وفهمنا فيما بعد أنهم الدكتور أحمد قدري ورستم حيدر وتحسين قدري ورفيق التميمي والشيخ سعيد الباني (صاحب الشمسية) وسليم عبدالرحمن ومحمود المغربي وخليل السكاكيني وحكمت العسلي.

تشكيل المفرزة الشمالية

بعد مضي أيام قليلة على موقعة الجرذونة الرابعة ثم التل

الأحمر طلبت إلى المقر العام وبلغت أنه سيتشكل حملة كبيرة للعمل في الشمال وستكون سريتي من ضمن هذه القوة، وان هذه القوة ستكون راكبة هجن وبإمكاني أن اصطحب البغال اللازمة لحمل الرشاشات وعتادها وركوب الضباط والمراسلين وعدا ذلك تكون جميع الرواحل من الهجن وأعطي لي صلاحية تبديل الضباط والجنود ممن اختارهم من القطعات وتقديم جدول بجميع احتياجاتي من أسلحة ومهمات، وبأنهم سيؤمنون جميع مطالباتي. وفهمت أن علي جودت الأيوبي سيكون قائداً لهذه المفرزة النظامية وأنني سأكون من هذه الساعة مرتبطاً به وكان ذلك بحضوره، وهكذا بدأت مراجعتي له وقد أخبرني أنه هو الذي طلب أن أكون في المفرزة. وانشغلت خلال ذلك الأسبوع بالاستعداد واتمام النواقص. استرجعت الملازم محمود الهندي إلى السرية بناء على طلبه بعد أن نقل إلى آمرية أحد ألوية المشاة. أخذت ضابطين آخرين ونقلت ثمانية جنود مصريين كانوا باقين في السرية وأخذت عوضاً عنهم فلسطينيين كما تسلّمت أربعة رشاشات فيكرس جديدة وسلمت ما لدي من الرشاشات المستهلكة واستلمت احتياجي من الهجن مع عددها وسلمت الزائد من البغال وغير ذلك من الأعمال بحيث أصبحت جاهزاً للحركة.

أما القوات النظامية الأخرى في المفرزة فكانت تتشكل من لواء المشاة الأول الذي كان معسكراً في أم العضام للراحة وإعادة التنظيم وبوشر بتحويله إلى لواء هجانة بعد أن أعطي للجيش الشمالي نحو ألفين من الجمال التي أرسلت من جيش اللنبي. وقسم لواء الهجانة هذا إلى ثلاث سرايا وسرية رشاش من عشرين رشاش هوجكس. وألحق بالمفرزة بطارية المدافع الفرنسية (٤ مدافع) التي بإمرة بيزاني ومفرزة تخريب. وكانت سريتي حسب هذا الترتيب مرتبطة بقائد المفرزة علي جودت

وخصص لهذه الحملة ألفا جمل لنقل الأرزاق والماء والمهمات كما رافقها ثلاث مدرعات بريطانية وطيارتان وخمس سيارات نقل وكان قائد الحملة رئيس الأركان الزعيم نوري السعيد كما رافقها الأمير فيصل بالذات وسيبقى الأمير زيد وجعفر العسكري في أبا اللسن.

وانتقل لواء الهجانة إلى أبا اللسن بقيادة تحسين العسكري الذي عاد إلى لوائه بعد أن شفي من الجروح التي أصابته في موقعة الجرذونة. وفي تلك الآونة كان قد وصل من فلسطين نحو أربعمائة من الشباب الفلسطينيين متطوعين لخدمة الثورة العربية فأعطي معظمهم لهذا اللواء كما أعطي لنا منهم جميع حاجتنا من الجنود فأصبح موجود لواء الهجانة ٦٠٠ إضافة للقوات الأخرى من المدفعية ورشاش ومفرزة تخريب ونقلية فأصبح عدد العساكر النظامية ألف هجان وتقرر أن يرافق المفرزة كل من جميل المدفعي وعبدالحميد الشالجي.

وكانت الغاية من تشكيل هذه المفرزة هي التعاون مع الجيش البريطاني الذي قرر القيام بهجومه الكبير على الجيش التركي واستخلاص الأراضي السورية منه وطلب من الجيش الشمالي العربي أن يقوم بمساعدة هذا الهجوم بمهاجمة مؤخرة الأتراك وقطع خطوط مواصلاتهم في أهم وأخطر نقطة وهي درعا الواقعة على ملتقى ثلاثة خطوط حديدية. دمشق - حيفا - عمان.

وقد أعجبت هذه العملية الأمير فيصل وجميع ضباط الجيش لأنها تتيح لهم المساعدة في فتح سوريا والتخلص من القيام بأعمال التخريب المتكررة بالاستيلاء على مواقع الأتراك ثم تركها ثم إعادة الاستيلاء عليها ثم تركها مرات وفي كل مرة نقدم خسائر لا مبرر لها سوى إشغال قوات كبيرة من الأتراك عن الإنكليز.

وقبل الاسترسال في البحث عن حركات هذه المفرزة نرى من الفائدة أن نعطي فكرة عن موقف الجيشين التركي والإنكليزي قبل قيام الإنكليز بهجومهم الكبير.

ففي شهر أيلول سنة ١٩١٨ وهو شهر المرحلة الأخيرة للحرب العالمية الأولى في البلاد السورية ونهاية الحكم التركي الذي استمر فيها منذ أكثر من أربعمائة سنة. كان الجيش البريطاني قد أتم استعداداته للقيام بهجومه الكبير صباح ١٩ أيلول. وبناءً على ذلك طلب إلى الجيش الشمالي العربي الاشتراك بهذه العمليات المقبلة على أوسع نطاق ممكن.

١ ـ الجيش التركي

كانت القوات التركية موزعة على ثلاثة جيوش يتولى الجنرال الألماني ليمان فون ساندرس قيادتها العامة ومركزه الناصرة.

أ ـ الجيش الثامن بقيادة جاويد باشا ومركزه طولكرم ويتألف من عشرة آلاف مقاتل و١٥٧ مدفعاً.

ب ـ الجيش السابع بقيادة مصطفى كمال باشا ومركزه نابلس وقوامه سبعة آلاف مقاتل و١١١ مدفعاً.

ج ـ الجيش الرابع بقيادة جمال باشا الصغير على جبهة شرقي الأردن ومركزه عمان وقوامه ٨ آلاف مقاتل و٧٤ مدفعاً.

د ـ فيلق معان وخطوط السكة الحديدية بين عمان ومعان مع قوة احتياطية ومجموعها ٩ آلاف مقاتل و٦٠ مدفعاً.

المجموع ٣٤ ألف مقاتل و٤٠٢ مدفعاً هذا عدا ١٢ ألف جندي كانوا يرابطون في المدينة وتبوك.

٢ ـ الجيش البريطاني

قوامه ٦٩ ألف مقاتل و٥٤٠ مدفعاً ويقوده الجنرال اللنبي.

٣ - الجيش العربي

بقيادة الأمير فيصل ومجموع قواته ثمانية آلاف جندي من جميع الصنوف (عدا المتطوعين والمجاهدين).

والأرقام السابقة لا تشمل بالنسبة للإنكليز والأتراك إلا المقاتلين في الميدان من الخيالة والمشاة والمدفعية وغيرها، أما القوة العامة لجيش اللنبي بما فيهم التشكيلات القائمة في الخلف للتموين والنقل وسائر الخدمات الأخرى فمجموعها لا يقل عن ٣٥٠ ألف جندي و٦٢ ألف حصان و٤٤ ألف بغل و٣٦ ألف جمل و١٢,٥٠٠ حمار بينما لم يكن الأتراك يملكون عشر معشار هذه الحيوانات.

وعندما اعتزم الجنرال اللنبي القيام بهجومه حشد معظم قواته على الجانب الغربي من الجبهة ضد الجيش الثامن. وأبقى في وادي الأردن فرقة خيالة وثماني كتائب مشاة بقيادة الجنرال تشايتور وكانت مهمة هذه القوة أن تقوم بمظاهرات تعمية لإيهام العدو أن هجوماً يوشك أن يبدأ من هذه الجهة.

ويعطي الكتاب الرسمي الذي نشرته الحكومة البريطانية بعنوان: (العمليات العسكرية في مصر وفلسطين) معلومات عن القوات التركية التي كان العرب يشغلونها. ننقل الفقرة التالية عن هذا الكتاب:

يمكن تقدير قيمة خدمات العرب إذا عرفنا أن مجموع قوات الأتراك في المدينة وتبوك كان ١٢ ألف مقاتل وكان يمكن للجنرال ليمان فون ساندرس أن يستفيد من هذه القوات فائدة كبرى أثناء هجوم اللنبي. ولقد ألح الضباط الألمان على ضرورة سحبها ولكن الأتراك لم يوافقوا على ذلك محافظة على هيبتهم. وربما كان من المحتمل أن ينسحب الترك لولا عمليات تخريب

خط السكة في نيسان ١٩١٨ أضف إلى ذلك أن الترك كانوا يملكون في معان وخط السكة التابع لها عشرة آلاف جندي، هذا عدا القتلى والأسرى والفارين ولم يكن عددهم يقل عن ستة آلاف. ومما تقدم يتبيّن أن العرب كانوا يواجهون ٢٥ ألف من الجنود النظاميين قبل البدء بالهجوم الكبير. وإن مساعدتهم كانت ذات أهمية بالغة للإنكليز.

ذكرنا في الفقرة السابقة أنه تقرر أن تكون الحملة بقيادة الأمير فيصل يساعده رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد كضابط ركن للأمير وقد عين المقدم علي جودت الأيوبي قائداً للمفرزة الشمالية النظامية. وفيما يلي نبين ملاك هذه المفرزة حسب تشكلها في أبا اللسن قبيل حركتها إلى الشمال:

قائد الحملة	سمو الأمير فيصل
مرافقه	الملازم أول تحسين قدري
رئيس أركانه	الزعيم نوري السعيد
مرافق للحملة	المقدم جميل المدفعي
مرافق للحملة	المقدم عبدالحميد الشالجي
قائد المفرزة	علي جودت الأيوبي
قائد المدفعية	الفرنسي الكابتن بيزاني
قائد سرية الرشاشات	الملازم أول صبحي العمري
آمر الفصيل الأول	الملازم الثاني محمد الهندي
آمر الفصيل الثاني	الملازم الثاني (؟)
آمر الفصيل الثالث	الملازم الثاني (؟)
آمر مفرزة التخريب	الميجر ييك
لواء الهجانة	قائد اللواء المقدم تحسين علي
المرافق	الملازم الثاني شمس الدين علي
المحاسب	
ضابط الإعاشة	

قائد السرية الأولى
آمر الفصيل الأول
آمر الفصيل الثاني
آمر الفصيل الثالث
قائد السرية الثانية
آمر الفصيل الأول
آمر الفصيل الثاني
آمر الفصيل الثالث
قائد السرية الثالثة
آمر الفصيل الأول
آمر الفصيل الثاني
آمر الفصيل الثالث
قائد سرية رشاشات هوجكس
آمر الفصيل الأول
آمر الفصيل الثاني
آمر الفصيل الثالث
مفرزة هندسة بإمرة الكابتن بيك
مستشفى ميدان بإمرة الطبيب عبدالعزيز الكنقاني
النقلية
مفرزة التخريب

■ حركة المفرزة الشمالية إلى الشمال

كان لا بد لهذه المفرزة التي تتشكل مما لا يقل عن ألفي نظامي وما يتبعهم من متطوعي البدو وما لديهم من دواب وهي تجتاز هذه المسافة الطويلة في الصحراء البعيدة عن المدن وموارد المياه من تنظيم أمر إعاشتها وموارد مياهها فعهد بهذا الأمر إلى أحد أعضاء البعثة البريطانية الميجر يانغ. وكان قد عهد

إليه قبل ذلك بالإشراف على إدارة الألفي جمل التي أرسلت من جيش اللنبي وسلمت إدارتها إلى المتطوعة من البدو باعتبارهم يحسنون إدارتها. فشكل يانغ بمساعدة القبائل العربية ثلاثة منازل (مواضع للنزول بها) في الصحراء الواقعة في شرقي السكة الحديدية وكدس في كل موقع منها الأرزاق كما هيىء فيها مقدار كافٍ من جوامع الماء حيث أملئت من مياه الآبار (لأن هذه المواقع انتخبت قرب الآبار الصحراوية) لتكون جاهزة لإرواء الحيوانات حين وصول المفرزة إليها. ولا بد لي أن أنوه هنا بأننا اعتباراً من وصولنا إلى باير شعرنا بنشاط البعثة البريطانية وتماسها معنا عن كثب، وقبل ذلك ما كنا لنرى منهم نشاطاً ظاهراً حتى ان ظهور يانغ أمام جوامع الماء لتنظيم الإرواء كاد أن يسبب حادثة بسبب تذمر الجنود والضباط من ظهوره بمظهر الآمر الذي لا يمكن قبوله من أحد الإنكليز حتى ان أحد الضباط نهر يانغ وشتمه لهذا السبب مما سبب مداخلة آمر المفرزة واعتذار يانغ بحيث قال: أنا هنا أعمل في خدمتكم لا آمر على أحد انني خادم سيدي فيصل وهكذا مرت الحادثة بسلام ولكننا لم نعد نرى بعد ذلك يانغ يتدخل.

وكانت المسافة بين المنزل والآخر مسيرة ثلاثة أيام فكانت المفرزة بعد أن ترتوي وتأخذ ما تحتاجه من الأرزاق والماء لثلاثة أيام تتحرك نحو المنزل الثاني، مع العلم أن الجمال وهي القسم الأكبر من حيوانات المفرزة لا تحتاج إلى الماء خلال قطعها هذه المسافة وحتى لأطول منها. فالبعير عادة يصبر على العطش في موسم الشتاء والربيع أكثر من عشرة أيام ولذلك كنا نتزود من المنازل بالماء للجنود والخيل والبغال وكان لدى كل جندي «فنطاس» صغير اسطواني معمول من «الشينكو» يحمله على ذلوله (الجمل) يكفيه ثلاثة أيام وأما البغال فكان لدينا لها «فناطيس» ماء كبيرة محملة على جمال. وكان لكل جندي

وضابط من المفرزة جمل لركوبه مع عدة ركوب كاملة منها خرج يضع فيه جميع حاجاته من إعاشة وتجهيزات وعتاد احتياطي فكان بذلك يحمل ما يحتاجه من أكل وماء لمدة خمسة عشر يوماً عند الضرورة.

بعد أن أكملت المفرزة استعداداتها في موقع أبا اللسن تحركت في ٣١ آب سنة ١٩١٨ ووجهتها الأزرق فعبرت خط السكة الحديدي من جنوب معان ليلاً متجهة إلى الشرق، ولما أصبحنا على مسافة بعيدة عن الخط وعن نظر الحاميات المحافظة عليه اتجهنا إلى الشمال ومررنا بمواقع باير والجفر وبيار العمري وهي مراكز التموين التي ذُكر تأسيسها إلى أن بلغنا قصر الأزرق بتاريخ ٦ أيلول حيث وجدنا الأمير فيصل معسكراً فيه وقد مر بنا قبل يومين بالسيارة وكان برفقته نوري السعيد وجويز ولورنس. عسكرنا في موقع الأزرق وكان الجميع مسرورين لغزارة المياه التي فيه ففي الأزرق مياه نظيفة صافية تشبه النهر ولكنه لا يظهر عليها الجريان كما في الأنهر عادة وهي ليست راكدة على ما يظهر لأنها ليست آسنة يقال إنها تجري من أسفلها وتنبع من الأسفل. إن موقع الأزرق يبعد ثلاثين كيلومتراً إلى الشرق من محطة الزقة، كما يبعد خمسين ميلاً من الجنوب الشرقي لدرعا وفيه خرائب قديمة تعود إلى العهد الروماني والغساسنة.

وكان موقع الأزرق هو المثابة التي تقررت لاجتماع قوات البدو وقد توافدت قواتهم قبل وبعد وصولنا إليها بحيث وصل عوده أبو تايه ومعه نحو مائة خيال كما وصلها نوري الشعلان ومعه نحو ثلاثمائة فارس كما جاء غيرهم من المشايخ للقبائل الأخرى وبعض الدروز والحوارنة. ووصلت طائرتان بريطانيتان وتقرر أن يكون الأزرق مقراً لفيصل ومركزاً للتموين ومقراً خلفياً يبقى فيه المستشفى السيار.

معارك حوران

وفي صباح ١٤ أيلول تحركت القوة المحاربة بأجمعها من الأزرق نظاميين وبدواً مع المدرعات وهجانة الشريف ناصر، حيث وصلنا في مساء اليوم التالي خربة المناعية التي بجانبها بركة ماء. وجرت معركة جوية بين إحدى الطائرات المرافقة لنا وطائرة تركية سقطت بنتيجتها الطائرة التركية وانعطبت البريطانية فأرسلت لفلسطين للتصليح. وفي ليلة ١٤/ ١٥ نسفت مفرزة الكابتن بيك جسراً بثلاث ركائز بين محطتي المفرق ونصيبين حيث تعطلت من جراء ذلك المواصلات بين درعا وعمان. وفي صباح ١٦ أيلول بينما كانت القوة تتحرك شمالاً باتجاه درعا افترق عنها البريطانيون جويز واللورد ونيتر تون ولورنس بسيارتين مصفحتين مع سيارات أخرى تحمل متفجرات وتوجهوا إلى الجسر الذي قرب محطة جابر فضربوا حاميته الصغيرة بحيث استسلمت لهم ونسفوا الجسر وعادوا فالتحقوا بالقوة في أطراف درعا.

لقد بقي الأمير فيصل في مقره في الأزرق وكان نوري السعيد يرافق القوة النظامية والشريف ناصر بن علي ممثلاً للأمير ومشرفاً على قوات البدو. وفي صباح يوم ١٧ أيلول وصلنا إلى خط السكة الحديدية في مخفر تل عرار الواقع على بعد خمسة أميال شمال درعا. وقابلنا جنود المخفر بالرمي فأطلقت المدفعية عليهم بعض الطلقات فاستسلموا وعقب ذلك دخلت المدفعية والرشاشات والسرايا مواضع لحماية مفرزة التخريب التي باشرت بتخريب الخط نحو الشمال ونزع القضبان الحديدية. وفي هذه الأثناء جاءت طائرات تركية وبدأت بقصف مجمعاتنا بقنابلها ورشاشاتها ولكنها ما عتمت أن ارتفعت في الجو بعد أن كانت واطئة من جراء نيران مدافعنا ورشاشاتنا. وفي هذه الأثناء وصلت طائرة بريطانية واشتبكت معها في معركة جوية

سقطت خلالها الطائرة البريطانية وخرج طائرها سالماً دون أذى وأعطي له جمل فركبه وكان فصلاً مضحكاً منظر هذا الطيار على ظهر جمل بعد أن كان قبل قليل على طائرته في الجو وكان عندما يمر بجنودنا يضحكون ويضحك معهم ويظهر عليه الفرح بنجاته من الموت، وخلال ذلك أخذ نوري السعيد سرية من الهجانة وسرية الرشاش (سريتي) ومدفعين مع الشريف ناصر وخيالته وتوجهنا نحو محطة مزيريب لقطع الخط من جنوب درعا حيث يمتد الخط الحديدي المتجه لفلسطين ولما وصلنا إلى قرب المحطة فتحنا عليها نيران المدافع والرشاشات. فاستسلمت بعد قليل واستولينا عليها وأخذنا منها عدداً من الأسرى. وخربنا جميع المنشآت وقطعنا خطوط المخابرات وخربنا المزيد من الخطوط وخف أثناء ذلك عدد كبير من أهالي القرى المجاورة لمساعدة القوة وكانوا يرافقونها ويعاونونها بالتخريب والقتال ويقومون أخيراً بالنهب ونقل ما ينهبونه لقراهم القريبة. وكان بجانب المحطة جسر كبير وعليه حامية قوية لم تقم المفرزة بمهاجمتها لسدول الظلام. ولكن في هذه الأثناء جاء شيخ قرية تل شهاب ومعه ضابط تركي أرمني قال: بمجرد تقدمكم إلى الجسر فإنه سوف يستسلم هو والحامية واتفق هو والقيادة على ذلك وفعلاً تقدمنا نحو الجسر وأدخلت الرشاشات في الموضع وكانت المشاة على وشك التقدم عندما وصل إلى المحطة قطار ملآن بالجنود الألمان للدفاع عن هذا الجسر المهم وبذلك أصبح من المتعذر تنفيذ الخطة المقررة. وكان نوري السعيد يريد مهاجمة الجسر بالرغم من مجيء هذه القوة الألمانية ولكنه عدل عن ذلك بسبب ما وقع من التخريبات.

وصلت في تلك الليلة بقية قواتنا من تل عرار إلى مزيريب وفي صباح ١٨ أيلول اتجهنا نحو الجنوب ووصلنا في العصر إلى قرية نصيب وكان بجانب القرية محطة وقربهما جسر كبير ذو

ثلاث قناطر. فأخذت قواتنا مواضعها للرمي وبدأت الرمي على المحطة والجسر. وفي النهاية انسحبت حامية الجسر إلى المحطة ونسفت مفرزتنا الجسر وانسحبنا بعد ذلك باتجاه الشرق وكان الوقت متأخراً والشمس بدأت في المغيب وبعد مسيرنا عدة أميال نحو شرقي السكة تقرر أن نبيت هناك لأن الجهد الذي صرفناه خلال اليومين الماضيين وعدم النوم قد انهكنا تماماً. واستسلمنا لنوم عميق حالما انتهينا من أعمالنا المعتادة وأخذ ترتيبات الأمن وما كاد ينبثق ضوء الصباح في ١٩ أيلول حتى نهضنا على صوت قنابل تنفجر في منتصف المعسكر فوقع الذعر والارتباك بين الجنود والحيوانات وخصوصاً الجمال التي هاجت وهجت من مكانها وأسرع كل جندي خلف جمله ليمسكه وسبب ذلك فوضى بين جميع أفراد المعسكر، فكل جندي أمكنه إمساك جمله يسرع بالابتعاد عن مكانه نحو الشرق لأن المنطقة التي كنا فيها أرض سهلة ليس فيها عوارض للتستر من النار. ولأول مرة أرى سريتي تخرج عن نطاق الضبط فكل رشاشة تسير مع بعض أفرادها في جهة فوقفت في مكاني أتفرج على هذا المنظر المضحك المؤلم وجاءني المراسلون بحصاني مسروجاً ينتظرون مني أن أركب والتحق بالآخرين ولكنني وقفت في مكاني دون حراك أو كلام أتفرج فسكن هياج من كان حولي. وكلما التفت جندي أو ضابط صف للخلف خلال انسحابه ورآني واقفاً يقف ثم يعود مسرعاً ويقف في الصف أمامي دون أن ينبث أحدهم بكلمة، وفي خلال ربع ساعة تكامل موجود السرية. فبدأت بإعطائهم إيعاز الاستعداد ثم بدأت بايعازات التمارين المنضمة التي تعطى عادة في التمارين داخل الثكنات واتجهت بهم أثناء ذلك خمسين متراً نحو الجنوب حيث هضبة صغيرة تحجبنا عن الجبهة التي تأتي منها طلقات المدافع.

طلقات المدفعية هذه أتتنا من مدفع منقول على قطار كان

الأتراك قد جلبوه من محطة نصيب وقد شاهدوا معسكرنا في الصباح الباكر وكانت المفرزة عندما قررت المبيت لم تقدر المسافة تماماً بينها وبين سكة الحديد نتيجة التعب فظنت أنها بعيدة عن نظر العدو. وخلال قصف هذا المدفع جاءت أيضاً طائرة تركية فألقت بعض القنابل وأسرعت بالهرب.

ولما وصلنا إلى خربة المتاعية وجدنا باقي القوة من جماعة الشريف ناصر والبدو فيها. وقضينا هناك يوم ١٩ أيلول، وقد كان في غرب القرية خرائب فوضعت الرشاشات أمامها في مواضع متجهة إلى الغرب، وبعد أخذ ترتيبات الأمن جلسنا للراحة وإذ بطائرات تركية تبدأ بقصفنا، وكنا منتظرين مجيئها ومستعدين لها ففتحت عليها نيران الرشاشات إلى أن عادت ولكنها أوقعت بعض الإصابات في السرايا الأخرى جنوداً وحيوانات، وجاء من يخبرني أن هناك ضابطاً مصاباً ولما وصلت إلى مكان الطبيب وجدت آمر الرعيل الأول محمود الهندي ممدداً على الحمالة وهو مصاب في رجله حيث أطارت إحدى الشظايا أصابع رجليه وكان بجانبه الملازم ياسين وكانت إصابته شديدة حيث أصابته العشرات من الشظايا وبقي تحت التداوي وإجراء العمليات سنين عديدة ولا يزال يعرج منها حتى اليوم وقد أصبح شيخاً. إن هذا الضابط بعد أن بقي أشهراً في مستشفى القاهرة وعاد إلى دمشق قد أهمل أمره وأحيل إلى المعاينة من أجل إخراجه من الجيش لمعلوليته ولما أراد أن يراجع الأمير فيصل لم يتمكن من ذلك حتى رسائله التي حررها له لم تصله وفي أحد الأيام وقف بقرب باب القصر الذي يسكنه الملك فيصل وصاح بأعلى صوته وأشار له بالعكاز التي بيده، فأراد الحرس منعه فأمرهم فيصل بتركه واقترب منه وكان فيصل يعرف حادثته فقال له: يا سيدي إنك صرت مكلاً بتضحيات رجالك ومنها هذه الإصابة التي من أجلها

سيخرجونني من الجيش ولا يبقى أمامي سوى التسول فهل يرضيك هذا وهل يرضى ربنا عن ذلك. وكنت أنا آنذاك واقفاً خلف الملك فيصل إذ كنت من هيئة المرافقين فدمعت عيون فيصل وطيب خاطره وأمر بإعطائه مائتي ليرة وإبقائه في الجيش في المحل الذي يختاره.

لقد كان طبيب المفرزة الدكتور عبدالعزيز الكنفاني وقد اهتم بأمر الجرحى وجرى تسفيرهم إلى الأزرق ومنها إلى مصر. وفي صباح اليوم التالي في ٢٠ أيلول انتقلت المفرزة إلى خرابة أم السرب وقامت سرايا الهجانة بتنظيف أرضها السهلة لتغدو صالحة لنزول الطائرات وكان لورنس وييك يقومان مع جنود المدرعات بوضع الإشارات للطائرات لتكون الأرض جاهزة لاستقبالها، وحوالى الظهر شاهدنا طائرة بريطانية كبيرة حامت فوقنا ثم حطت فذهبت لاتفرج عليها لأنها كانت من ذات المحركين وتستوعب حسب قولهم لستة أشخاص ولم نكن قبل ذلك قد شاهدنا مثل هذه الطائرة الكبيرة عن قرب وهي من نوع فيكتوريا وكانت أكبر أنواع الطائرات في نهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد نزل منها ثلاثة أشخاص وبدأوا يتكلمون مع لورنس الذي كان في استقبالهم ثم شاهدنا لورنس وهو يقفز ويرقص مسرعاً نحو قائد المفرزة ولما مر من أمامنا قال لنا إن الجيش البريطاني انتصر والأتراك يتراجعون وهكذا جاءت هذه الطائرة لتخبرنا بالنصر ولا بد أنها كانت تحمل تعليمات حول ذلك. وقد كان فيصل في هذه الآونة في الأزرق.

وفي ٢٢ أيلول جاءتنا ثلاث طائرات بريطانية وحطت بقرب المفرزة وبعد قليل جاءت ثلاث طائرات تركية لقصف معسكرنا ولكن الطائرات الإنكليزية تصدت لها وأسقطت منها اثنتين وفرت الثالثة. وحضر فيصل إلى المكان الذي نحن فيه. وفي

اليوم التالي ٢٣ منه انتقلت الحملة إلى المتاعية وفي الليل كنا نسمع أصوات قصف شديد وعلمنا أن الطائرات البريطانية كانت تقصف محطة المفرق. وفي اليوم التالي في ٢٤ عاد فيصل للأزرق وفي اليوم الذي تلاه تحركت المفرزة من المتاعية وبتنا تلك الليلة في التوعمة وقد اقتربنا ثانية من المدن والقرى ومدينة درعا وبدأ أهل القرى من الحوارنة والبدو يلتحقون بالحملة خصوصاً بعد أن علموا بانكسار الأتراك في جهة نابلس وأن الجيش الرابع الذي كان بقيادة جمال باشا الصغير والفيلق الذي كان في معان قد أخذ أمراً بالانسحاب نحو الشمال وهم بحالة تراجع، وهكذا كنا نرى القرويين وفلول البدو يواكبون الحملة من بعيد من جميع أطرافها وبذلك كانوا يحتمون بنا ويساعدوننا عندما نشتبك مع العدو من بعيد ويتصيدون فلول الأتراك لسلبهم وكانت جميع الغنائم من نصيبهم. فعند نشوب المعركة وبمجرد انكسار العدو وقبل أن تصل إليه الجنود يكونون قد أسرعوا واستولوا على جميع البنادق والحيوانات والأمتعة. وكنا كلما تقدمنا يزداد عدد هؤلاء الأشخاص من القرويين والبدو وعندما تبتعد المفرزة عن حدود منطقتهم يكونون قد استحوذوا على الكثير من الغنائم فيعودون لإيصالها إلى قراهم ومضاربهم حيث يكون قد التحق بنا غيرهم من أهل المنطقة التالية التي وصلنا إليها وقد استمر ذلك حتى وقوع الهدنة وانتهاء الحرب ولكنه كان أقل بعد وصولنا إلى دمشق خلال الزحف إلى الشمال.

في الصباح الباكر من يوم ٢٦ أيلول وصلنا إلى قرب تل عرار وباشرت مفارز التخريب أعمالها بتخريب الخط والعبارات وكانت هذه التخريبات هي نهاية التخريب حيث لم يعد بإمكان الأتراك إصلاحها حتى نهاية الحرب، وقد كان في درعا ستة قطارات بقيت فيها وأثناء ما كنا قرب تل عرار نقوم بالتخريب

توزعت بعض قوات البدو والحوارنة الذين كانوا بإمرة الشيخ طلال شيخ قرية طفس وذهب عوده أبو تايه إلى خربة الغزالة واستولى عليها وأخذ منها أسرى واتجه نوري الشعلان نحو درعا كما اتجه الشيخ طلال نحو أزرع. وبعد أن انتهت المفرزة من التخريب قطعت السكة نحو الغرب متجهة نحو قرية شيخ مسكين فوصلناها ليلاً واستمرينا بالمسير نحو شيخ سعد الواقعة في شمال غرب درعا والمشرفة على الخط الحديدي الممتد بين درعا وبيسان لملاقاة فلول الجيش التركي المنسحب فوصلناها في فجر يوم ٢٧ أيلول وتقرر البقاء فيها ذلك اليوم. وكنا أثناء مسيرنا نلتقي بفلول الجيش التركي أفراداً وجماعات وكانوا يستسلمون بسرعة فكان الفلاحون والبدو يأخذون منهم أسلحتهم ويأتون بهم إلينا. ولإعطاء فكرة عن وضع الأتراك المعنوي الذي أصبحوا فيه أقول إنه أثناء حركتنا من شيخ مسكين نحو شيخ سعد شاهدت غباراً يتصاعد من خلف هضبة كانت على يميننا فأرسلت اثنين من المراسلين الذين معي (وقد بدأت أنظم خيالة من الحيوانات التي كنا نستولي عليها) ليصعدوا إلى الهضبة ويستطلعوا أمر هذا الغبار وكانت المسافة لا تبعد أكثر من مائتي متر وكنت أترصدهما وهما زاحفان فأشارا لنا أن هناك عدواً ثم عاد أحدهم ليخبرنا أنه رتل كبير فأرسلت أحد الضباط وعاد ليخبرنا أنه رتل من المشاة يقدره بفوجين وبأنهم عندما رأوا هؤلاء المراسلين رفعوا العلم الأبيض وهكذا جاؤوا بهم فتصور أن فوجين يستسلمان لأربعة أشخاص. وقد تعرضنا لمشكلة من تكاثر الأسرى لقد أصبح عددهم يعد بالألوف أي أضعاف جميع قوتنا النظامية ولذلك اعتباراً من شيخ مسكين لم نعد نهتم بأخذ الأسرى وتخصيص قوة للمحافظة عليهم لأن جميع قوتنا كانت لا تكفي لذلك ولهذا صرنا نحتفظ بالضباط فقط ونترك الجنود ينسحبون نحو الشمال كيفما يريدون وكان الفلاحون والبدو لا يعترضون

سبيلهم بعد أن يأخذوا منهم أسلحتهم وحيواناتهم وما لديهم من أشياء. ولما وصلنا إلى شيخ سعد كان لدينا أكثر من ١٥٠ ضابطاً برتب مختلفة بينهم ٤ زعماء وغيرهم كثير من العقداء والقادة. وبعد وصولنا لشيخ سعد بدأت باقي قوات البدو والفلاحين تتجمع عندنا. وما كدنا نستريح في شيخ سعد حتى جاء بعض الأشخاص من قرية طفى التي تقع على مسافة عشرة أميال جنوبي شيخ سعد ليخبرونا أن بعض قطعات الجيش التركي قد دخلت قريتهم التي لم يكن فيها من الرجال سوى الشيوخ والعجّز والنساء والأطفال وقد كان جميع رجالهم مع الشيخ طلال يحاربون بجانبنا. أخبر هؤلاء الرسل أن الأتراك قد فتكوا بأهل القرية واعتدوا على النساء وقتلوا الشيوخ. فأمر نوري السعيد أن تتهيأ نصف القوة للحركة إلى طفس وكانت قوات البدو والفلاحين بإمرة الشريف ناصر وسرية هجانة بمدفعين وسرية الرشاش (سريتي) ولما وصلنا إلى شمال القرية شاهدنا فيها الأتراك الذين بدأوا يرموننا ببعض طلقات البنادق.

معركة طفس

أمر قائد المفرزة علي جودت الهجانة بأن تأخذ مواضعها وتتقدم نحو القرية من شمالها كما أمر المدفعية والرشاش بإشغال المواضع المناسبة وإسناد تقدم الهجانة فأخذت المدفعية موضعها في الخلف وكنا نقف على أرض تشرف على القرية الواقعة في سهل يمتد من الغرب إلى الشرق ليس فيه أية عارضة فقدرت أن الأتراك سينسحبون من القرية حالما تفتح المدفعية نارها وسيمرون من السهل الذي في شرق القرية. ولذلك تقدمت متستراً خلال تموجات الأرض وأدخلت الرشاشات في مواضع تشرف تماماً على السهل الذي لا بد لهم من اجتيازه

وكان هناك نباتات وأشواك يابسة اختفينا خلفها... وبقينا هكذا مختفين دون أن نفتح النار وبدأت المدفعية بالرمي ثم فتحت الهجانة نارها متهيئة للتعرض وبدأ الأتراك بالانسحاب وأخذوا ترتيبات المقدمة وأسرعوا بالمسير نحو الشرق الجنوبي وكانت المسافة بيننا وبينهم ثمانمائة متر وهي بالنسبة للرشاش الثقيل مسافة جيدة ومهلكة خصوصاً إذا كان الجنود مدربين وبوضع أمين كالذي نحن فيه وكنت قد خمنت المسافات وقسمت الأهداف وبقيت هكذا أنتظر ابتعادهم عن القرية حيث يصبحون في منتصف السهل. فأمرت بفتح النار وكانت مقتلة هائلة أضاعت صوابهم ونظامهم وأسرع من كتب له البقاء بالرجوع إلى القرية بعد أن امتلأ السهل بالقتلى والمجاريح وأعادوا نظامهم في القرية وخرجوا منها في هذه المرة باستقامة الجنوب تحت قنابل المدفعية فبدلت مواضع الرشاشات وما كدت أرمي بعض الحزم حتى ابتعدوا مسرعين واتجهوا نحو الشرق باستقامة درعا. وأرسلت أربعة خيالة إلى القرية التي خلت من الأتراك للتعرف على حالتها ثم اتجهت بنفسي وقبل أن أصل إليها بقليل شاهدت امرأة عجوزاً وخلفها ثلاث صبايا وكنّ جميعهن يبكين وينتحبن فسألت العجوز عن حالة القرية فقالت لي وهى تبكي بأنهم فتكوا بالرجال واعتدوا على النساء وذكرت الاعتداء على النساء بتعابيرها المستعملة وصار هؤلاء النسوة عندما ذكرت العجوز ذلك يلطمن وجوههن ويمزقنها بأظافرهن وينتفن شعورهن، وأكملت طريقي نحو القرية فشاهدت على مسطبة بجانب دكان رجلاً بلحية بيضاء قتيلاً وبقربه آخرون في سن الشيخوخة وبقربهم امرأة مقتولة ملقاة على الأرض وتظهر من خاصرتها يد طفل مما يدل على أنها مطعونة بحربة. وجاء في هذه الأثناء نساء أخريات يخمشن وجوههن ويقلن إن العسكر عملوا كذا وكذا فلم أتمالك نفسي فنهرت حصاني وعدت مسرعاً. وأثناء عودتي أرسلت أربعة

مراسلين إلى الخيالة والذين كانوا قد ابتدأوا بالمناوشة مع الأتراك المنسحبين من القرية وقلت لهم أن يخبروهم وخصوصاً شيخ القرية طلال أن الأتراك فعلوا كذا وكذا بحرمِهم وقتلوا كل من وصلوا إليه من الشيوخ والعجائز. وكانت نتيجة ذلك أن جرت هناك مجزرة أخرى فلم يفلت من تلك القوة التركية إلا القليل كما قتل أثناءها الشيخ طلال وهو شيخ تلك القرية.

إن الاستاذ سليمان موسى ينفي في الطبعة الأولى من كتابه «لورنس والعرب» مسألة وقوع تعديات من هذا النوع في قرية طفس وهو طبعاً ينقل ما علمه عن هذه الموقعة من مصادر مختلفة. أما الحقيقة فهي ما نقلته من مشاهداتي الشخصية وقد علمنا أن هذه القوة كان معها بعض الجنود الألمان والنمساويين ولكن الاعتداءات وقعت من قبل الأتراك وفهمنا من بعض الأسرى أن مصطفى كمال باشا كان معهم وأنه هو الذي أمر بالانتقام من أهل القرية عندما دخلها وعلم أن رجالها كانوا مع الشريف وكنت أنا شخصياً مهتماً كل الاهتمام بهذه المسألة من جراء تأثري مما رأيت بأم عيني خصوصاً عندما رأيت تلك المرأة التي تدلت من خاصرتها يد الطفل. وكاد هذا التأثر أن يدفعني لارتكاب غلطة فظيعة بما كان لدينا من أسرى الضباط وقد أصبحوا نحو مائتي ضابط وأن نوري السعيد علم بالأمر فطلبني القائد علي جودت وتكلما معي في الأمر وعن مغبة ذلك واستثمار الكابتن بيزاني له لتشويه سمعة الثورة. ولكنني بقيت أفتش وأسأل عن مصطفى كمال في كل مكان نستولي عليه. ليس لي أن أجزم بأن مصطفى كمال كان في طفس وبأنه هو الذي أمر بما وقع ولكننا كنا قانعين بذلك. وفي اليوم الثاني من حادثة طفس أتاني بعض جنودي ببغلين محملين «عفشاً» وكان يقود كل منهما جندي تركي وقالا إن هذا «العفش» هو عائد لمصطفى كمال باشا ولما فتحنا العفش

تبين أنه يحتوي على أشياء جيدة بالنسبة لغيره وكان بينها معطف ذو فرو ثمين أهديته إلى نوري السعيد وهو بدوره أهداه للأمير فيصل كذكرى وكان بينها ملابس وأشياء جديدة ومهاميز وغيرها وقد احتفظت بقسم منها لمدة طويلة ولا يزال عندي منها صينية قهوة من فضة احتفظ بها حتى الآن.

وبعد انتهاء معركة طفس عدنا إلى شيخ سعد وهناك علمنا أن العرب دخلوا محطة درعا وذلك عقب انتهائهم من معركتهم مع الأتراك المنسحبين من طفس. وتوجه إليها الشريف ناصر فرفع العلم العربي وبدأ بترتيب الحكومة. وأثناء ذلك كانت الخيالة البريطانية تتقدم بقيادة الجنرال بارو من الجنوب وأراد هذا الجنرال أن لا يعترف باحتلال الجيش العربي ورفع علمه ولكن بعد أخذ ورد سويت المسألة وقبل الجنرال بالأمر.

■ الاستيلاء على درعا ودمشق

وفي صباح يوم ٢٨ أيلول تحركنا من شيخ سعد نحو درعا فوصلنا في ضحى ذلك اليوم فوجدناها مكتظة بالعشائر والفلاحين والإنكليز وألوف من أسرى الأتراك وهم يتجمعون حول مستودعات المحطة وغيرها من المباني ويظهر على أكثرهم الارتياح الممزوج بالألم من جراء تخلصهم من ويلات الحرب من جهة وما يشعرون به من ذل الانكسار من جهة ثانية. في أثناء ذلك رفع العلم العربي على السراي والمباني الحكومية وجرى تعيين ما يلزم من الموظفين كما عين الأمير بهجت الشهابي قائداً للمركز.

وفي ضحى ٢٩ أيلول وصل الأمير فيصل بسيارته من الأزرق بينما كانت المفرزة تتحرك نحو الشمال وإلى دمشق في أعقاب الألوف من الأتراك المنسحبين، وابتداء من درعا توحد العمل مع الخيالة الإنكليز فكنا نتقدم على موازاة السكة الحديدية

نحن من الشرق والإنكليز من غربها وكلما تقدمنا للأمام كانت المسافة التي بيننا تزداد بحيث أصبحنا نتقدمهم بعدة أميال قبل وصولنا إلى دمشق وقبل حركتنا من درعا كان القائد علي جودت قد أفهمنا أهمية وصولنا إلى أي بلد تخلو من الأتراك ورفع العلم العربي عليها دون أن نعطي للإنكليز مجالاً لرفع علمهم وهذا ما جعلنا نتحمس لهذا الأمر ولا ندع للإنكليز فرصة السبق حتى وقوع الهدنة.

وفي ٢٩/ ٣٠ استولينا على قرية المسمية وقضينا بقية الليل فيها حيث استأنفنا مسيرنا وفي الصباح الباكر وصلنا إلى غياض قرية الكسوة بعد مناوشات صغيرة. في الكسوة علمنا أن الشريف ناصر دخل دمشق.

■ دخول دمشق

في ضحى ١ تشرين الأول ١٩١٨ توجهنا إلى دمشق ودخلناها من جهة (بوابة اللّه) آخذين طريق الميدان ـ باب الجابية ـ السنجقدار ـ المرجة. وكان مسير المفرزة على الوجه التالي: قائد المفرزة ومقره، علم اللواء، آمر اللواء ومقره، سرية الهجانة الأولى، السرية الثانية، السرية الثالثة، سرية الرشاش الخفيف، سرية الرشاش الثقيل (سريتي) المدفعية ونقلية المفرزة.

كان الأهالي يتجمعون على طرفي الطريق اعتباراً من بوابة اللّه حتى المرجة بالألوف في الشوارع والأسطحة نساءً ورجالاً وأطفالاً. وكان الجميع يرحبون بنا بمختلف الوسائل بالتصفيق والنداءات والأناشيد والزغاريد والأزهار وماء الزهر يرشوننا بها وهي عادة دمشقية للترحيب. ليس بإمكاني وصف ذلك الشعور الذي كان يتملكني تلك الساعة. كانت دموعي تنهمر وقلبي يكاد يتوقف من الوجيب.

لا بد لكل شخص أن يمر خلال سنوات عمره بلحظات فرح تسكب فيها مآقيه قطرة أو قطرات من دموع الفرح، ولا بد أنه في يوم من الأيام تذوق لذة المشاعر التي ترافق هذه القطرات انها فرحة لقاء حبيب أو تحقيق أمل أو شقيق عزيز. أما هذه الفرحة التي كنا نمر بها بين هذه الألوف من المواطنين فكانت فرحة أخرى أعظم من جميع تلك الأفراح التي تمر بعمر الإنسان وأعتقد أنني لا أتمكن من وصفها ولا غيري يتمكن من ذلك إلا إذا مر بها وتذوقها.

ها إنني أعود لوطني بعد طول الغياب من ساحات لا يؤمل منها الإياب، أعود لأرى بلادي وقد تحررت من كابوس الاستعباد التركي الذي مر عليه أربعمائة سنة وها إنني أجد نفسي مساهماً في هذا التحرير وأبناء وطني يصفقون لنا كمحررين ومنقذين. أسمع من آن لآخر شخصاً من بين الجموع يناديني باسمي، إنه قريب أو صديق عرفني فناداني من قبيل التقدير والتفاخر بأنه يعرف واحداً من هؤلاء المنقذين. كل هذه المشاعر والأفكار كانت تواكبني وأنا أسير فوق صهوة حصاني أمام سريتي خلال هذه الجموع التي كانت تحجبها عني دموع تملأ أجفاني فلا تكاد تسكبها حتى تمتلىء بغيرها.

ولما وصلنا إلى ساحة المرجة شاهدت أخي عمر وطغت فرحتي به على كل شيء فهجم علي ليقبلني ثم سار بجانبي حتى مررنا من أمام مبنى السراي حيث وقفت المفرزة في الساحة التي كانت في جنوب دائرة الشرطة الحالية والتي أصبح في مكانها اليوم مباني سينما دمشق والعباسية والأبنية الأخرى حتى نهر القنوات. ومن هناك افترقت مفرزة المدفعية الفرنسية عنا وتوجهت إلى بيروت وهنا أصدر قائد المفرزة أوامره بتوزيع قوات المفرزة بقصد تأمين الأمن في داخل البلدة على الوجه الآتي:

سرية الهجانة الأولى	في حي الميدان وحواليه
سرية الهجانة الثانية	في حي القصاع وباب توما وباب الشرقي وأطرافه
سرية الهجانة الثالثة	في المهاجرين والصالحية وحي الأكراد
سرية الرشاش الخفيفة	مقسمة حول السرايا
سرية الرشاش الثقيل	في الساحة التي بجانب دائرة الشرطة (مكان بناية البنك السوري الحالي)
قيادة المفرزة	في فندق فيكتوريا

إن الواجب المعطى لكل سرية هو تأمين الأمن في المنطقة التي تشغلها وذلك بمساعدة قوات الأمن من شرطة ودرك. أما الواجب المعطى لي فهو القيام بمساعدة قوات الأمن في مركز العاصمة من باب الجابية حتى العمارة والقيمرية وسوق ساروجة حتى عرنوس وفي الوقت نفسه نكون كقوة احتياطية تساعد أي منطقة تحتاج لمساعدة. وقد أصبح لدي عدد كبير من الخيالة خلاف أعداد الرشاشات يتجاوز الأربعين خيالاً كما أنني قد زدت عدد راكبي الخيل والبغال من الرشاشات مما استولينا عليه من حيوانات الجيش التركي. وضعت حيوانات سريتي في الاسطبلات العائدة لخيالة الشرطة وهي عبارة عن أبنية طينية في الساحة التي ذكرتها في مكان سينما العباسية اليوم نفسه.

وكان الشريف ناصر في سراي الحكومة يرتب أمر تشكيل الحكومة. وكان اللواء شكري باشا الأيوبي الذي كان في سجن الأتراك قد رفع العلم العربي على السراي قبل دخول الشريف ناصر وأعلن نفسه مسؤولاً عن الحكم والإدارة وأبرق لبيروت أن يرفعوا العلم العربي على السراي. ووصل الفريق رضا باشا الركابي فاستلم مسؤولية الحكم وأمر بنصب مشنقة أمام دائرة الحكومة تهديداً لمن تخوله نفسه العبث بالأمن. ولكن

الأمن كان مستتباً تماماً ولم تحدث أية حادثة إخلال بالأمن سوى محاولة بعض بدو نوري الشعلان القيام بالنهب ولكنها أزيلت بسرعة على الوجه التالي:

طلبني قائد المفرزة بحضور حميد الشالجي الذي عيّن قائداً للموقع وأخبرني أن بعض البدو جاءوا من المزة إلى الربوة وهم بطريقهم إلى المرجة عن طريق الربوة وقد نهبوا بعض البيوت ويقصدون النهب في البلد وطلب إلي منعهم وعمل شيء بالنسبة لذلك قلت له إن ذلك يقتضي استعمال القوة وقد يقع قتلى، قال: افعل ما تراه مناسباً لمنع هؤلاء من دخول البلد وإذا أمكن إلقاء القبض عليهم. نصبت الرشاشات على ضفة بردى اليمنى متجهة نحو طريق الربوة وشاهدنا جموعاً من الهجانة والخيالة يتقدمون باتجاهنا. وقد كانت جمالهم محملة بما نهبوه ويتدلى منها الملابس والأقمشة وكانوا نحو مائة بين خيال وهجان وتركتهم إلى أن وصلت مؤخرتهم نحو الطريق الذي يصعد إلى مدرسة التجهيز ولم يكن هناك طريق فأمرت بفتح النار عليهم فسقط قسم منهم وتمكن القسم من الذين لم يصلوا لذلك المحل من العودة بسرعة والقسم الأكبر لم يجد النجاة إلا بالاندفاع للأمام وكان قسم منهم قد وصل إلى أمام الجسر الذي نحن خلفه فصاروا ينادون بالأمان ورموا بأنفسهم من الخيل والهجن التي أخذها الذعر كركابها. جمعنا من لم يصب منهم وجمعنا الخيل والهجن ووضعناهم جميعاً مع دوابهم في الاسطبلات التي ذكرتها بعد أن جردناهم من السلاح. وأبقينا القتلى في مكانهم وبعد قليل جاء طبيب ورفعوا المجاريح وكانوا نحو ١٥ وأبقيت القتلى في مكانهم نحو ساعة موزعين من أمام حديقة التجهيز حتى محطة الحجاز للعبرة وكان في الاصطبل نحو خمسين من الرجال ومثلهم من الحيوانات. جاءني أحد مشايخ الرولة يرجو إخلاء سبيلهم بصفتنا زملاء حرب فطردته

وقلت له أنتم لستم زملاء بل نهابون ولم تواكبونا إلا للسلب والنهب وأمرت بتوقيفه وتجريده ولكنه صار يتوسل فتركته وقلت له إذهب إلى الشريف ناصر وعلي جودت فإذا أمروا بتركهم اتركهم. وبعد مدة قصيرة أرسلوا بطلبي وأبدوا ممنونيتهم وأمروا بإخلاء سبيلهم ففعلت.

عدا هذه الحادثة لم يقع في دمشق أي حادث إخلال بالأمن. وفي اليوم الثاني من دخولنا دمشق طلبني نوري السعيد إلى مقره في أوتيل فيكتوريا وكان معه لورنس وقال إن عبدالقادر الجزائري يقوم بمحاولات للإخلال بالأمن بتعليمات من الفرنسيين وقد أصبح وجوده يشكل خطراً على كيان البلاد واستقلالها فنريد التخلص منه بطريقة غير رسمية، قلت له أتريد أن نقتله قال نعم قلت له إن هذا الأمر يخرج عن نطاق الأوامر العسكرية لأنه قضية اغتيال. فإذا أمرت فإنني آتيك به حياً وإذا أبى الحضور فسأجلبه قسراً وإذا قاوم فسأقتله وآتيك به ميتاً. أما الاغتيال فليس من شأني ولا يدخل ضمن الأوامر العسكرية. وبعد تفكر قليل وافق على اقتراحي وكلفني أن أطلب من مدير الشرطة (محمد علي التميمي) من يرشدني على دار عبدالقادر الجزائري وقال لي إنه يعرف القضية.

وبعد أن أخذت ما أرغب من المعلومات من مدير الشرطة عدت إلى السرية فرتبت الأمر وبينما كانوا على وشك الحركة جاءني رسول يبلغني أن أذهب إلى قائد المفرزة فذهبت حيث بلغني أنهم صرفوا النظر عن ذلك. وهكذا كفاني الله شر هذه العملية التي كنت في المستقبل سأندم على إتيانها بتأثير حماس الشباب وطيشه وعدم تقدير الأمور. لأن المسألة لم تكن مسألة أمر عسكري. فالأوامر العسكرية الواجبة الطاعة تكون ضمن نصوص القانون مثلاً تنفيذ حكم الإعدام بشخص محكوم من قبل المحكمة بأمر موجب التنفيذ أما قتل شخص على هذه

الصورة فهو اغتيال مهما كانت صفة الأمر والمأمور وعقابه. بنظري القتل لا فرق بينه وبين أي قاتل.

لقد جلست مع أخي عمر عقب ما أخذت السرية المحل المخصص لها فحدثني عن الأحوال التي مرت بالعائلة عقب التحاقي بالثورة وعن أن الأتراك ألقوا القبض على والدي (وكان في الستين من عمره) واتهمه الأتراك بأنه يترأس جمعية سرية تعمل في الدعاية للشريف والثورة وأدخل في عضويتها بعض المشايخ من العشائر ليقوموا بمعاونة جيش الثورة ويقول التقرير المقدم بحقه إن أحد الأدلة على ذلك وجود ابنه في الثورة مع جيش فيصل بعد أن فر من الجيش وقال إن مفوض الشرطة قدورة هو الذي قدم بحقه هذا التقرير بعد أن دخل في الجمعية المذكورة، ولما علم أخي الأكبر طه في ثاني يوم عن عزمي على قتل هذا المفوض وكان قد بقي بدمشق ولم يبارحها مع الأتراك نفى لي الرواية عن ذلك المفوض فجعلني أعدل عن قتله ولكنه فيما بعد عاد وأكد لي قائلاً إنه نفاها كيلا أقتله. وكان الترك في البداية قد قرروا أخذ والدي مع الشيخ عبدالرحمن الرافعي (العالم الطرابلسي الشهير) والد صديقي الضابط سمير الرافعي الذي كان أيضاً في الجيش الشمالي وكان قد التحق فاراً من المدينة هو والضابط شوكت العائدي، لقد قرروا سوقهما لمعان لتهديدينا بصلبهما إن لم نسلم أنفسنا ولكن مغادرة جمال باشا الكبير لسوريا أخرت هذا الإجراء وجعلتهم يبدلونه بإبعادهما إلى الأناضول وهكذا ساقوهما مكبلين بالحديد إلى حلب ولكن والدي تمكن من الإفلات منهم من داخل السراي في حلب والوصول إلى مضارب بعض البدو وصار يتنقل بين القبائل لعدة أشهر بصفته شيخاً يقرأ لهم القرآن ويكتب لهم الحجب حتى دخول الجيش العربي إلى البلاد. وحينما كان أخي عمر يحدثني عن ذلك ما كانوا يعرفون عنه

شيئـاً منذ قبض عليـه الأتراك. أمـا أخي فإنـه كان معلمـاً في مدرسة الـرقباء التي نقلت إلى بعلبـك وعندمـا اشتد القتـال في الجبهـة ألغيت وسيق منسوبـوهـا إلى الجبهـة فتخلف مـع من تخلف وبقي مختفيـاً إلى حين دخـولنـا البـلاد ثم أخبـرني عن الحالة السيئة التي وصلت إليها العـائلة التي كـادت أن تصل إلى درجة الجوع وأنه لم يبق شيء من متاع البيت لم يبع سوى النذر اليسير. بقيت أربعة أيام في المركز حيث أقـوم بمساعـدة الشرطة بأمور الأمن وإخراج الدوريات. وفي اليوم الخامس وقد زالت المحـاذير سمـح لي أن أجد محـلاً مناسبـاً للسريـة يؤمن راحـة الجنود والحيـوانات عـلى أن لا أكون بعيـداً عن المركـز فانتخبت ثكنة الخيالة التي خلف ثكنة الحميدية (مبنى جامعـة دمشق اليوم) فانتقلت بسريتي إليها وأثناء ذلك اجتاحت البلاد موجة من مرض الانفلونزا فأصيب بها الكثير من النـاس ومات من جـرائها الألـوف وقـد أصيب أيضـاً عشرات من الضبـاط والجنـود من جيشنا وتـوفي منهم البعض ومن جملتهم المـلازم فـارس مرافق نـوري السعيد وقـد كان رحمـه اللّه من أشجـع ضبـاطنا وأصبت أنـا أيضاً بـالمرض وبقيت في غـرفة بجـانب سريتي يعتني بي أحـد أطبـاء المستشفى العسكـري الـذي في الثكنـة (وكانت سكـة الحميديـة قد أصبحت كلهـا مستشفى) وحيث إنني لم أتمكن حتى ذلـك الوقت من الـذهـاب إلى البيت لرؤية أخوتي الصغار فكـانوا يحضرون لعنـدي مع بقيـة الأهل والأقرباء. وكان يزورني جميع إخواني من ضباط المفرزة الذين لم يصابوا بالمرض وفي مقدمتهم قائـدها عـلي جودت وتحسـين علي وجميل المدفعي وعبدالحميد الشالجي.

■ دخول الأمير فيصل دمشق وبيانه للشعب

وفي ٢ تشرين أول دخل الأمير فيصل إلى دمشق قادماً من درعا

وكـان دخولـه من طريق الميـدان حيث امتطى صهـوة حصـان وحف بـه جميع الخيـالة من دروز وروليه وحـويطـات وشـوام وغيرهم من العشائر وخلفهم راكبو الهجن وكـان عددهم كبيـراً يتجـاوز عدة آلاف. كـان منظـراً رائعـاً خـرجت جميـع دمشق رجالها ونساؤها لتستقبله بالأهـازيج والـزغاريـد المختلفة. وفي اليوم نفسه دخلها أيضاً قائد القوات البريطانية العام الجنرال اللنبي وكان ذلك بعـد دخول فيصـل. وأصدر الجنـرال اللنبي أمراً بصفته قائد قوات الحلفاء بإحالة إدارة سوريـا إلى الأمير فيصـل بصفته قـائداً من قـواد الحلفـاء. وفي ٥ تشرين ثـاني أصدر الأمير بياناً بتعيين رضا باشا الـركابي حـاكماً عسكـرياً عاماً (وأقر الجنرال اللنبي هذا التعيين) وأصـدر الأمير البيـان الآتي وهو أول بيان يصدره بعد دخوله البلاد نثبته لما فيه من معنى ومغزى يدل على عدم الانتباه التام لنوايا الإنكليز الغادرة بالرغم من جميع الدلائل التي كانت تدل عليها:

إلى أهالي سوريا المحترمين،

أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة والمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين نصره الله ثم أبلغكم المواد الآتية:

١ ـ تشكلت في سوريا حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية.

٢ ـ قد عهدت إلى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولباقته.

٣ ـ تتألف الإدارة عرفية لرؤية المواد التي يحيلها القائد إليها.
بناءً على ذلك أرجو من الأهالي الكرام المحافظة على الهدوء والسكون والطاعة للحكومة الجديدة والانقياد لأوامرها والاصغاء لتبليغاتها. وأبلغلكم أنني سأكون تجاه جميع الأفراد المنضوين تحت لواء الحكومة العربية كاب شفوق

كما انني سأكون شديد العقاب على من يتجرأ على مخالفة أوامرها والعبث بقوانينها وإيقاع العراقيل في سبيل مسيرها ورقيها.

ولذلك فإنني آمل من أهالي سوريا الذين برهنوا على محبتهم لنا بترحيبهم بنا بأنهم سيكونون مثالاً حسناً للطاعة والسكون حتى يثبتوا للعالم أجمع أنهم أمة لائقة للاستقلال قادرة على إدارة شؤونها بنفسها. وليعلم جميع الناس أن حكومتنا العربية قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي فهي تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التي قامت باسم العرب وتستهدف إعلاء شأنهم وتأسيس مركز سياسي لهم بين الأمم الراقية والله نسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه خير العرب وإعلاء كلمتهم والسلام.

في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦هـ
الشريف فيصل

وفي اليوم التالي عين الأمير شكري باشا الأيوبي حاكماً على الساحل السوري وكان الأتراك قد أخلوا بيروت في ١ تشرين أول بحيث أعلنت المدينة انضمامها إلى الحكومة العربية كما حذت حذوها المدن الساحلية الأخرى فقصد شكري الأيوبي إلى بيروت ومعه السيد رفيق التميمي ليساعده في تسيير الأمور السياسية وجميل الألشي كضابط ركن لمساعدته في الأمور العسكرية فرفع شكري الأيوبي العلم العربي على سراي بيروت في يوم ٧ تشرين الأول. ثم قصد الأيوبي منطقة جبل لبنان وأعلن في بلدة بعبدا الساحلية التي بالقرب من بيروت وباسم الأمير فيصل إعادة امتيازات جبل لبنان التي ألغاها الأتراك إلى سابق عهدها وعين حبيب باشا السعد متصرفاً على لبنان وعقب ذلك احتلت الحكومة العربية بصورة متعاقبة اللاذقية وانطاكية وبيلان والاسكندرون بواسطة جنود من الدرك

والموظفين وكانت قد عينتهم على جناح السرعة وأوفدتهم لاشغال المدن المذكورة. ثم أرسلت قوة من نحو خمسين خيالاً إلى جهات حاصبيا وراشيا ومرجعيون حتى قرب صيدا. فاحتجت الحكومة الفرنسية على هذا الإجراء لدى انكلترا وطالبت بتطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو وفي ١٠ تشرين الأول ١٩١٨ انزلت فرنسا جيشاً في بيروت كان معداً لذلك.

■ طلائع الغدر الإنكليزي الفرنسي

وتلاحقت الاجراءات بسرعة نحو تحقيق معاهدة سايكس ـ بيكو فأصدر الجنرال اللنبي في ٩ تشرين أمراً بتعيين الكولونيل الفرنسي دي بياباب حاكماً على المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة بالنيابة عن الحلفاء. كما أصدر أمره بإنزال العلم العربي عن دوائر الحكومة فأنزل باحترام ولم يرفع سواه وقيل أن هذه الاجراءات مؤقتة لحين البت بأمر البلاد في مؤتمر الصلح، وعاد شكري الأيوبي إلى دمشق وبقي في بيروت التميمي والألشي للارتباط، وقد زار اللنبي فيصل في دمشق وأبلغه الخطة التي ستتبع في البلاد لحين البت بشأنها في مؤتمر الصلح وهي: إنشاء حكومة عسكرية عربية تبدأ من حدود الحجاز وتضم شرقي الأردن ودمشق وحمص وحماه وحلب ويكون على رأسها الأمير فيصل باسم القيادة الحليفة ومرجعه الجنرال للنبي وعين الكولونيل كورنوالس ممثلاً اللنبي والكولونيل كوس ممثلاً للفرنسيين لدى الأمير لتأمين حسن التفاهم. أما الساحل فسيديره باسم الجيش الحليف ضابط فرنسي. وفلسطين ضابط إنكليزي.

ومن الأحداث التي أغضبت الفرنسيين أشد الغضب مقتل الأمير عبدالقادر الجزائري ونفي أخيه الأمير سعيد إلى حيفا. وقد كان هذان الشقيقان من أنصار فرنسا ومؤيدي سياستها

في سوريا وكان الأمير سعيد يطمع في أن يكون أميراً على سوريا. وكان الأتراك قد نفوا هذين الشقيقين إلى بروسة أثناء الحرب ثم أذنوا للأمير سعيد بالعودة إلى الشام على أثر إعدام الأمير عمر الجزائري. أما شقيقه الأمير عبدالقادر فقد هرب من الأتراك وجاء إلى مكة عقب قيام الثورة العربية فأكرم جلالة الملك حسين وفادته وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ليصرفه في جبل الدروز لتحضيرهم للقيام ضد الأتراك، وحضر إلى العقبة في طريقه إلى جبل الدروز وكان يرفع أثناء مسيره العلم العربي الذي أعطاه إياه الحسين وسار به سير الأمراء إلى أن وصل إلى الجبل ومنه فر إلى دمشق والتحق بالأتراك ثانية متظاهراً بإخلاصه لهم واستولى بذلك على المبلغ الذي أعطي له وخان بذلك الثورة العربية. لقد كان هذا الأمير الشاب مغامراً وشجاعاً وطموحاً جداً وقد قيل عنه أنه كان غير متزن التفكير.
وقد التحق بالثورة ووصل إلى مكة وكان يأمل أن يستفيد من مشاركته هذه لتأمين إمارة سوريا لعائلته ولكنه وجد في طبيعة هذه الثورة ومن أهدافها ما لا يمكن أن يحقق له ما كان يصبو إليه فاكتفى من الثورة بما أخذه من مال وفرَّ به عائداً للأتراك ينتظر فرصة أخرى مؤاتية لإطماعه. ولما دخل الجيش العربي دمشق ظن هو وأخوه الأمير سعيد أن الفرصة قد وافتهما فشرعا بانتهازها بأن برزا للميدان قبل دخول الجيش العربي دمشق واشتركا مع شكري باشا الأيوبي برفع العلم العربي على السراي وهو العلم الذي كان أعطاه الحسين إليه وتمكن خلال ذلك من تقديم نفسه على شكري باشا وحتى أنه أغفل الشريف ناصر عندما دخل دمشق وهو لم يكن ذا معرفة بميول وأهداف مثل هؤلاء الرجال فاعتبره وقبل دعوته إلى داره ولكن انتباه الدكتور أحمد قدري وهو دمشقي ومؤسس حزب الفتاة العليم برجالات البلد وميولهم وأهدافهم قد نبه الأمير ناصر ونوري السعيد وأفهمها أن هؤلاء يعملون ليتصدروا وليوجهوا

الأمور لمصلحة فرنسا وبين لهم خطرهم. وكان الأمير سعيد قبل مبارحة الأتراك دمشق قد راجع وكيل الوالي وطلب إليه سلاحاً لتسليح بعض جماعته من أجل تأمين الأمن فأعطي له ما أراد وهكذا أصبح يشكل خطراً مزدوجاً؛ سياسياً لحساب الفرنسيين وداخلياً مسلحاً لحساب اطماعه في الإمارة. ولكن الأمير ناصر ونوري السعيد تلافيا الأمر بسرعة وأمروهما بالابتعاد عن الساحة والبقاء في بيوتهما ولكن الأمير عبدالقادر ما عتم أن حاول تمرير خطة ما فأدت إلى مقتله، وأما أخوه الأمير سعيد فقد أبعد بأمر من الجنرال اللنبي إلى حيفا ثم إلى مصر.

وقد كان الجنرال اللنبي يقدر ما سيحدث من الاختلافات بين العرب والفرنسيين من جراء رفع الأعلام على البلاد فأمر أن لا يرفع أي علم لأية دولة خلال الفترة التي تعتبر البلاد فيها غير تابعة لدولة ما إلى أن يبت بذلك في مؤتمر الصلح، ولكن العرب لم يصغوا إلى هذا الأمر ورفعوا علمهم على جميع البلاد التي دخلوها لأنهم كانوا متعطشين لرؤية علمهم يرفرف على بلادهم وكان ذلك أحد الأمور التي أزعجت الفرنسيين الذين كانوا في خوف من أن تفلت من أيديهم الطريدة التي كانوا ينتظرون الوصول إليها منذ عشرات السنين، فاحتج ممثل فرنسا السياسي لدى الجنرال اللنبي على احتلال الجيش العربي للمنطقة الزرقاء التي كانت معتبرة من حقوق فرنسا بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو وطلب تخليتها من الجيش العربي. فلم يتمكن الجنرال من رد طلبه وأعطى أمره بتخلية البلاد التي احتلها العرب من المنطقة الساحلية السورية كبيروت وطرابلس وانطاكية والاسكندرون فأخلى العرب تلك البلاد واحتلها الفرنسيون. وقد كان للفرنسيين جيش أعدوه في ميناء حيفا لغرض احتلال المنطقة الزرقاء المخصصة لهم حسب اتفاقية

سايكس ـ بيكو. ففي ١٠ تشرين أول نقل الفرنسيون هذه القوة من حيفا واحتلوا بها ما أخلاه العرب من الساحل السوري. وهكذا بدأوا باغتصاب البلاد وتسلم الحكم فيها الكولونيل دي بياباب وبدأت اجراءات فرنسا بتهيئة البلاد لقبول حكمها وترسيخ أقدامها بجميع الوسائل التي أتقنها الأوروبيون والتي لا نزال نحن نجهلها. ففي ١٤ تشرين أول بدأ تنظيم الوفود لتهنئة الحاكم باحتلال فرنسا لبيروت وبدأ التملق والتقرب من أجل المنافع، وكان في هذه الوفود الماروني والمسلم والدرزي والأرمني واليهودي والأرثوذكسي.

إن هذه الاجراءات واحتلال الفرنسيين للساحل السوري قد ازعجت العرب ازعاجاً شديداً وقد كان ذلك برهاناً ساطعاً واضحاً على سوء النوايا والشروع بتطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو. وبدأ غليان شديد كما ظهرت علائم البغض والكراهية لفرنسا وبعض علائم المقاومة المسلحة مما اضطر الإنكليز والفرنسيين لإصدار تصريح رسمي لتطمين الأمة العربية التي حاربت إلى جانبهم. وفيما يلي صورة المنشور البريطاني ـ الفرنسي الذي نشر في ٩ تشرين ثاني سنة ١٩١٨ في صحف لندن وباريس ونيويورك ومصر. وقد خدع هذا المنشور الكثيرين من العرب لاعتقادهم أنه من الصكوك السياسية التي يعترف بها الحلفاء باستقلال بلادهم. وفيما يلي تعريب نص ذلك المنشور الذي نقلناه عن كتاب مقدرات العراق السياسية الجزء الأول:

المنشور المؤرخ في ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨:

إن الغاية التي ترمي إليها كل من فرنسا وبريطانيا العظمى من خوض غمار الحرب في الشرق من جراء أطماع ألمانيا هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت أعباء استعباد الأتراك تحريراً تاماً نهائياً وتأسيس حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من

رغبة السكان الوطنيين ومحض اختيارهم ولتنفيذ هذه الغايات فقد اتفقت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى على تشجيع ومساعدة إنشاء حكومات وإدارات وطنية في كل من سورية والعراق (وقد حررهما الحلفاء فعلاً) وفي الأقطار التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الأقطار بمجرد تأسيس حكوماتها تأسيساً فعلياً وأن فرنسا وبريطانيا العظمى لا ترغبان في وضع أنظمة خاصة لحكومات هذه الأقطار بل لا هم لهما سوى أن تؤمنا لها الضمانات بمساعدتهما ومعاونتهما الفعلية في تسيير الأمور في هذه الحكومات والادارات التي يختارها السكان والوطنيون سيراً معتدلاً وأن تضمنا سير العدل الشامل الخالي من شوائب المحاباة وأن تساعدها على التقدم الاقتصادي بإنهاض همم الأهلين وتشجيع مشاريعهم وأن تساعدا على تعميم التعليم والتهذيب وأن لا تلجآ للتفريق الذي طالما توخاه الأتراك في سياستهم «هذه هي الخطة التي ستسير عليها الحكومتان المتحالفتان في الأقطار المتحررة».

انتهى

لقد كان لهذا المنشور الذي نشر بمعرفة رئيسي حكومتي إنكلترا وفرنسا لويد جورج وكليمانصو أهداف وغايات عدة: فهو يطمئن العرب على استقلال بلادهم ويظهر لأميركا أنهما يطبقان أحد المواد الأربعة عشر من شروط ولسن بعدم إلحاقهما ما استوليا عليه من البلاد بمستعمراتهما وأنهما نفذا ما أعلناه من تحرير الشعوب وظهورهما أمام الرأي العام العالمي بمظهر القديسين اللذين لا غاية لهما من هذه التضحيات التي قاما بها خلال الحرب إلا خدمة المستضعفين وتحريرهم من المستعمرين، وأخيراً أنهما في هذا المنشور قصدا تثبيت حكمهما على البلاد في شرح ما أخذاه على عاتقهما من إدارة البلاد وتوجيهها.

إن فرنسا التي لم تكن تطمئن تمام الاطمئنان إلى إنكلترا بالرغم من اتفاقية سايكس ـ بيكو خصوصاً وأنه لم يكن لفرنسا جهد أو مشاركة ذات قيمة في تحرير الأراضي العربية

حيث كانت لا تزال تتحمل زخم ضربات الألمان وتئن تحت وطأة احتلالهم لبلادها. لهذه الأسباب كانت تخاف أن تفلت سوريا من يدها بعد ذلك الصبر الطويل للوصول إليها وهذا ما كان يحدو فرنسا إلى الإلحاح على إنكلترا بعدم الابتعاد عن تطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو قبل قيام الجيوش البريطانية بمساعدة العرب باحتلال سوريا وخصوصاً مواكبة الجيش العربي لجيش اللنبي الذي كان يزيد من قلقها ومخاوفها. ومن هذا الخوف وتحت الضغط الفرنسي وقع الفرنسيون والبريطانيون اتفاقية خاصة أبرمت في لندن في ٣٠ أيلول سنة ١٩١٨ أي في اليوم الذي كان الجيشان الإنكليزي والعربي يدخلان فيه دمشق. وقد تقرر بموجب هذه الاتفاقية أن يكون الجنرال اللنبي صاحب السلطة السياسية والعسكرية العليا في البلاد المحتلة على أن تلحق به فرنسا مندوباً سياسياً سامياً بصفة مستشار سياسي خاص لاستشارته في إدارة البلاد الواقعة في المنطقة الزرقاء ولتدبير شؤونها السياسية والإدارية بالاستشارة مع الجنرال اللنبي. كما يحق لهذا المستشار الفرنسي تعيين المستشارين السياسيين للمنطقة (أ) (أي التي ستكون تحت الحكم العربي) ونظمت بموجب هذه الاتفاقية أمور حكم البلاد بما يؤمن اطمئنان فرنسا والاستعداد لتطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو. وكانت هذه الاتفاقية بعيدة عن علم فيصل وفوجىء بها عندما طلب إليه بإعادة شكري الأيوبي من بيروت وتخلية السواحل السورية التي كان قد احتلها الجيش العربي وثم احتلالها من قبل الفرنسيين.

إن المعاملة التي عاملها الفرنسيون والإنكليز لحلفائهم العرب لا ينطبق عليها أي اصطلاح أخلاقي يمت بصلة إلى الشرف الشخصي أو القومي مهما قيل في مقتضيات الأعراف والأخلاق السياسية بالنسبة لما قام به العرب خلال سني الحرب الأخيرة

من أعمال في مساعدة حلفائهم؛ بل من المحقق أنه لولا ثورة العرب على الأتراك لما تمكن الإنكليز من دحر الأتراك والاستيلاء على سوريا وكليكيا ولوقعت الهدنة والإنكليز لا يزالون في جنوب دمشق وسيتضح ذلك جلياً من الفقرة التالية التي جاءت بتقرير الجنرال اللنبي الرسمي الذي نشر في الجريدة الرسمية الصادرة في لندن بتاريخ ١٠ آب ١٩١٨.

حيث قال:

«وإنني أشكر الاخلاص العظيم الذي أبداه جلالة ملك الحجاز الحسين بن علي لقضية دول الاتفاق. ولا أستطيع أن أضبط نفسي من الثناء العاطر على البراعة التي أظهرها سمو الأمير فيصل في القيادة ومعاونته القلبية وعلى أعمال البسالة والمهارة التي عملها الجيش العربي والتي ساعدت جيوش الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على النتائج الفاصلة في الحرب».

ونثبت فيما يلي أيضاً العبارة التي نقشت باللغة الإنكليزية على صخور نهر الكلب حيث نقش جميع الفاتحين عبر التاريخ ذكرى فتوحاتهم عليها وإليك هي:

«إن فيالق فرسان الصحراء بمساعدة جيوش الملك حسين العربية استولت على دمشق وحمص وحلب. اكتوبر ١٩١٨».

الفصل الثالث

١

تحرير سوريا

دخول مدن حمص حماه وحلب

خلال الأيام العشرة الأول من دخول الجيش العربي دمشق كان يقوم بتأمين أمور الأمن في دمشق وضواحيها. وأثناء ذلك كان القسم الأكبر للجيش البريطاني لا يزال في جنوب خطي طبريا ـ حيفا ولم يكن قد وصل منه سوى فيلق الخيالة الذي واكب الجيش العربي من درعا حتى دمشق وعسكر في سهل المزة. فتوقفت بذلك مطاردة الأتراك المنسحبين باتجاه دمشق ـ النبك ـ حمص وبيروت ـ بعلبك ـ حمص. وكان فيصل يستعجل إكمال تنظيمات وترتيبات الأمن وتعيينات الشرطة والدرك وموظفي الأمن كي تتمكن المفرزة الشمالية من استئناف مطاردتها والوصول إلى نهاية حدود سوريا الشمالية. أما الإنكليز فكانوا ينتظرون تجمع باقي قطعات الجيش الإنكليزي وتنظيم خطوط مواصلاتها وتصليح السكة الحديدية ليصبح بالإمكان تأمين تموينها عندما تستأنف الزحف، وكان من رأي فيصل سرعة استئناف الزحف وعدم الإفساح في المجال لتمركز الأتراك في خطوط دفاعية جديدة. وفي النهاية تمكن فيصل من إقناع اللنبي بوجهة نظره بعد أن تعهد له بتأمين اعاشة فيلق الخيالة البريطاني من الأمكنة التي يمرون بها.

وفي ١٠ تشرين الأول زارني قائد المفرزة علي جودت في مقر سريتي وكنت لا أزال طريح الفراش وأعلمني أن المفرزة ستغادر دمشق صباح الغد وأنه بإمكاني أن أوكل أحد ضباطي بأمرها حيث التحق بهم بعد أن أشفى من مرضي ولكنني أبيت ذلك بكل إصرار، وفي اليوم التالي كنا متهيئين للحركة وعندما حضر قائد المفرزة وآمر اللواء تحسين علي وشاهدا وجهي ودرجة الحرارة التي لا يصح معها أن أغادر فراشي ولكنني كنت متهيئاً للحركة أعلموني من قبيل التشجيع أن علي البقاء لأن جميع من كان في المفرزة من الضباط الشاميين قد تخلفوا فقلت لهم إن هذا يجعلني أصر على مرافقة المفرزة التي عملنا معها ويجب أن تكمل الشوط حتى نهايته.

وهكذا أركبوني على الدلول (الجمل) وتحركت المفرزة، ومن الغريب أنني ما كدت أقطع عدة كيلومترات حتى فارقتني الحرارة وشفيت. وخلال وجودنا في دمشق كان قد التحق بنا بعض الضباط العرب المتخلفين من الجيش التركي حيث أكمل بهم ملاك السرايا وكان ممن التحق بسريتي الملازمان عز الدين وحقي خماش.

سارت المفرزة على طريق دمشق ـ النبك ـ حمص يرافقها الشريف ناصر مع من بمعيته من هجانة عقيل وهم نحو ٦٠ هجاناً بقيادة الشريف مطر. كما تحركت الخيالة البريطانية على طريق دمشق ـ رياق ـ حمص. وحصل التماس الأول بين المفرزة وقطعات الألمان المتراجعين بعد اجتيازنا النبك ولكنهم انسحبوا دون أن يشتبكوا معنا. وقد علمنا أن انسحابهم كان محفوفاً بمصاعب كبيرة من قبل الأهالي منذ انسحابهم من دمشق.

■ دخول مدينة حمص

وفي ١٤ تشرين أول دخلنا مدينة حمص وفيها علمت من أحد

معارفنا أن والدي كان عند أحد مشايخ عشيرة الحديديين وهو ينتقل بين البدو متوجهاً نحو دمشق. وكنت أسأل في حمص عن رئيس مفوضي الشرطة الخربوطلي الذي كان يعامل العرب أسوأ معاملة في دمشق. فعلمت أنه رحل عن حمص منذ أمس مع الجيش التركي. وكذلك علمت بمرور مصطفى كمال باشا واتجاهه نحو حلب لأنني منذ موقعة طفس وأنا اسأل عنه لعلني أثأر منه لأهالي طفس.

■ دخول مدينة حماة

وفي ٩ تشرين الأول دخلنا مدينة حماة بعد مقاومة بسيطة من قبل الأتراك وفيها التحق بالمفرزة نوري السعيد. كما التحق بها المقدم علي رضا العسكري وكان قائداً لفوج الدرك في حلب وكان معه أخوه تحسين والرئيس مهدي الرحال والملازم يوسف حنظل، وعلي رضا وتحسين هما أخوا جعفر باشا العسكري. وفي حماة بلغت بأنني ترفعت لرتبة رئيس.

كانت العشائر العربية تلتحق بالشريف ناصر خلال تقدمنا وكانت قطعات الإنكليز متأخرة عنا ولكنها تقدمتنا خلال وقوفنا في حماة لتنظيم أمور الأمن. كان الجنرال الألماني والقائد العام لقوات الأتراك يبذل جهده لجمع فلول الجيش التركي للدفاع في خط رياق ولكنه فشل. ثم قام بتشكيل مجموعتين كل منهما من خمسة آلاف، الأولى بقيادة مصطفى كمال باشا للدفاع على خط حول مدينة المعرة وكلف المجموعة الثانية أن تدافع عن حلب.

وفي ٢٣ تشرين أول تحركت المفرزة من حماة بإمرة نوري السعيد وقد تخلف فيها آمرها علي جودت الأيوبي لمرضه وفي ٢٤ منه اشتبكنا مع الخطوط الدفاعية المقامة على مشارف المعرة بإمرة مصطفى كمال باشا وقد كانوا مشتبكين مع القطعات الإنكليزية قبل وصولنا بحيث أوقفوا تقدمهم، ولكن

بمجرد دخولنا معهم في المعركة انسحبوا. وهكذا تقدمنا واستأنفنا مطاردتهم كما اضطروا لاستئناف انسحابهم. وقد وقع بأسرنا أثناء المطاردة أحد ضباط المؤخرة فوجدنا معه أمراً مفاده أن على المؤخرة أن تنسحب أمام العرب كلما تقدموا وأن لا يجعلوا المسافة بينهم تنقص عن الخمسمائة متر.

وفعلاً صارت مقدمتنا كلما تسرع بتقدمها تجد الأتراك مسرعين بانسحابهم واعتباراً من مقاومة الأتراك في المعرة صار الإنكليز يبطئون في التقدم فتركوا أمر المطاردة إلينا بحيث أصبحت المسافة بين مؤخرتنا ومقدمة الإنكليز تتجاوز الخمسين كيلومتراً.

الاستيلاء على حلب

لقد كان علي رضا العسكري قبل التحاقه بحماة قائداً لفوج الدرك في ضواحي حلب، وبطبيعة وظيفته هذه كانت له صلات ومعرفة بالقبائل التي في تلك النواحي، وأثناء وجود المفرزة في حماة أرسلت دعوات للعشائر للاشترك مع الجيش في مطاردة الأتراك وحين تقدمت المفرزة من حماة كان يتقدمها الشريف ناصر ومعه جموع كبيرة من هذه العشائر. وحيث ان جموع العشائر تتفرق أثناء تقدمها بصورة غير نظامية بين التلال والواحات فكان الأتراك المنسحبون يجدون أنفسهم محاطين بالأعداء من كل الطرق وكأن الجبال والتلال والأحجار تحاربهم فأسرعوا بالانسحاب لا يلوون على شيء.

في ٢٥ تشرين ثاني ١٩١٨ وصل الشريف ناصر ومن معه إلى ضواحي حلب ووصلت بعده المفرزة الشمالية وأخذت مواضعها في التلول الجنوبية المشرفة على المدينة. وتقدم الشريف ناصر ومعه رجاله ومن التحق به من العشائر من الشرق واحتلوا المدينة وسراي الحكومة. وكان الأتراك لا يزالون في غربها، وفي

المساء في ٢٥/ ٢٦ دخلت المفرزة المدينة وبدأنا نسمع أصوات الانفجارات ونرى الحرائق القائمة في المحطة. وفي صباح ٢٦ تشرين أول ١٩١٨ توجهت السرايا كلها إلى المنطقة التي خصصت لها من أقسام المدينة لتأمين الأمن كما جرى حين تحريرنا دمشق.

وصلت مع سريتي إلى ساحة باب الفرج في مركز المدينة حيث عهد إلينا بأمنه ونكون في الوقت نفسه القوة الاحتياطية للسرايا الأخرى، هذا باعتبار أن الأتراك قد أخلوا المدينة فوجدت في غرب ساحة باب الفرج خاناً فهمت أنه كان مشغولاً من قبل الألمان فقررت جعله مقراً لسريتي فأمرت بإنزال الرشاشات أمامه، وفي هذه الأثناء جاءني رجل أرمني يجري نحوي ويقول لي بالتركية إن مصطفى كمال باشا هو الآن في أوتيل بارون وبالنسبة لمعرفتي السابقة بحلب وكون أوتيل بارون لا يبعد عن المكان الذي نحن فيه أكثر من مائتي متر أمرت الرشاشات بالتحميل وقمنا إلى الأوتيل المذكور. ولم يكن في وقتها أي بناء مقابل الأوتيل سوى حديقة الشهبندر التي لا يزال لها بقية للآن، فوضعت الرشاشات مقابل الأوتيل وكانت المسافة بيننا وبين الأوتيل هي عرض الطريق فقط أي لا تتجاوز الثلاثين متراً ووجهنا الرشاشات ولم يبق لإطلاق النار إلا الإشارة فقط وكنت مسروراً لتمكني أخيراً من العثور على «بطل» الفظائع في قرية طفس. وفي هذه اللحظة خرج إلى الشرفة رجل وأشار إليّ بيده نحو طريق السبيل وكانت وقتها الجهة التي في شرقي المحطة خالية من أي بناء ومجال الرؤية مفتوحاً حتى جسر القطار، ولما نظرت إلى الجهة التي أشار نحوها شاهدت سيارة مسرعة ولم يكن أي مجال للرمي عليها لأنها عقب لحظة غابت عن النظر بحيث مرت من تحت جسر السكة الحديدية نحو السبيل. تقدمت من الرجل الذي على الشرفة فأخبرني أن هذه

السيارة كان فيها مصطفى كمال باشا مع ضباط ركنه وقد كانوا في الأوتيل ولو كنا وصلنا إلى محلنا قبل دقيقتين فقط لكانوا وقعوا في أسرنا. إن هذا الرجل هو صاحب أوتيل بارون. وهكذا تخلص مصطفى كمال باشا بأعجوبة أرادها اللّه ربما لخير الأتراك ولخيري أنا بحيث جنبني عملاً لربما كنت بقيت نادماً على فعله طيلة حياتي.

وبعد ذلك فهم أنه لا يزال هناك قطعات ألمانية في ثكنات السبيل فتجمعت المفرزة وتقدمت نحو السبيل وبعد معركة بسيطة انسحب الألمان نحو المسلمية وكانت خيالة الإنكليز قد وصلت إلى السبيل من شرق المدينة. فأخذنا أمراً بالعودة إلى المدينة ثانية للقيام بتأمين الأمن. وفي اليوم التالي أي في ٢٧ تشرين أول بينما كانت خيالة الإنكليز تطارد الأتراك إذ تعرضت لمباغتة قوية من قبل الأتراك الذين جمعوا فلولهم بقيادة مصطفى كمال في خط دفاعي مستحضر فتكبد الإنكليز خسائر كبيرة وقتل منهم أحد أمراء الألوية الذي دفن في المكان الذي جرت فيه المعركة وأقيم له هناك ولمن قتلوا معه تمثال لا يزال قائماً حتى الآن وهو معروف بـ (تل الإنكليزي). وعقب ذلك انسحب الإنكليز إلى الخلف واستنجدوا بالجيش العربي.

■ آخر معركة في الحرب العالمية الأولى

وفي المساء ٢٧ تشرين أول ١٩١٨ بينما كنت أحاول نزع جزمتي التي لم أنزعها منذ حركتنا من حماة وصلني مراسل ومعه كتاب من قائد المفرزة علي جودت الأيوبي يأمرني فيه بالتهيؤ للحركة فأعطيت الأمر للسرية، وعقب ذلك دخل آمر المفرزة وبرفقته آمر اللواء تحسين علي وبلطفه المعروف يعتذر عن إزعاجي بالرغم مما نحن فيه من تعب، وحدثني بالذي حصل بين الإنكليز والأتراك وعن طلبهم منا النجدة وبأنه تقرر

إرسال سريتي لنجدتهم مع إلحاق ١٢ رشاشة هوجكس خفيفة بالسرية وقال إنه أتى بشرطيي خيالة ليكونا دليلين للطريق. وتحركنا وقت العشاء وحينما وصلنا إلى معسكر الإنكليز شاهدت من بعيد نوراً ضئيلاً اخضر ففهمت أنه مقر القوة فتوجهت إليه وكنا نمر من بين الجنود الإنكليز وكان كل منهم ممسكاً بعنان حصانه أو جالساً على الأرض، وكانت الخيل مسروجة والأسلحة بيد الجنود. لقد كنا في ميدان المعركة وكان الخوف ظاهراً عليهم وكل واحد منهم كان يضع على ظهره بطانية لبرودة الطقس والخلاصة كانوا في خوف واضح وكنا كلما مررنا من جانب قسم يسألنا بعض جنوده «شريفيان» فنقول لهم «يس» فنرى علائم الفرح على وجوههم، وبعضهم كان يتمدد حالاً لينام مطمئناً. فلما وصلت إلى مقر القيادة حيث يوجد الفانوس الموجه نوره إلى الجهة الخلفية كان هناك خيمة صغيرة فيها بعض الضباط نهضوا ودعوا الترجمان الأرمني فسألني عما معي من قوة فأخبرته ثم سألني عما إذا كنت أعرف شيئاً عن الموقف فلما أجبته بالنفي أخبرني أن الأتراك يعبئون قواتهم الراكبة في الهضبات التي تقابلهم وأنهم باغتوهم بنيران المدافع والرشاشات والبنادق من مسافة قريبة وأن خسائرهم (أي الإنكلين) كانت كبيرة جداً منها قائد اللواء. ولذلك اضطر اللواء إلى التراجع إلى هذا الخط الذي نحن فيه الآن منتظراً وصول الألوية الأخرى، وسيصل أحدهم غداً ويصل الآخر بعد غد حيث نقوم بالتعرض ثم قال هل بإمكانك المحافظة على جناحنا الأيسر فأجبته بالإيجاب فرافقني بضابط وترجمان حيث أوصلونا إلى جناحهم وأخذت ما يجب من الترتيب وجلسنا للراحة. وكنا نحن العرب ننظر لحركتنا مع الأتراك بغير نظرة الإنكليز، لقد كانت معنوياتنا عالية جداً واعتدنا منذ البداية التفوق على القوات التركية بصورة مستمرة خلال المعارك التي خضناها معهم، وان ما عهد إلينا من أمر

المطاردة منذ دخولنا درعا واستمرار الأتراك بالانسحاب دون توقف وقد زاد ذلك من قوة معنوياتنا بحيث صرنا نستصغر أمرهم خصوصاً وأنهم يستسلمون إلينا بالمئات والألوف بأقل أو دون مقاومة. طلع الفجر وبدأت تتضح لنا معالم الأرض التي نحن فيها والهضاب التي عليها العدو. وشاهدت في اليمين مقر القائد الإنكليزي الذي تكلمت معه في الليلة الماضية فتوجهت إلى الجنرال وفي نفسي ما يدفعني لعمل شيء يجعلنا نتعالى على الإنكليز خصوصاً بعدما شعرت بضعفهم في الليلة الفائتة. وجدت الجنرال ومعه عدة ضباط يشربون الشاي وهو واقف فسلمت فرحب بي باهتمام ثم سألني ماذا عندك قلت له: لماذا يا جنرال لا نقوم بالهجوم على الأتراك فإن فعلنا ذلك سينسحبون حتماً وإلا إذا تركنا المجال لهم لإكمال تحكيم مواضعهم عندها سيصعب طردهم منها، فتبسم وكان له الحق بذلك وأنا أكاد أكون طفلاً بالنسبة لقائد فرقة خيالة له من العمر والتجارب والممارسة ما يتجاوز سني بكثير. قال لي الجنرال: ولكن الهجوم بمثل هذا الموقف الذي أخبرتك عنه أمر ليس بالأمر السهل الذي تتصوره؛ إننا سوف نقوم بالهجوم بعد وصول لوائنا الثالث قلت له: إذاً اسمح لي أن أقوم به أنا. فما انتهى المترجم من ترجمة عبارتي حتى علا الضحك من قبل جميع الحاضرين واقترب الجنرال مني وبدأ «يطبطب» على ظهري مغرقاً في الضحك، وقال: ولكنك رشاش والرشاش كما تعلم لا يهاجم بل يسند الهجوم قلت له: أعرف ذلك ولكن سريتي فيها تشكيل خاص فلدي خمسون جندياً من حملة البنادق غير أعداد الرشاش. قال: أتهاجم الجيش الذي فعل بنا أمس ما أخبرتك به ونحن لواء بخمسين جندياً قال ذلك وهو يبتسم فارتبكت خصوصاً وانني كنت أشعر من خلال كلماته ما يشبه مسايرة الرجل لطفل. فأجبته ولكن أفرضني دورية استطلاع ألا يمكن أن تكون دورية استطلاع متشكلة من

خمسين جندياً. فظهرت على وجهه علائم الجد وقال: ماذا من هذا الاستطلاع. قلت: إن وفقت فهو هجوم وإن تراجعت فهو استطلاع فتبسم ولكن هذه المرة كانت بسمة جد واهتمام قال: وعلى مسؤوليتك. قلت: نعم، ولكن على أن تسند تقدمي بالمدفعية قال: وبالطائرات والرشاشات أيضاً وعلى طول الجبهة. فشكرته فقال: متى. قلت: حالاً. قال: لا بعد نصف ساعة كي يتسنى لي إصدار أوامر الإسناد فأنت تهيأ ومتى بدأنا بالقصف تقوم أنت بالتقدم لاستطلاع جناح العدو الأيمن. وعيرت ساعتي على ساعته وانصرفت إلى سريتي وأخبرت الضباط والجنود بالمسألة وطلبت إليهم التهيؤ ففرحوا فرحاً شديداً لأنهم كانوا مثلي معتقدين أننا سنعمل شيئاً يبز الإنكليز. وبعد ساعة تماماً بدأ قصف الطائرات الإنكليزية على خطوط الأتراك وتبعها قصف المدفعية ثم فتحت الرشاشات المتقدمة نيرانها أيضاً وكان ذلك على طول جبهة العدو وكأن نيران جهنم قد فتحت وغابت مواضع الأتراك عن أعيننا تحت الغبار والدخان. والإنكليز معروفون بسخائهم بل بإسرافهم برمي القنابل فهم يعتبرون هذا الإسراف اقتصاداً بأرواح الرجال. ولم يبق شك أن الأتراك ظنوا أن هناك هجوماً عاماً سيقوم به الإنكليز. شرعت بالتقدم مع جميع السرية من رشاشات وبنادق حيث أمرت الرشاشات بأن تدخل المواضع وترمي عندما تصل للمسافات المناسبة. ودخلنا ضمن مسافات رمي البنادق ولكني لم أشعر بسوى بعض الطلقات المتفرقة وبدأ يخامرني الظن أن العدو يرغب في مباغتتنا بالنار عندما نصل إلى مسافة قريبة منه كما فعل بالإنكليز، ومع ذلك قد وصلنا إلى مسافة أقل من خمسمائة متر ونحن لا نشعر إلا ببعض الطلقات غير المؤثرة التي لا يؤبه لها. وأخيراً وصلنا إلى سفوح الروابي التي كان عليها العدو ولا يزال قصف الإنكليز مستمراً وبدأنا بالتسلق وأنا لا أزال غير مطمئن من المباغتة

وإذا بي أسمع صوت العريف الذي كان على اليسار يقول: سيدي الأتراك منهزمون وبدأ يجري مع جنوده نحو القمة وقف فوقها يلوح بيده وكان القصف الإنكليزي قد انقطع عن الجبهة التي أمامنا منذ دقائق إنما كان مستمراً على طول ما تبقى من الجبهة. وصلنا القمة وشاهدت الأتراك وهم ينسحبون من جميع الجبهة لا من جهتنا فقط وفلولهم لا تزال تتراكض بين منعرجات الهضاب والتلال، وبدأت المدفعية الإنكليزية تصب نيرانها نحو خلف المواضع لرمي المنسحبين. ولما أدرت منظاري إلى الخلف شاهدت الإنكليز قد باشروا بركوب الخيل والدخول في نظام الهجوم الراكب بخطوط متعاقبة وقد كان هذا اللواء لواء رماح (فمن كتائب الخيالة ما هو مسلح برماح وما هو مسلح بسيوف لاستعمالها في الهجوم الراكب) وقد شاهدت مجموعة من الخيل تتجه نحونا وعندما اقتربوا تبين أنهم الجنرال ومقره (واسمه الجنرال ماكندرو) ولما وصلوا لعندنا ترجلوا وحضنني الجنرال وصار يثني علي. قلت له مازحاً: أرجو أن لا تضحكوا مني بعد الآن فاقترب ووضع فمه على أذني وكأنه يسر لي بشيء وقال بصوت مرتفع: نحن نضحك الآن على أنفسنا أما أنت فلك أن تضحك علينا. وبقي الجنرال مع مقره على التل واستمرت الخطوط بالتقدم وكنا نسمع ضوضاء الهجوم ونشاهده من محلنا. إلى أن غابوا عنا وهم في أعقاب الأتراك المنهزمين وكان قسم منهم يعود بالأسرى. وعاد الجنرال إلى المحل الذي كنا فيه ليقوم بأعماله واتصالاته وأمرني أن أعود معه ووصل اللواء الآخر قبل الظهر وتوجه في أعقاب اللواء الذي يتعقب الأتراك دون توقف.

وفي صباح اليوم التالي أي في ٢٩ منه وصل اللواء الثالث كما وصلني أمر من قائد المفرزة بلزوم عودتي إلى حلب، فرفض الجنرال أن يسمح لي بالعودة واستمهلني حيث أرسل إلى نوري

السعيد يطلب إليه إبقائي فأجابه بضرورة عودتي لضرورات تأمين الأمن فسمح لي بالعودة بعد أن شكرني بحرارة وأهداني فرساً من جنس (أنكلوعرب) وهي من الأجناس القيمة، وعلمت فيما بعد أنه بعث بكتاب ثناء وتقدير ورجاء ترفيعي لرتبة أعلى ولكن ذلك لم يحصل لأنه لم يكن قد مضى على ترفيعي لرتبة رئيس أكثر من ١٤ يوماً. وبعد ذلك وخلال زيارة الجنرال اللنبي إلى حلب وفي إحدى الولائم وكنت قد أصبحت مرافقاً للأمير ناصر قال الجنرال ماكندرو للأمير ناصر: لو أنه كان من الجيش البريطاني لأعطيت له أكثر من رتبة ولو كان حديث الترفيع. وأعطى لي بعد ذلك وسام الصليب الحربي الإنكليزي (M.C).

وبعد ثلاثة أيام من هذه المعركة وهي آخر معركة حضرتها وحضرها الجيش العربي في الحرب العالمية الأولى وقعت الهدنة وذلك في ٣١ تشرين أول سنة ١٩١٨ ولولا هذه المعركة ولو بقي الأمر على قرار الجنرال بتأجيل مهاجمة الأتراك بعد ثلاثة أيام أو أربعة أي إلى ما بعد وصول بقية ألوية فرقته أقول: لو حصل ذلك لكانت وقعت الهدنة والأتراك لا يزالون في مشارف حلب ولكانوا طالبوا بها كما حصل ذلك بالنسبة للموصل.

٢

استسلام القوات المحاصرة في المدينة المنورة

لقد سبق وبينا أن الجيشين الجنوبي بقيادة الأمير علي والشرقي بقيادة الأمير عبدالله كانا يقومان بمحاصرة المدينة، وكان الجيشان المذكوران مثابرين على مقارعة القوات التركية التي كانت بقيادة فخري باشا وتخريب الخط الحديدي والمحطات. ولما سقطت دمشق بيد الجيش العربي ومن بعدها حلب وعقدت الهدنة بين الدول المتحاربة في ٣١ تشرين أول ١٩١٨ ورد إلى فخري باشا عدة برقيات لاسلكية من الآستانة تنبئه بذلك وبوجوب تسليمه، ولكنه لم يصدقها وبقي مستمراً بالحصار وقد قام سمو الأمير علي في أوائل تشرين الثاني ثم في أواخره بطلب التسليم من فخري باشا فأبى ذلك واستمر في عناده وتكرر هذا الطلب مرة ثالثة، وفي كانون الأول أتى من قبل وزارة الحربية التركية موظف مع أوامر رسمية تقضي بوجوب التسليم للعرب. فأبى ذلك مدعياً أن لهذه البلدة قدسيتها الإسلامية وأنها تتعلق بمقام الخلافة مصراً على تلقي الأوامر من مقام الخليفة. وعلم الضباط الذين في الجيش المحاصر كل ذلك وبدأ التذمر يعم الضباط وكان في مقدمتهم رئيس ركنه كورامين بك ففر مع سريتين من المشاة والتحق بالجيش العربي وتعاقب الفرار من الجيش التركي إلى الجيش العربي، ففي ليلة ١٦ كانون الأول

فر منهم سريتان أخريان مع رشاشتين وبعض المدافع. وكلما تقلصت قوة فخري باشا من جراء فرار جنوده اضطر إلى تضييق الجبهة التي كان يشغلها فأخلى مواقع العلاء وبئر الدرويش ثم فرت منه سرية أخرى أثناء انسحابه من بئر الدرويش. ثم تعاقبت القطعات التي كانت مرابطة في مواقع عاص تبه وبشيك تبه وجبل جهنم والتل الأحمر وما يجاورها على الفرار، وحيث إنه لم يبق لديه قوات تكفي للدفاع على خط واسع اضطر إلى ترك مواضع دفاعه الأولية وانسحب إلى خط الدفاع الثاني الذي كان يبلغ طوله ٨ كيلومترات فقط.

ومع ذلك فإنه شعر أن ما تبقى لديه من القوة أصبح ضئيلاً لا يمكنه من الدفاع، وخشي من النتائج التي تحصل بوقوع الهجوم عليه وما يترتب على ذلك من خسارة. فقرر الاستسلام وأرسل في تاريخ ٤ كانون الثاني ١٩١٩ إلى بئر الدراويش هيئة مخصوصة لمواجهة الكابتن غارلند الإنكليزي ليعقد معه اتفاقية التسليم لا مع العرب. وعقدت هذه المقاولة بتاريخ ٧ منه ورجعت الهيئة التركية يوم ٨ منه، وفي ١٠ منه حضر فخري باشا إلى بئر الدراويش مسلماً نفسه إلى سمو الأمير علي، وفي ١٤ منه وصل من الآستانة ناظر العدلية وبرفقته زعيم عسكري حاملين إرادة الخليفة بالتسليم ولكن بعد فوات الوقت ووقوع التسليم.

ونقلت هذه القوات على دفعتين إلى ينبع البحر ومنها إلى معسكرات الأسر في مصر. وبهذا تكون المدينة قد بقيت محاصرة لمدة شهرين و١٩ يوماً من بعد وقوع الهدنة بين الأتراك والحلفاء.

أما هذه القوة التي كانت محصورة في المدينة فكان موجودها في أواخر كانون الأول سنة ١٩١٨: ٥١٩ ضابطاً و١٠١٤٠ جندياً و١٤٩٧٦ بندقية و١١٩٨ دابة.

٣

الجيش العربي في تحرير بلاد الشام

إن الأحكام التي نزلت بالملك حسين وأولاده وعائلته وجيشه من قبل بعض الناس كانت أحكاماً غير عادلة، فبعضها يعطيه أقل مما يستحق من تقدير وفي بعضها ما لا يستحق من نقد، إن كان بالنسبة لثورته التي قام بها أو حروبه. وفي هذه الفقرة سأوجز ما قام به الجيش العربي الثوري. لقد كان لهذه الثورة العربية أو لهذه النهضة أعداء كثيرون وأصدقاء قليلون، فقد كان جميع الأجانب أعداءً لها بمن فيهم الإنكليز الذين عملوا في البداية لإثارتها، فلما قويت وبرزت خافوا أن تكون عثرة في سبيل أطماعهم والوصول إلى غاياتهم وأهدافهم التي كانوا يعملون لها بالاتفاق مع الفرنسيين. أما البلاد الإسلامية كالهند والأفغان حتى مصر وإيران فكانت لا تنظر إليها بعين الرضا والارتياح وتعتبرها ثورة على الخليفة وانشقاقاً على الإسلام. أما الشعوب العربية نفسها التي كانت تحت وطأة الحكم التركي تعاني مساوئه وتشعر بالروح العنصرية الطورانية التي أصبحت واضحة في معاملتهم للعرب، حتى هؤلاء العرب من سوريين وعراقيين كان بينهم الكثيرون الذين لا يرون في كل ذلك مسوغاً يكفي لقيام الحسين بثورته على الخليفة وقتال الأتراك المسلمين إلى جانب الإنكليز. أما الأقطار العربية الأخرى التي كانت مستسلمة

لاستعمار عدة دول غربية، فبالرغم من أن وقوعها تحت وطأة الاستعمار كان بسبب إهمال الأتراك واستهتارهم وعدم الاهتمام بهم فكانوا لا يزالون يتأملون بالخلاص على يدهم بالرغم من أن الثورة قامت وعملت لخدمة العرب وتحريرهم واستقلالهم، بينما كانت تلك الأقطار كمصر وليبيا والمغرب وتونس والجزائر والسودان تقدم مئات الألوف من أبنائها ليقاتلوا تحت رايات مستعمريهم ولمصلحتهم. ولكن يجب علينا أن نعترف بالحقيقة والواقع أنه لم يكن بإمكان هذه الشعوب المسلمة منها أو العربية أن تكوّن فكرة صحيحة عن الثورة العربية لأنها كانت تحت وطأة دعايات تنصب عليها من كل جانب، وكلها تصور هذه الثورة وكأنها تعمل لخدمة الإنكليز وبأموالهم ولمصلحتهم، فالفرنسيون يسمونها ثورة حجازية عناصرها من البدو قام بها الحسين من أجل المحافظة على إمارته وللحصول على الأموال الطائلة من الحلفاء لقاء خدمتهم، والإنكليز أيضاً يسمونها ثورة حجازية وكتابهم ينشرون الدعايات أن لورنس الإنكليزي هو بطلها الروحي والعقلي وهو الذي يقودها ويسيرها وباقي الأمم المتحالفة معهم يصدقون هذا ويتلقونه كحقيقة؛ وأهم من كل ذلك الدعاية اليهودية والصهيونية العالمية التي كانت متفقة مع الحلفاء على تأسيس وطن قومي لها في فلسطين وتأسيس هذا الوطن لا يمكن أن يتلاءم مع كيان عربي قوي ولذلك فإن دعاياتهم كانت أنشط الدعايات المنظمة من أجل الإقلال من شأن النهضة العربية وشأن قائدها الحسين بن علي.

أما الطرف الثاني، الألمان والأتراك، فقد أعلنوا عنها أنها عصيان بتحريض الإنكليز غاية الحسين منه الحصول على الذهب، وأما عناصرها فهم البدو الذين لا يعرفون سوى النهب والسلب. كان الحسين بالنسبة لمقام عائلته بين العرب وبالنسبة

لمقامه كأمير مكة وبالنسبة لذلك الظرف كان وحده يتحمل مسؤولية الكلام باسم العرب وعلى عاتقه تقع مسؤولية الدفاع عنهم وكان معروفاً عنه الولاء للسلطة العثمانية وقد عمل جميع جهده خلال سني الحرب الأولى ليقنع الأتراك بمغبة سياسة الظلم والانتقام التي كانوا ينزلونها بالعرب ولكنه فشل واستمر الأتراك على ذلك حتى اضطر إلى الثورة.

بدأ الإنكليز بمفاوضته منذ اليوم الثاني لدخول الأتراك الحرب بجانب ألمانيا، والحسين يرفض مفاوضتهم والأتراك يدفعونه دفعاً إليها بتنكيلهم بالعرب الذي كان يزداد يوماً عن يوم.

لقد كان البدو عماد الثورة حين إعلانها وقد كان تحت قيادة الأمير علي في المدينة قوة من مائتي هجان من مختلف العشائر الحجازية من عقيل ومطير وهديل وغيرهم وهي القوة التي كانت متهيئة للذهاب إلى جبهة سيناء بناء على إلحاح الأتراك؛ وهذه القوة كانت نواة لألوف المتطوعة من بدو الحجاز الذين لبوا دعوة الثورة. أما حركة الاستيلاء على مكة وجدة والطائف فقد جرت أيضاً من قبل العشائر بقيادة الأشراف وغيرهم من المشايخ. وبدأ الجيش النظامي يتكون عقب الاستيلاء على جدة وتشكيل بداية قطعة نظامية مما غنموه من مدفعية الأتراك ومن بعض الجنود العرب. وعقب ذلك أي بعد استسلام جدة بأحد عشر يوماً وصل إليها أول قوة معاونة أرسلها الإنكليز إلى الثورة وهي عبارة عن بطارية مدفعية صحراء وبطارية مدفعية مكيسم وكان مجموع جنودهما ٣٢١ جندياً وضابطاً ثم التحقت أول قافلة من الضباط والجنود العراقيين الذين تطوعوا من معتقلات الأسر في الهند وكان عددهم ١٢٩ ضابطاً و٢٦٠ جندياً ثم استمر بعد ذلك التحاق المتطوعة من شباب العرب على طريقة التطوع من المعتقلات أو الالتحاق مباشرة بالثورة ولم يمض عدة أشهر على قيام الثورة حتى أصبح الجيش

النظامي عمادها الذي ترتكز إليه والقوة الرئيسية التي تسير بها.

وتوزع خلال ذلك الجيش النظامي إلى ثلاثة جيوش كل واحد منها بقيادة أحد أنجال الحسين، علي وعبدالله وفيصل، ولما انتقل جيش فيصل الذي سمي بالجيش الشمالي إلى الشمال واستولى على العقبة وأنيط به أمر التقدم شمالاً أصبحت جميع المتطوعة من ضباط وجنود تلتحق بهذا الجيش وبدأ يكثر عدده ويتضخم يوماً بعد يوم حتى أصبح في خلال الأشهر الأخيرة من الحرب ٨٠٠٠ ضابط وجندي موجود جيشي الأميرين علي وعبدالله.

لقد كان الجيش النظامي يعمل في جبهتين الأولى بواسطة جيشي الأميرين علي وعبدالله اللذين يقومان بمحاصرة المدينة وكان مجموع ما فيها من الجيش التركي ٥١٩ ضابطاً و١٠١٤٠ جندياً و٦٣ مدفعاً مختلف الأنواع مقسماً إلى ١٢ فوج مشاة مع رشاشاتهم وفوجي درك سيار وسرية هجوم والسرية السلطانية و٣ سرايا هجانة وسريتي بغالة. أما الجيش الشمالي فقد كان يشغل من الجيش التركي الفيلقين الثاني والثامن والحاميات المتمركزة على الخط الحديدي بين عمان ـ معان ـ تبوك ومجموعها ما لا يقل عن ١٤ ألف جندي وبذلك يكون الجيش العربي قد اشغل من القوات التركية نحو ٢٥ ألف جندي وضابط.

وإذا أضفنا إلى هذا المجموع ما تكبده الأتراك من قتلى وأسرى ومجاريح فيصبح المجموع المقدر ضخماً، ولو لم تكن الثورة وجيشها الذي يشغلهم لكان أضيف كل ذلك إلى قوات الجيش المدافع أمام الجيش البريطاني ولكان عدده تضاعف عما كان عليه وتمكن من الصمود أمام الإنكليز ومنعهم من التقدم

والاستيلاء على سوريا. لقد قاوم الأتراك مقدار سنة كاملة بعد استيلاء الإنكليز على غزة حيث أوقفوا الجيش البريطاني في جبهة نابلس فلو أضيفت إليهم القوات التي كان يشغلها الجيش العربي لما تمكن الإنكليز من الاستيلاء على غزة.

لقد وصف اللورد سيسل وزير الحصار البريطاني أعمال الثورة في مجلس اللوردات البريطاني فقال: إن قوات الترك في الحجاز كانت تبلغ ٢٠ ألفاً من المقاتلين عند إعلان الثورة. وذكر التاريخ البريطاني الرسمي بأن العرب كانوا يواجهون ٢٥ ألفاً من جنود العدو. وقال لورنس ضابط الارتباط السياسي في الجيش الشمالي «وعندما جاء السلم كنا قد أخذنا ٣٥ ألف أسير وقتلنا وجرحنا وأنهكنا ما يعادل هذا العدد. وقال الجنرال كلوب: إن حامية الترك في الحجاز كانت ١٥ ألف مقاتل عند إعلان الثورة فأسر العرب منها ستة آلاف ولكن جاء إلى تلك الحامية ثمانية آلاف بدلاً منهم وقد قدر كلوب القوات التي شاغلها العرب بـ ٣٠ ألف مقاتل. إن المفرزة الشمالية من الجيش العربي هي التي تحركت على مؤخرة الجيش التركي عندما قام اللنبي بهجومه الكبير فزعزعت بذلك دفاع الأتراك، وهذه المفرزة هي التي جعلت انسحاب الجيش التركي من جبهة نابلس ينقلب إلى هزيمة بتلقيها جموع المتراجعين على خطوط انسحابهم، ولولا وجودها في هذه الخطوط وقيامها بتخريب الخط الحديدي لتمكن الجيش الرابع الذي كان يرابط في عمان والسلط ومعان من التراجع بصورة منظمة ولكان وصل مع الجيوش المتراجعة إلى خطوط الدفاع في جبال الكسوة. إن هذه المفرزة من الجيش العربي هي التي أخذت أكثرية الجيش التركي المنسحب كأسرى وهي وحدها التي طاردت فلولهم من درعا حتى شمال حلب ولم يكن الجيش البريطاني سوى مواكب لها ليس إلا. لقد قرر الجنرال اللنبي بعد دخول دمشق

أن لا يقوم بمطاردة الأتراك منتظراً وصول مشاته التي كانت لا تزال بعيدة عن درعا، فالأمير فيصل هو الذي أصر على المطاردة وقام بجيشه بها ولولا ذلك لوجد الجيش التركي الوقت الكافي لتنظيم عدة خطوط دفاعية، ولما كان جيش اللنبي وصل لأكثر من حماة عند وقوع الهدنة. وللفائدة ننقل فيما يلي ما كتبه السيد سليمان موسى في كتابه «لورنس والعرب» في بيان جهود جيش الثورة. والسيد موسى قرأ الكثير مما كتب عن العرب وثورتهم وبكل ما يتعلق بتاريخهم الحديث وقد عني بتدوين مؤلفاته علاوة على ما قرأه من المؤلفات باتصالاته الشخصية بالكثيرين من الأشخاص الذين عاشوا أو حضروا تلك الوقائع وكان يتوخى بذلك الحصول على الحقائق من منابعها الأصلية.

قال سليمان موسى:

«وتدل الاحصاءات الموثوقة أن جيش الأمير فيصل كان يشاغل حوالى نصف القوات التركية المرابطة إلى جنوب دمشق. وذلك خلال الأسابيع الحرجة التي سبقت هجوم اللنبي. وقد كانت هذه القوات مؤلفة من الفيلق الثاني والفيلق الثامن والحاميات المتمركزة في محطات السكة بين معان وعمان ومجموعها لا يقل عن ١٤ ألف بندقية وسياف. وكان المجموع العام للقوة التركية بين محاربين وأفراد الأسلحة المساندة جنوب دمشق مائة ألف يواجه العرب منهم عدداً يتراوح بين ٤٠ ـ ٤٥ ألفاً. أما الجيش العربي فقد كان المجموع العام لقواته النظامية حوالى ثمانية آلاف ولم يكن عدد العسكريين الأجانب العاملين مع هذا الجيش من إنكليز وفرنسيين وهنود ومصريين يتجاوز مئة جندي وضابط.

ولم يكن يعاضد العرب في وقفتهم هذه أمام تلك القوات سوى قوة الجنرال تشايتور المرابطة في أريحا وهي لم تكن قوة ضخمة ذات فعالية.

ونتيجة لوقفة العرب هذه استطاع اللنبي أن يحشد ثلاثة فيالق مجموع قوتها الضاربة ٦٩ ألفاً بين سياف وحامل بندقية. مقابل النصف الثاني من القوات التركية التي ذكرناها آنفاً.

فإذا أضفنا الجيش الذي كان يشاغله العرب في الحجاز والجيش الذي كانوا يشاغلونه في الأردن، تبين أن مجموع القوة التي كان العرب يشاغلونها لا تقل عن القوة التي كانت تشاغل البريطانيين. مع الفرق الهائل الذي لا وجه للمقارنة فيه بين عدد البريطانيين ومعداتهم وإمكاناتهم ومواردهم. وبين عدد العرب ومعداتهم البسيطة وامكاناتهم المحدودة.

أضف إلى هذا كله الفرق التركية الثلاث في اليمن وجنوب الجزيرة العربية التي قطعت ثورة العرب عليها سبل الاتصال المباشر مع مركز اعدادها وتموينها. والتي اضطرت للبقاء جامدة الحركة خلال سنوات الحرب.

ومن هذه الأرقام نستطيع أن ندرك قيمة المساهمة العربية في نجاح جيش اللنبي. خصوصاً إذا عرفنا أن الجيش الرابع بأكمله كان يستطيع الانسحاب بانتظام لولا وقوف العرب في وجهه والهجوم عليه هجمات متوالية حتى تبدد وتفرق شذر مذر. وذهب أكثر أفراده بين أسير وقتيل.

لقد اعترف النقاد العسكريون. ومنهم الكابتن ليدل هارت بأهمية الجيش العربي والموقف الذي وقفه والفعالية التي قام بها في تحقيق النصر الذي أحرزه اللنبي ولكن النقاد الغربيين نسبوا الفضل في ذلك للورنس قائلين أنه كان روح الحركة في الجيش وأنه كان العقل المدبر والقوة الدافعة. ومن المؤسف أنهم توصلوا إلى هذا الاستنتاج دون تمحيص للحقائق ودون توخ للعدالة والانصاف.

ودلت أقوال قادة الجيوش المعادية على ما كان للثورة العربية من أهمية فقد قال أحمد جمال باشا: إنه لولا الثورة العربية لما تمكن الإنكليز من إحراز ما أحرزوه من انتصارات في فلسطين. وقال ليمان فون ساندرس: إنه كان من أثر الثورة في نفوس العرب ان القوات البريطانية الزاحفة نحو القدس وجدت نفسها تحارب في بلاد صديقة بينما وجد الترك أنفسهم (وهم يدافعون عن مناطق تابعة لهم) يقاتلون بين ظهراني شعب يعاديهم عداء لا شك فيه. وقال إنه كان ينوي الانسحاب إلى الوراء قبل الهجوم البريطاني الأخير للمرابطة في مراكز دفاعية أفضل. ولكنه لم ينفذ الفكرة لأنه

كان لا بد للترك في تلك الحالة أن يتركوا خط سكة حديد الحجاز ولأنه لم يعد باستطاعتنا إيقاف تقدم الثورة العربية في مؤخرة جيشنا».

انتهى قول سليمان موسى

وقبل أن أختم هذا البحث أحب أن أسجل ما بينه صاحب كتاب مقدرات العراق السياسية وهو أول من التحق بالثورة العربية وكان أول معتمد لجلالة الحسين في مصر أن ما خسره العرب أثناء الثورة بين قتلى وجرحى كان نحو خمسة آلاف وإذا لاحظنا عدد المشتركين في الثورة نراه يشكل نسبة كبيرة.

التعليق على الثورة العربية الكبرى

إن التاريخ لم يدون بعد الأهمية الحقيقية والخدمات العظيمة التي أدتها الثورة العربية الكبرى للأمة العربية بأجمعها وباعتقادي أن تاريخ هذه الثورة وإعطاءها ما تستحق من تقدير سيتم خلال الربع الأول من القرن المقبل، وعندها سيقرأ الأولاد والأحفاد فيما يدون عنها أنها كانت الصيحة المدوية الأولى التي أيقظت العرب وأتاحت لهم أن ينهضوا من سباتهم العميق الذي كانوا يغطون فيه منذ مئات السنين. لقد كانت درجة الاستكانة والاستسلام للسيطرة الخارجية تختلف بين قطر وآخر، وذلك على قدر ما يتمتع به ذلك القطر من تقدم ووعي كما أنها كانت تختلف بما تتأثر به من أسلوب المستعمر الذي كان يتحكم بها.

فأقطار شمالي أفريقيا العربية كانت ترزح تحت وطأة استعمار فرنسي وإيطالي وإنكليزي يرتكز كل منها على ثلاثة قوائم وضعت حسب مختطات مدروسة تطبق بعنف وتصميم واستمرار وهي التفقير والتجهيل والتخويف. فكان الخوف

والجوع والجهل لا يترك لهم مجال التفكير في الخلاص. أما الجزيرة العربية فاليمن كانت منكمشة على نفسها في داخل أرضها تعيش متأخرة مائتي سنة عن العصر الإسلامي الأول، لا تدري بما يجري في هذا العالم. يحكمها أئمة تنطبق عليهم الحكمة القائلة: كما تكونوا يولى عليكم. أما قلب الجزيرة العربية وجنوبها وخليجها الذي لم يكن حكم الأجنبي قدمهم إلا بقدر، فكان الجهل ومشتقاته من فقر ومرض قد أعمى قلوبهم وأبصارهم ثم جاءهم المرض الإنكليزي من وراء البحار ليكرس فيهم هذه المشتقات ويتعهد ما ينمو من خلالها عادة من فرقة واختلاف وخنوع. أما الأقطار العربية الأخرى كالحجاز والعراق والشام فقد كانت تحت حكم الدولة العثمانية والحكم العثماني يختلف عن الحكم الاستعماري الغربي.

فالعثمانيون أسسوا دولتهم منذ البداية على روح إسلامية متعصبة، وعندما أعلنوا سلطانهم خليفة للمسلمين اعتبروا جميع الرعايا على اختلاف قومياتهم وأجناسهم رعايا لهذا الخليفة ونظرياً متساويين في الحقوق والواجبات.

إن هذه الوحدة الروحية والإدارية في الحكم لو أنها سارت في طريقها الصحيح تتعقب خطوات الركب العالمي المتطور مع مراعاة واقع العناصر المختلفة في البلاد كل حسب استعداده وإمكاناته بحكم لا مركزي يحترم اللغة والتقاليد والعادات في التشريع والإدارة. لو أنهم فعلوا ذلك لما تفرقت هذه الوحدة وهذه القوة الهائلة ولما طمعت باقتسامها الدول الغربية وجعلوها شذراً مذراً.

لقد كان الحكم العثماني مبنياً على الجهل والتعصب فتخلفوا بجهلهم وجعلونا نتخلف معهم. لقد كانت سوريا في موقعها

الجغرافي النافذة التي هب منها النسيم الذي حمل من خلالها نور المعرفة والعلم إلى الغرب من فوق أمواج هذا البحر الأبيض. وبالرغم من صروف الدهر ونكبات الزمن بقيت هذه النافذة مفتوحة لتتلقى هذه المرة عودة ذلك النسيم يحمل في طياته ذلك النور بعد أن اتسع وتطور. وحينما بدأ العرب بالوعي والنهوض أعلن الدستور العثماني وبإعلانه بدأ الأتراك بتبديل منهجهم القديم من شبه المشاركة إلى التحكم والتتريك وقد سعى العرب لإقناعهم بحسن نواياهم ومغبة عملهم فخادعوا حتى إذا ما وقعت الحرب العامة شرعوا بالتنكيل والتتريك والانتقام، وهكذا لم يبق أمام العرب سوى طريقين لا ثالث لهما إما الخنوع والاستسلام لسياط الجلاد وهو يسير بالبلاد في طريق لا بد من أن يعرضها للوقوع في يد الاستعمار كما وقعت غيرها من البلاد العربية، أو أن يثوروا أو يتبعوا طريقاً يأملون الوصول منها إلى إنقاذ البلاد، فاتبعوا الطريق الثانية وعلى وعورتها وخطورتها. لقد ثبت أن الشريف حسين كان مخلصاً للأتراك بدليل تمكسه بأحكام الدين وتبعيته للخليفة وكان في الوقت نفسه محباً لقومه العرب يشعر بصفته أميراً للحرمين وممثلاً لقومه وبمسؤوليته تجاههم فكان يقدر أنه لم يكن للعرب ممثل ومرجع ومنقذ سواه. فالأتراك ما أحسنوا تقدير موقفهم من العرب، ولما طالبهم الحسين بتحسين معاملتهم غضبوا وحنقوا وتجبروا وبذلك أحرجوه فأخرجوه إلى الثورة.

تشكلت خلال السنوات الأربع بين ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ أثناء مطالبة العرب بحقوقهم أربع عشرة جمعية وحزباً سياسياً ضمت المئات من عقلاء العرب وشبابهم. فلما وقعت الحرب العالمية وأوقف هؤلاء نشاطهم أصبحوا متفرقين بشتى البلاد، وعندما جنح الأتراك إلى سوء معاملة العرب بدأوا يفتشون عن

ملجأ يأملون بواسطته الخلاص فلم يجدوا أمامهم سوى الحسين.

فالأتراك هم الذين أحرجوا العرب فساقوهم إلى الشعور بقوميتهم ثم الى تشكيل جمعيات وأحزاب وبعدها الى الكراهية والعداء، وأخيراً إلى إجبارهم للالتجاء إلى شريف مكة وتحريضه. فالأتراك هم الذين دفعوا العرب إلى الفرقة والعرب هم الذين حرضوا الشريف حسين على الثورة. ومع ذلك، فإن فرقة العرب عن الترك كان لا بد منها فلو لم تقع خلال الحرب العالمية الأول لوقعت خلال الثانية أو بعدها. وأهم نتائج الثورة العربية أنها كونت للعرب شخصية عالمية دولية وسجلت لدى العالم مشاركتها بالمجهود الدولي كأمة ودولة، وكانت الثورة بمثابة الخطوة الجبارة الأولى والعامل والمؤثر الأول في تأسيس الكيان العربي، وما هذه الكيانات والدول العربية المستقلة التي تكونت عقب الحربين العالميتين سوى الخطوات التالية التي أعقبت خطوة الحسين وثورته على الأتراك وخلافتهم. لم تكن الثورة مؤيدة من سائر المسلمين ولا من أكثرية العرب أنفسهم لأن المسلمين غير العرب ما كانوا يعلمون شيئاً عن أحوال الأتراك ومعاملتهم لغير الأتراك خصوصاً بعد إعلان الدستور هذا علاوة على كراهيتهم لمستعمريهم الغربيين. أما قومنا العرب فبصورة عامة كانوا جهلاء والجهل أخ شقيق للتعصب فما كانوا ليقدروا ما كان في صالحهم أو طالحهم من الأمور إلا بقدر ما له مساس بشخص كل منهم. إن الحسين كان يشعر بمسؤولية تجاه قومه، ومن حسن حظه وحظ العرب أنه كان رجلاً قوياً جباراً أهلاً لتحمل هذه المسؤولية. مسؤولية الثمانين مليون من العرب لم يكلفه بحملها سوى عدد قليل منهم، ولكنه قدر الأمر حق قدره فتقبلها ووضع مقدراته ومقدرات أبنائه على كفة القدر وتجاوز ما يمكن أن يتهمه به المسلمون وأكثرية أبناء

قومه من العرب. ففتح أمامهم طريق الانعتاق وقادهم إلى جنة الاستقلال لا بالسلاسل بل بالخيرين من أبنائهم.

وها اننا نرى ثمار تلك النهضة العربية بعد مرور نصف قرن من الزمن وقد أثمرت فتحررت ثلاث عشرة دولة عربية (حين كتابة هذه الصفحات) وأصبح يجلس في قاعة هيئة الدول العالمية ثلاثة عشر مندوباً عن العرب. لقد نهضنا من كبوتنا التي كبوناها منذ ألف سنة. لقد استأنفنا المسير في الطريق التي كنا نسير عليها عقب النهضة المحمدية. وسنبقى سائرين. لقد كنا قبل خمسين سنة وقبل نهضة الحسين مستعمرين لا نشعر بشخصيتنا ولا أحد يشعر بها، جهلاء مرضى فقراء متخلفين في كل شيء. وخلال هذه المدة القصيرة أصبح لنا كيان نشعر به ويشعر به الآخرون. وفي الربع القرن المقبل عندما يأتي الجيل الثالث من أجيال ما بعد نهضة الحسين سيقدر أنها كانت الصرخة المدوية التي أيقظت العرب والبداية لنهضتهم وأن الحسين هو الذي نفخ في بوقها وهو الذي أضرم نارها، وهذا الجيل الذي يكون قد تحرر من ترسبات الدعايات والأكاذيب التي ألصقها بها أعداء العرب سيعطي حكمه الصحيح على الحسين وسيرفعه إلى المقام الذي يستحقه وسيسجل اسمه في صفحات التاريخ العربي مقروناً بأسماء العظماء ممن قدموا للإسلام والعرب أعظم الخدمات كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وجده علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم أجمعين.

أسماء الذين اشتركوا في الثورة من ضباط ومدنيين

أرى من الواجب علي قبل أن انتهي من بحث وقائع الثورة أن أدون أسماء من اشتركوا فيها وهو أقل الوسائل للاعتراف بجميلهم الذي لم يقم أحد بتقديره حق قدره. لقد قام قبل

الحرب العالمية الأولى جمع من الشباب العربي المتعلم بصيحتهم الأولى في سبيل القومية العربية ثم قام هؤلاء الضباط بخطوتهم الأولى نحو تحقيقها والخطوة الأولى صعبة في كل أمر. عندما أعلنت الثورة والتحق بها من التحق كان الأتراك لا يزالون بعزهم وعنفوانهم وكان حلفاؤهم الألمان في أوج قوتهم يطرقون أبواب باريس بحرابهم. فكان لالتحاق هؤلاء الشباب بالثورة أقصى معاني المغامرة والتضحية وكانت مغامرتهم هذه لا تقتصر عليهم فقط بل تشمل عائلاتهم وذويهم ممن كانوا لا يزالون تحت حكم الأتراك. انهم كانوا الرواد الأول وأول المقاتلين في سبيل القومية العربية وتحت رايتها فتحملوا بذلك نقمة من لم يكن قد فكر بالقومية العربية أو يرغب في التفكير بها ونقمة من كانوا لا يزالون تحت تأثير المخدر الديني المزيف الذي خدرهم به من تحكموا بهم من فرس وشراكسة ومماليك وأكراد وموغول وأتراك. إذا كنا نسمع الآن عن الكيانات العربية ودولها وشخصيات حكوماتها وما بينها من حدود وعوائق وجنسيات وجوازات سفر فإن هؤلاء الضباط ما كانوا ليعرفوا شيئاً من ذلك، جمعتهم الثورة ليحاربوا جنباً إلى جنب تحت شعار القومية العربية ورايتها التي تعني وحدتها، وكان هدفهم الدولة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج. وهو شعار الثورة الرئيسي من قبل أن يسمعوا بالإقليمية. لهذه الغاية ناضلوا وضحوا وغامروا واستشهد منهم من استشهد. أما النتيجة التي حصلت بوقوعهم تحت استعمار حلفائهم فهي ليست من تقصيرهم أو بسبب ما قاموا به بل هي نتيجة للغدر الإنكليزي، ومع ذلك، فإنهم سجلوا بأعمالهم ودمائهم حق الأمة العربية في الحرية والاستقلال ورسموا لها بعملهم طريق الخلاص. ومع ذلك فإنك تراهم وقد استأنفوا جهادهم وحربهم وعقب الحرب ضد حلفائهم الغادرين وتوصلوا في النهاية إلى بغيتهم. وغايتهم في الحرية والاستقلال

وهكذا كانوا القدوة لمن أتوا من بعدهم. لا الحسين ولا جند الحسين استسلموا لنكول وغدر الإنكليز والفرنسيين ولا ألقوا سلاحهم ولا استسلموا، لقد أثاروها حرباً طيلة ربع قرن وكانت الثورات متلاحقة في الشام والعراق وكان وراء كل ثورة من هذه الثورات جنود من جنود الحسين يثيرونها ويقودونها وإذا ما خمدت عمدوا لتهيئة غيرها.

تعمدت أن أميز بين الضباط عراقيين وسوريين، بقصد أن أوضح للقارىء أن القطرين العربيين العراق والشام هما اللذان قاما بأعباء الثورة بالمشاركة مع الحجاز. يجد القارىء أن الضباط العراقيين كانوا يشكلون الأكثرية الكبرى من ضباط الثورة، وأن المدنيين من السوريين هم الكثرة، مع أن ميادين الثورة كانت أقرب للأراضي السورية من العراق. إن السبب في ذلك كون العراق كان بعيداً عن مركز السلطة وبعيداً عن البحر والاتصال بالخارج ولم يكن فيه من المدارس ومعاهد العلم إلا القليل اليسير وبقي بذلك متخلفاً وليس فيه مجال لطلاب العلم والمعرفة إلا للقليل النادر من ذوي اليسار. إنما كان هناك مدارس عسكرية متوسطة في كل من الموصل وبغداد، وإعدادية عسكرية ليلية مجانية في بغداد، فكان التخرج من المتوسطات يؤهل الطالب للدخول في الإعدادي حيث تؤمن له جميع احتياجاته دون أن يبقى محتاجاً إلى أية مساعدة أخرى، ومن الإعدادية هذه يرسل إلى الآستانة فيتخرج ضابطاً بعد ثلاث سنوات، وهذا كان أقرب طريق لتلقي العلم وتأمين المستقبل بأسهل الطرق بالنسبة للعراق، ولذلك نجد أن أكثرية المتعلمين في الفترة العثمانية من العراقيين هم من الضباط وكان عددهم للسبب نفسه أكثر نسبة للبلاد العربية الأخرى في الثورة. حتى ان الحكومة العراقية في بداية تشكيلها تكونت بأكثريتها من الضباط لعدم وجود سواهم من المدنيين المتعلمين

إلا القليل. فانقسم الضباط إلى قسمين: قسم احترف الوظائف المدنية والسياسية والإدارية وقسم عمل في تأسيس الجيش.

أما السبب الثاني في كونهم كانوا يشكلون أكثرية من التحق بالثورة من الضباط فلأنه عندما أعلنت الثورة العربية كان قسم كبير من العراق قد وقع بيد الإنكليز وقسم كبير من الجيش التركي قد وقع في أسرهم، وكان الضباط العراقيون في ذلك الجيش كثرة بسبب أن الأتراك كانوا يعتبرون اليمن والعراق من البلاد النائية التي لا يرغب الأتراك بالذهاب إليها، وعلى ذلك كانوا يعمدون إلى تعيين الضباط العراقيين في العراق ولهذا كان الكثير من الضباط العراقيين بين الأسرى الذين أخذهم الإنكليز. وقد كانت الروح العربية متفشية بين هؤلاء الضباط منذ تفشت الروح الطورانية بين الأتراك. فعندما قامت الثورة ودعوا للالتحاق بها لبوا الدعوة برغبة وحماس واندفاع. أما في سوريا فكان الأمر على العكس تماماً. إن سوريا تقع على ساحل البحر الأبيض تتصل بواسطته بجميع العالم. وفيها عدد من معاهد العلم الحكومية من دور معلمين وحقوق وطب ومعاهد أجنبية واسعة وكثيرة وإرساليات علمية أجنبية فكانت طرق العلم مفتوحة أمام طلابها من أغنياء ومتوسطي الحال، أما غير المسلمين فكانت الإرساليات تؤمن العلم لهم. وكان الميسورون يرسلون أولادهم إلى الآستانة وإلى الغرب. ولذلك لم يكن هناك كبير رغبة أو حاجة للإنتماء إلى المدارس العسكرية فكان في الغالب ينتمي إليها اما الفقراء أو من يستسهلون الطريق أو الأتراك الذين يسكنون سوريا بسبب الوظيفة أو التقاعد وهؤلاء هم الكثرة من المنتمين للمدارس العسكرية. ولذلك نجد أن خريجي المدارس العسكرية من الضباط السوريين قليلون ويلاحظ أن أكثرية الضباط العراقيين الذين سنقرأ عنهم هم ضباط محترفون والأقلية فيهم من ضباط الاحتياط المأخوذين

خلال الحرب من خريجي المدارس الإعدادية وما فوق. أما الضباط السوريون المذكورة أسماؤهم فالمحترفون فيهم قلة والأكثرية من ضباط الاحتياط. كما نجد أنه لم يلتحق بالثورة من المدنيين العراقيين سوى واحد بينما يتجاوز عددهم من السوريين الـ ٢٥ شخصاً. وكذلك نجد الأسباب نفسها أن الأطباء العراقيين في الثورة كانوا اثنين فقط بينما كان من السوريين ١٢ طبيباً.

لقد استشهد الكثير من هؤلاء الضباط في ميادين الثورة ودفعوا أرواحهم ثمناً لاستقلال البلاد العربية وإعلاء شأنها ومنهم من تيتم أولادهم وترملت نساؤهم ودفنوا بعيدين عن أرضهم لا يعرف لهم قبر، بل إنهم نسوا نسياناً كاملاً حتى بلادهم التي استقلت على أساس هذه الدماء نستهم وحرم أولادهم من عون تقاعديتهم وعاشوا في البؤس والحرمان. عندما انتهت الحرب عاد كل واحد لوطنه الذي كان قد تشكل فيه كيان من الكيانات ودخل في الخدمة ليرتقي ويتقدم وبقي أولئك الشهداء في قبورهم منسيين لا أحد يفكر بهم ولا بمن تركوه خلفهم من أرامل وأطفال. لقد أعطى هؤلاء الشهداء كل ما يمكن أن يعطى للوطن ولكن أوطانهم لم تعطهم شيئاً.

أسماء من اشترك بالثورة
من العسكريين العراقيين

الرتبة أثناء الثورة	الاسم	الرتبة أثناء الثورة	الاسم
أمير لواء	جعفر العسكري	ملازم	حميد القشطيني
عقيد	نوري السعيد	ملازم	إسماعيل صبري
مقدم	علي جودت الأيوبي	ملازم	شريف الفضلي
رئيس	إسماعيل نامق	ملازم	عبدالله الربيعي
مقدم	تحسين علي	ملازم	سامي سعيد
رئيس	شاكر عبدالوهاب	ملازم	خليل مخلص
ملازم	بهاء الدين نوري	رئيس	الشيخ عبدالجبار
رئيس	إبراهيم الرواي	ملازم	نوري عبدالوهاب
رئيس	حامد الوادي	ملازم	يوسف ضيا
رئيس	محمود حلمي	ملازم	عبدالله صيغابي
مقدم	مولود مخلص		
مقدم	جميل المدفعي	ملازم	احمد حمدي زكريا
رئيس	عبدالحميد الشالجي	ملازم	خضر عبدالله
مقدم	عبدالمجيد الشيخلي	ملازم	عبدالرحمن محمد عارف
ملازم	خليل نامق	ملازم	رشيد الهاشمي
ملازم	أمين خاكي	رئيس	إبراهيم كمال
ملازم	شفيق الحيد	رئيس	عبدالجبار أبو بهيجة
ملازم	عبدالرحمن شرف	ملازم	جمال بابان
ملازم	طاهر محمد عارف	ملازم	حسن غصيبه
ملازم	شاكر النائب	رئيس	توفيق نزهت
ملازم	أحمد عزت داوود	ملازم	حمدي صدر الدين
ملازم	خزعل هجري	ملازم	طه بقيق
ملازم	صالح العزاوي	مقدم	عبدالوهاب الشيخ محمود
رئيس	عبدالرزاق وهيب آغا	مقدم	قاسم راجي
ملازم	سليمان مسرور	عقيد	رشيد المدفعي
ملازم	عبدالرزاق خنجر	رئيس	عبدالجبار قره شعبان
ملازم	حسام الدين البكري	رئيس	حميد الهاشمي
ملازم	شمس الدين علي	ملازم	عمر موفق

يتبع

تابع

الرتبة أثناء الثورة	الاسم	الرتبة أثناء الثورة	الاسم
رئيس	بهجت الكروي/ شهيد	مقدم	رشيد علي/ شهيد
مقدم	سيد محمد طاهر/ شهيد	ملازم	سامي المدفعي
ملازم	عبدالرزاق الفضلي	ملازم	يوسف عز الدين
ملازم	خضر صالح	رئيس	أحمد ناجي ابن عمتي
ملازم	أحمد حقي خماش	ملازم	محمد علي دهوك
ملازم	مجيد مهدي	ملازم	سعدي مصطفى قرة يامش
ملازم	ثابت عبدالنور	رئيس	صبحي حليم
رئيس	ناجي شوكت	ملازم	رفعت شوكت
رئيس	حسين صبري	رئيس	حميد المدفعي
رئيس	فواز	رئيس	علاء الدين جواد
ملازم	أشرف أحمد	ملازم	أحمد رمزي جوريد
ملازم	عبدالغفور البدري	ملازم	
ملازم	صلاح الدين الضراع	ملازم	عبدالسلام الكيلاني
رئيس	رشيد معروف الأنكرلي	رئيس	عبدالرزاق الخوجة
رئيس	برقي العسكري	رئيس	شاكر محمود
رئيس	شاكر الشيخلي	مقدم	عبدالله الدليمي
ملازم	داوود صبري المدفعي	مقدم	أحمد رشدي قبطان
مقدم	جميل الراوي	رئيس	حسن معروف
ملازم	رشيد خماش	ملازم	سعيد يحيى
رئيس	مصطفى الشيبي	ملازم	مصطفى النكريني
ملازم	ثامر السعدون	ملازم	حسين فهمي
ملازم	صالح دلق العزاوي	ملازم	عبدالرزاق حلمي
ملازم	حسام الدين البكري	ملازم	الحج أحمد المدفعي
ملازم	جميل فتاح	الزعيم	عبدالوهاب
ملازم	إبراهيم شهبندر	ملازم	عادل الزهاوي
ملازم	أحمد محمود	ملازم	توفيق نزهت
ملازم	عاصم قنبر	ملازم	قاسم أحمد مختار
ملازم	السيد أحمد محمود	ملازم	حسن شوقي الصباغ
ملازم	محمود سبرت	ملازم	صبري عبدالقادر
ملازم	عبدالقار عباس	رئيس	علي ياور
ملازم	حمدي ماموا	رئيس	عزت محسن
ملازم	فوزي بشير		

يتبع

تابع

الرتبة	الاسم	الرتبة	الاسم
رئيس	عبدالكريم شاه		
ملازم	ابراهيم فهيم		
ملازم	رشيد تمن		
الاطباء			
	حسين حسني		
	ناجي الأصيل		
بيطري			
	حسين فوزي		
من المدنيين			
	محمد شريف العمري		

أسماء الضباط الملتحقين بالثورة من السوريين

الرتبة أثناء الثورة	الاســــم	البلــدة
مقدم	حسن وفقي	دمشق
ملازم	صبحي الخضرا	فلسطين
ملازم	تحسين قدري	دمشق
رئيس	شوكت العائدي	دمشق
رئيس	عبدالعزيز الجندي	حمص
مقدم	توفيق الجندي	حمص
رئيس	صبحي العمري	دمشق
ملازم	محمود الهندي	دمشق
ملازم	سمير الرافعي	طرابلس الشام
ملازم	سعيد عمون	لبنان
رئيس	بهجت الشهابي	دمشق
رئيس	فائز الشهابي	دمشق
رئيس	حسين الديري	دير الزور
رئيس	علي خلقي	الأردن
رئيس	زكي الدروبي	دمشق
رئيس	زكي المهايني	بيروت
ملازم	مصباح البيروتي	بيروت
مقدم	راسم السردست	دمشق
رئيس	أحمد توفيق الحموي	دمشق
المقدم	عبداللطيف عقيل	حلب
رئيس	زكي الحلبي	دمشق
رئيس	محمد علي العجلوني	الأردن
رئيس	عبدالوهاب الحكيم	دمشق
رئيس	محيي الدين البيروتي	دمشق
م. أول	حسين المدفعي	نابلس
م. ثاني	أمين الكيلاني	حماة
م. ثاني	فارس/ كان مرافق نوري	دمشق
م. أول	عبداللطيف لاسلكي	فلسطين
م. ثاني	ياسين	دمشق
م. أول	محمد المغربي	دمشق
م. ثاني	رضا الشاش	دمشق
م. ثاني	حسين المغربي	دمشق

يتبع

تابع.

الرتبة أثناء الثورة	الاســـم	البلـــدة
مقدم	حسن فهمي	دمشق
	عزت المقدم	
مقدم	علي	نابلس
ملازم	راغب الرشاش	نابلس
ملازم	مصطفى البيروتي	بيروت
م. أول	سليمان صبحي العمري	حلب
ملازم	محمد العسلي	القدس
ملازم	فؤاد نوري	دمشق
رئيس	أديب وهبة	سلط
رئيس	فخري البارودي	دمشق
ملازم	إبراهيم حقي	أنطاكية
مقدم	امين الأصيل	دمشق
مقدم	توفيق الشهابي (شهيد في معان)	دمشق
مقدم	محيي الدين المغربي	دمشق
الأطباء:	محمود حموده	دمشق
	عبدالعزيز الكنعاني	دمشق
	حكمت المرادي	دمشق
	فؤاد الداوودي الدجاني	فلسطين
	خيري القباني	دمشق
	حمدي الخوجة	دمشق
	محمد الفيتوري	طرابلس الغرب
	مرشد خاطر	لبنان
	أحمد قدري	دمشق
	نعمان ثابت	لبنان
	معلوف	حلب
	توفيق احمد	حلب
صيدلي:	سعيد السمان	دمشق
	بشير	بيروت

اسماء المدنيين الملتحقين بالثورة من السوريين

الاسـم	المدينـة
فوزي البكري	دمشق
نسيب البكري	دمشق
البكري	دمشق
رستم حيدر	دمشق
أمين يزبك	لبنان
إميل الخوري	لبنان
الشيخ فريد الخازن	لبنان
يوسف الشيخاني	لبنان
نعيم خوري	لبنان
توفيق الحلبي	دمشق
قائز الغصين	حوران
لطفي العسلي	دمشق
عبداللطيف العسلي	دمشق
حكمت العسلي	دمشق
علي الغبرة	دمشق
فائز العظم	دمشق
أحمد العظم	دمشق
سعد الدين العظم	دمشق
عمر العظم	دمشق
بدري العظم	دمشق
الشيخ سعيد الباني	دمشق
سليم عبدالرحمن	فلسطين
رفيق التميمي	فلسطين
خليل السكاكيني	القدس
فؤاد سليم	لبنان
حبيب جاماتي	لبنان
محموذ المغربي	دمشق

أسماء الضباط الملتحقين بالثورة مباشرة وليس عن طريق الأسر

الرتبة	الاسم	البلدة
عقيد	نوري السعيد	عراقي
مقدم	مولود مخلص	عراقي
رئيس	بهجت الكروي	عراقي
رئيس	شوكت العائدي	دمشق
ملازم	سمير الرافعي	طرابلس الشام
ملازم	سليمان صبحي العمري	حلب
ملازم	محمود الهندي	دمشق
رئيس	صبحي العمري	دمشق
ملازم	محمد علي العجلوني	عراقي

فهرس الاعلام

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

المعارك الأولى

الثورة العربية الكبرى، التي انطلقت من الحجاز في بدايات هذا العصر، كانت ولا ريب، بداية الانطلاقة العربية، نحو التحرير والاستقلال، بعد مئات السنين، من الجور والاستغلال والاستسلام للمقدور...

كثيرة هي أخطاؤها، وكثيرة هي مظاهر الروعة والنبل فيها، رغم انها، ربما، لم تؤت أكُلها حتى الآن... إلاّ ان ما لا شك فيه، أن الكثير من تفاصيلها وأسرارها، ما يزال بحاجة إلى الكشف والبحث، ليكون دليلاً إلى المستقبل.

صبحي العمري، كان ضابطاً في صفوف الثورة، شارك في معظم معاركها، ولهذا تتخذ «مذكراته» هذه طابع الفرادة والأهمية..